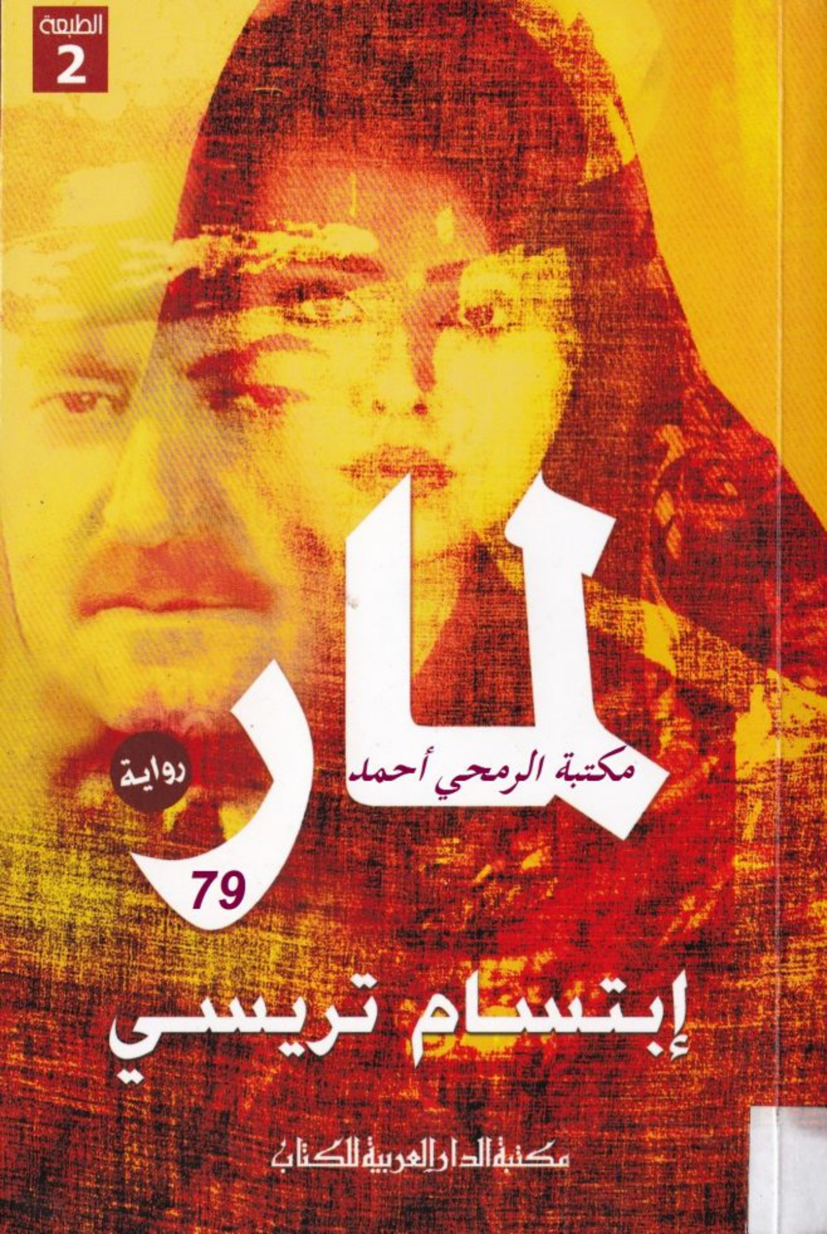
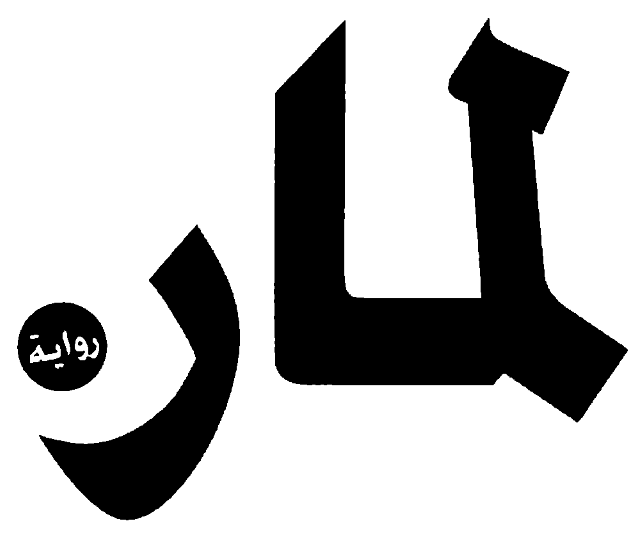

الطبعة
2
لمار
مكتبة الرمحي أحمد
رواية
79
إبتسام تريسي
مكتبة الدار العربية للكتاب



إبتسام تريسي

إهـــــداء

إلى غيَّاث مطر شهيدًا رسم بدمه درب الحريّة.

إلى غسَّان سلطانة.. مات غريبًا وهو يدافع عن حريته.

إلى نور حلاق معتقلًا حرًّا.. إلى أحرار سوريا..

(يُشخِّص الظلُّ كلَّ ما ترفض الذات الاعتراف بأنَّه فيها.
ومع ذلك يُقحِم نفسه عليها مباشرة أو مداورة. كأن يكون
فيه صفات دنيا أو ميول أخرى لا تتوافق مع الذات)

كارل يونغ

المخابرات الجوية - حرستا، 2013

لو كان حرًّا ما صار أسطورة![1]

حـدث التعارف بين الأسـتاذ والمـؤرِّخ يونس عزيز في اليوم السـابع مـن وصوله. عاد «يونس» مـن التحقيق وهو في حالة يُرثى لها، الشـباب فـي المهجع اعتـادوا هذا الأمر، تحديـدًا مع «يونس»، فقد تلقَّوا جسـده مُفسـحين لـه مكانًـا علـى الأرض. معظمهم بقـوا واقفين، ريثمـا قامت مجموعـة منهـم بتدليك جسـده، وبجانبه جلـس طبيب مـن المعتقلين، نظَّـف الجروح، وعقَّمها، ولفَّها بقطع قماش مُنتزعة من ثياب المعتقلين. لم يكن في الزنزانة أيُّ شـيءٍ يساعد على شفاء الجروح، وفي ظرفٍ أكثر سـوءًا مما يمكن لبشرٍ أن يتصوَّره، قام الطبيب بمجهود استثنائي لحمايته من مضاعفات قاتلة.

حيـن اسـتيقظ «يونس» فـي منتصف الليـل، كان الجميـعُ نيامًا، صار يئنُّ بصوتٍ خافتٍ، لامس سـمع الأسـتاذ، فخفق قلبه.. لم يكن يستطيع

(1) محمود درويش.

أن يستدير ليحدِّثه، سحب جسده بصعوبة، وقف محاولًا تلمُّس طريقه بحذرٍ بين أجساد المعتقلين، وصل إليه، ساعده على الجلوس بجانبه. أسند «يونس» رأسه على كتف الأستاذ، وهمس: «شكرًا لك، لم أعد أستطيع البقاء مستلقيًا». ربَّت كتفه قائلًا: «ستُفرج قريبًا إن شاء الله». قال «يونس»: «لا أظنُّ.. ستكون نهايتي هنا على يدي أبي الموت». ارتجف قلب الأستاذ: «مَنْ أبو الموت هذا؟». قال «يونس» هامسًا: «المقدم معن، قال إنَّه سيقتلني، لكن ليس الآن، في الوقت الذي يشاء، لقد منحني فرصة إضافية للحياة بصفته إلهًا». قال الأستاذ: «أستغفر الله العظيم». ابتسم «يونس» بوهن، وهو يقول: «يبدو أنَّك تستغرب أن يوجد إله على الأرض، المقدم أبو الموت رب هؤلاء المعتقلين جميعًا من وجهة نظره، فإن كان الله يمنح الموت والحياة، فهو بيده موت هؤلاء أو حياتهم». قال الأستاذ هامسًا: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»، ردَّ «يونس» بالصوت الواهن نفسه: «أنا أستاذ تاريخ، لكن ليس هذا ما أتى بي إلى هنا.. حكايتي طويلة. أريد أن أحكيها لأحدٍ ما قبل موتي، أتعدني أن تحكيها للناس بعد خروجك من هنا؟». قال الأستاذ: «سنخرج معًا إن شاء الله». ألحَّ «يونس»: «عِدني بذلك، انشرها باسم مستعار، المهم أن يعرفها الناس». قال الأستاذ: «حسنًا، سأفعل».

***

السيرة الهلالية

كنـت طفلًا، عندما سـافر أبـي. وكانت أمِّي ما تزال تعانـي آثار فقدها لأخـي الصغير علـى الرغم من مرور خمس سـنوات علـى وفاته. كانت حريصة على أن أكون متفوقًا في دراستي؛ لذا لـم تضعني في الصفِّ الذي تُدرِّس فيه، وكانت تطلب من زميلاتها أن يعاملنني بحيادٍ وشـدة. السيِّدة الحديدية كما لقَّبوها في المدرسة - والتي كانت ترتجف فرائص التلاميذ لمجرد وقوفها صباحًا قرب المنصة عند تحية العلم - كانت تقضي الليل وباب غرفتها مغلق عليها، وصوت نشيجها يقطِّع قلبي.

بعد مرور سنتين على سفر أبي، أخبرتني أمِّي أنَّنا سنذهب إلى دمشق لاسـتقبال أبي فـي المطار، فقد عاد من سـفره! لم أفكِّر فيمـا قالته، كنت وقتهـا غارقًـا في تجهيز نفسـي على أحسـن صـورة، ملابسـي وحذائي، وتسريحة شـعري، ونظافة هيئتي. كنت أروح، وأجيء، أستعرض أمامها جاهزيتـي للقاء أبي العائد من السـفر. وهي تهزُّ رأسـها، وفي عينها دمعة عالقة في الهدب، ترفض أن تنزل على خدها. كنت أظنُّها دموع فرح!

طـوال الطريـق إلى المطـار، كنت أتخيَّل نـوع الهدايا التـي أحضرها لي والدي من السـفر، شكله، ملابسه.. لكنَّ شـيئًا واحدًا لفت نظري في

آخر دقيقة عند نزولنا من الحافلة، الأكياس التي تحملها أمِّي، أكياس الحلوى، والملابس، و...، تساءلت ببراءة: «ألا توجد حلوى وملابس في البلد الذي سافر إليه أبي؟». لم أجد جوابًا عن سؤالي إلا عندما أنزلتنا السيارة في مكان ما من قاسيون. كان الطريق مليئًا بأناس مثلنا يحملون أكياسًا فيها ثياب وحلوى! كلُّنا مشينا في الدرب الصاعد نحو المجهول، ودخلنا من بوابة كبيرة إلى سجن المزة!

الرتل الطويل من المعتقلين معصوبي الأعين الذين يعبرون الساحة الداخلية إلى مكان ما، جعل قلبي يرتجف، فأمسكت بثوب أمِّي، التي نهرتني قائلة: «كن رجلًا».

كان أبي يجلس بانتظارنا.. وكنت أرتعش. في البداية لم أستوعب أنَّه هو، فقد نقص وزنه بشكل رهيب! أبي وأمِّي تقابلا بالدموع، وأنا كنت أقف بينهما ذاهلًا عن الدنيا. هذا الرجل النحيل المنهك، ببشرته الصفراء الشمعية، ويده المرتعشة، أبي! هذا الرجل الذي يقف بملابس السجن مكسور القلب، ومهزوم الروح، أبي!

أبي الذي سافر، وسيعود محقِّقًا أحلامنا! لم أكن أستطيع التصديق، لم أتقبَّل الأمر، فأنا لي أبٌ صوره تحتلُّ جدران البيت، تضج بالصحة والحياة. بينما الرجل الواقف أمامي نظرته منطفئة، وجسده يرتعش. أَيُعقل أن يكون أبي؟! أبي ليس مجرمًا ليُسجن وراء قضبان!

تدريجيًّا تقبَّلت الحقيقة، وفهمت أنَّ السجن في بلادنا ليس للمجرمين فقط!

أثناء وجوده في سجن المزة.. تغيَّرت الدنيا، وتبدَّلت فصول، ومرَّ ربيع، ووراءه صيف، ووراءه خريف، فشتاء، ونحن ما نزال نصعد في الدرب نفسه، ونرى المشهد المأساوي نفسه.. لم أكن أفهم لماذا على المعتقل أن يبقى معصوب العينين لا يرى ما حوله! لم أكن أستوعب لماذا كلُّ هذا التوحش في معاملة مساجين لا حول لهم ولا قوة. ألا يكفي أنَّهم فقدوا حريتهم وحياتهم الطبيعية كبشر؟

السنوات كانت تمرُّ بطيئة ومملة. أمِّي كانت تصرُّ دائمًا على أنَّ هدية أبي الوحيدة أن أحضر له كلَّ عامٍ شهادتي ناجحًا بتفوق ليراها، أن أهديه أفراحًا صغيرة حينما يراني أكبر أمامه، وأصبح رجلًا يُعتمد عليه؛ ليطمئن قلبه أنَّ «مَن خلَّف ما مات»، وأنَّ أمِّي ستكون بأيدٍ أمينة، وتجد مَن يعتني بشيخوختها.

عندما التحقت بالخدمة الإلزامية.. ولسوء حظي وقع عليَّ الاختيار، مع مجموعة كبيرة من المتفوقين في جميع الكليات، للخدمة تحت إمرة الجنرال. كنت قد سمعت مسبقًا عن الجنرال وأخلاقه، وطريقة معاملته للعساكر. البعض كان يمتدح أسلوبه، ويقول إنَّ مَن يخدم تحت إمرته يكون مدلَّلًا. والبعض يُبدي استياءه من دون ذكر أسباب! الجنرال كان مغرمًا بالحفلات والظهور والنساء، وكان يرى أنَّ الثقافة جانبٌ مهمٌّ يجب أن يتحلَّى به ليبدو أشدَّ بريقًا ولمعانًا في عيون النساء، وخاصة قول الشعر. فقد سَمِع عن شعراء العصر الجاهلي، وكان يرى في عمر بن أبي ربيعة مثالًا للفتى الذي يحبُّ أن يكونه متجاوزًا العمر الواقعي، كما

أحب أشعار الخيَّام، وتمنَّى لو يستطيع النسج على منوالها، حتَّى خطرت لـه تلـك الفكرة العبقريـة، فاصطفـى لنفسـه كلَّ المتفوقين فـي الآداب؛ ليكتبـوا لـه كتبًا ينشـرها باسـمه.. مقابـل تدليلهـم بالإجـازات والراحة التامـة في الجيـش. فألَّف كتبًا في الشـعر والنثر والنقد وتنسـيق الزهور، وحتَّى الطبخ! لم أكن وقتها قد اكتشـفت قدراتي الكتابية.. لكنَّ الجنرال اكتشفها! نبش كلَّ المخزون المعرفي لديَّ، وطلب مني أن أكتب له كتابًا عن تاريخ العرب. لم تعجبني الفكرة، ولكنَّني استسهلت الأمر لأنِّي كنت أحصل على إجازة في كلِّ موعد زيارة لأبي! وتسهيلات لم أكن أحلم بها إلـى درجـة أنِّي لم أفـارق أمِّي كثيرًا، ولـم تشـعر بالزمن الـذي قضيته في الخدمـة. ولأنِّي أبدعـت في التأليف - كما قال لي الجنرال - سـألني إن كنـت أكتب شـعرًا، فنفيت أن تكون لـي أيُّ علاقةٍ بالشـعر، اقترب مني، وهمـس بلهجةٍ مريبة: «لكنَّ أحد زملائك قال لي إنَّ والدك يكتب شـعرًا في سـجنه». قلت وكأن جبـلًا يجثم على صدري: «أبي سـيادة الجنرال، وليـس أنـا، أنا لا أعرف كتابة الشـعر.. وأظن أنَّ شـعر أبـي أيضًا رديء، ولا يصلح للنشـر». ابتعد قليلًا، جلس خلف طاولته، صمت وكأنَّه يفكِّر بأمـر مهـم، وقال بلهجـة آمرة: «مـا دمت لا تكتـب الشـعر، ولا تتذوقه، هـذا يعني أنَّك لا تسـتطيع الحكم على جودته، اجلـب لي ما كتبه والدك لأحكـم إن كان يصلـح للنشـر أم لا». لسـت أدري كيـف واتتنـي الجرأة على القول بأنَّ أبي يكتب في سـجنه، ولا يعطيني الأوراق، ولا أدري إن كان يحتفـظ بها أم لا. الجنرال قال جادًّا بلهجة مازحة: «سـيكون والدك

مسرورًا لو علم أنِّي أنا من سيقرأ أشعاره، أخبِره في الزيارة القادمة بطلبي، ولـن يرفضه». لـم يكن كلام الجنرال طلبًا، من الواضـح أنَّه كان يأمرني، ومـن الواضح أنَّـه كان يُلوِّح بشـيءٍ آخر، منعي من الزيـارة والإجازات، أو الإسـاءة إلى أبي المعتقل من خلال معارفه من ضباط المخابرات! ما حصل أنِّي سرقت الرجل المعذب، طلبت منه أن يعطيني أوراقه لأحتفظ بهـا.. وأوصلتها بيـدي للجنرال. وفوجئـت بعد مدَّة قصيـرة أنَّ الجنرال طبع الأشعار باسمه، تحت عنوان: «ترانيم الحزن خلف قضبان الخوف»، لا أعرف مَن الذكي الذي اختار العنوان للجنرال، وعدَّل القصائد لتصبح مديحًـا للـذات الحاكمة بدل المديـح لوطن ضائع الملامـح والهوية. ما تزال كلُّ كلمة كتبها والدي في سجنه هنا في ذاكرتي، لم أنسَ حرفًا منها. حمـدت الله أنَّ أحدًا لـن يقرأ الديوان، ولن يصل خبره لأبي، ولن يعرف بالجريمة التي ارتكبت بحقِّه.

فـي نهايـة الثمانينيات، تقدَّمتُ بطلب اسـتثنائي لزيـارة خاصة لأبي، وقُبـل طلبي بدعم من الجنـرال. كانت المرَّة الوحيدة التـي نرى فيها أبي في غرفة مدير السجن المطلة على دمشق! دخل والدي الغرفة، وأخذني بالأحضان.. ثمَّ توقف مذهولًا، وهو ينظر من النافذة إلى قاسيون، وقال: «يـا إلهـي.. هناك شـجر علـى قاسـيون!». لحظتهـا أدركتُ معنـى مرور عشـرين عامًا على وجود إنسـان وراء القضبان.. بعد ذلك بسـنتين تُوفي أبـي، فقـد نبتت الأشـجار في غيابه القسـري داخل العتمة، فـأراد معانقة قاسيون الأخضر بحريَّة!

أعـادوا إلينا حقيبته، أحـلام رجل في حقيبة صغيـرة، حياته اقتصرت على بضعة كتب، أدوية، أدوات حلاقة، وملابس قليلة لا تصلح لشيء.. هـذا متاع دنياه! متاع رجـل رحل مثل الآلاف الذين مرُّوا بسـجن المزة. آلاف لم يتركوا وراءهم سـوى حقائب بائسة معبَّأة بالألم، وقبر في تراب قاسـيون، وأعوامٍ من الذل والتعذيب، لم يعرفوا لها سببًا. اثنان وعشرون عامًا مات بعدها من دون محاكمة!

ومـع أنّ خدمتـي انتهت، وأُزيـح الجبل الجاثم فوق صـدري. إلّا أنَّ الجنرال لم ينسني، بعد مدَّة قصيرة، فوجئت باتصال من ضابط مخابرات يستدعيني إلى فرع الأمن السياسي، وعلى الرغم من الخوف والاضطراب الـذي مُنيت به، إلا أنِّي كنت مطمئنًّا بعض الشـيء. فلو كان الأمر خطيرًا لاعتقلوني مباشرة من دون طلب مراجعة!

في فـرع الأمن، لم يتركوني أنتظر في الصالة، ولا في الممر، ولـم أمر على ملازم أو نقيب، أُدخلت مباشـرة إلـى غرفة رئيس الفرع بعد أن أخذ الحارس مني هويتي ومحفظتي، وفتَّشني تفتيشًا دقيقًا. فوجئت بالجنرال ينتظرنـي شـخصيًا فـي الغرفـة.. كان وحـده! لـم أتمالـك نفسـي، كنت مضطربًا وخائفًا. رأى ارتباكي، فضحك ضحكته الشهيرة، وشتمني بأمِّي هـذه المرَّة، وقد اعتاد أن يشـتم أبي من قبل، وبرَّر لي مباشـرة بأنَّ الميت لا تجوز عليه سـوى الرحمة! طلب مني الجلوس، وقرَّب كرسـيه، وقال هامسًـا، بما يوحي بأهمية ما اسـتدعاني من أجله: «أريدك في خدمة أنت أهـلٌ لها». ارتجـف قلبي، ماذا يمكنني أن أقدِّم للجنـرال وأنا ما أنا عليه،

وهـو مَن هو! كنت قد نسـيت أمر التأليف نهائيًا.. حتَّـى همس الجنرال: «أخبر أهلك أنَّك سـتغيب لمدَّة شـهر أو شـهرين في مأمورية سـرِّية كي لا ينشـغلوا عليـك. ووافني غدًا فـي الصباح الباكر إلـى مكتبي. خذ هذه الورقـة، أعطهـا للحـارس، فيُدخلك مباشـرة». لم يُضـف الجنرال كلمة واحـدة علـى ما قال، نهض مصافحًـا بيدٍ، وضاربًا بالأخـرى على كتفي. تلك الضربة أفهمتني أهمية العمل الذي سأقوم به.

شُـغلت طيلة الليل بالأمر، لم أسـتطع أبدًا أن أعرف نوع العمل الذي سأقوم به من أجل الجنرال، لم يكن بمقدوري الرفض، ولا الهرب.

في اليوم التالي حضَّرت حقيبتي لأُقنع أمِّي أنِّي مسافر.. حين أغلقتُ البـاب خلفي، عـادت وفتحته، كان في عينها ظلُّ دمعـة، رأيتها حين زرنا أبـي للمرَّة الأولى. احتضنتْ يدي طويلًا، وكأنَّها تودِّعني الوداع الأخير. أيقنـتُ أنَّ حقائـب السـفر، وحتَّى بطاقـة الطائرة، لا يمكنهـا خداع قلب أمٍّ انتظـرت أكثـر من عقديـن زوجًا لم يعد! لم تأخذ عـزاءه، لم تبكِ علنًا عليه. لم تجرؤ طيلة تلك السـنوات على ذكره أمام الآخرين. حاولتُ أن أبدو متماسكًا، فقد كان داخلي مطمئنًّا أنَّ مهمتي لن تجعلني ألقى مصير أبي.

الحارس الشـخصي للجنرال قادني إلى غرفة صغيرة بقيت فيها أنتظر سـاعتين كاملتيـن. جاء بعدها شـخص ليرافقني إلى سـيارة، سـلكت بنا طريـق المزة، الطريق الذي حفظته جيدًا بكلِّ تفاصيله. بقيت صامتًا حتَّى توقفت السـيارة على طريق المطار، في مكان خلاء، وطلب مني مرافقي

أن أعصب عينيَّ! تعليمات الجنرال كانت واضحة! معاملتي بطريقة حضارية. هكذا قال لي مرافقي: «طلب مني الجنرال أن أعاملك بلطف، أنت لست معتقلًا على أيِّ حالٍ..». لم أعرف أين مضت بي السيارة بعد ذلك، لكنَّني قدَّرت أنَّ الجوَّ أصبح باردًا مما يدل على صعودنا قاسيون، وأنَّ السيارة عبرت بوابات حديدية فُتحت لأجلنا، وأدَّى حرسٌ كثيرون التحيَّة العسكرية للضابط الذي يرافقني! بعد نزولنا من السيارة، تأبَّط ذراعي ليساعدني على تلمُّس طريقي. أُغلقتْ أبوابٌ وراءنا، وفُتحت أخرى، وعبرنا باحات واسعة، وصعدنا سلالم، ودخلنا صالات تفوح رائحة الصمت والرفاهية منها، ثمَّ أغلق عليَّ باب غرفة، وطلب مني مرافقي أن أزيل العصابة عن عينيَّ.

وجدت نفسي في غرفة مكتب واسعة، تتجاوز مساحتها هذا المهجع، كانت تقريبًا عشرة أمتار في عشرة. جدرانها صُمِّمت على شكل مكتبة غصَّت بالكتب! وقد وُضع فيها مكتب، وأُضيف إليها سرير متواضع يبدو دخيلًا عليها. عرفت أنِّي سأقيم هنا مدَّة الشهرين أو الثلاثة أشهر ريثما أُنهي الكتاب! أخذتني إغفاءة قصيرة، لم أكن مستعجلًا للوقوع في شرك غواية المكتبة الضخمة.

انتبهت على صوت أقدام تقترب من الباب، ويد تطرقه بلطف. دخلت خادمة شابة، وضعت على طاولة صغيرة صينية طعام وإبريق شاي، وأومأت برأسها تسأل إن كنت أحتاج شيئًا. شكرتها بكلمة وأنا أحاول لملمة ارتباكي والمحافظة على رباطة جأشي.

أخيـرًا جاء الجنرال يسـبقه إيقاع عصاه الأبنوس علـى أرضية ناعمة. دخـل بصخـب، وجلس وهـو يُلقـي نكتـة بذيئة، ويشـعل سـيجاره. لم أتجـاوب مع النكتـة، ولـم أنبس بكلمة، كنت أنتظـر التعليمات فقط. قال وكأنَّـه ليس على عجلة من أمره: «أعجبتك المكتبة؟». قلـت: «لم تُتَح لي الفرصة بعد للاطلاع عليها». هزَّ رأسـه استحسانًا لا أدري على ماذا، عاد وسـألني: «أعجبـك الطعام أم تريد صنفًا معينًا؟». قلـت: «ليس مهمًّا، أنا لسـت متطلبًا.. فقط أريـد أن أعرف ما هو العمل الـذي تريده مني». قال بجديـة وعلى غير عادته: «الموضوع في غاية الأهمية. سـتؤلِّف كتابًا عن حياة وفكر القائد، انتبه جيدًا، مهمتك سـرية، ما سـتكتبه هنا عليك نسيان أمـره بعد خروجك. الكتاب يجب أن يحوي خلاصة فلسـفته في الحياة، فـي الحكم، علاقاته الخارجية، حنكتـه في التعامل مع القضايا المصيرية لشـعبنا العربـي. انتبـه.. العربـي، فأنت تعـرف أهمية موقفنا مـن القضية الفلسـطينية. الكتاب لن يكون سـيرة ذاتية فقط، بل سيشـمل كلَّ الأسس النظرية الفلسفية لسياسة القائد في التعامل مع الشعب. هل فهمت؟».

قلت وأنا أحاول السيطرة على رعشة صوتي: «هل تظنُّني أهلًا لتأليف مثل هذا الكتاب سـيادة الجنرال؟». قال بثقـة: «لو لـم أملك اليقين بذلك لمـا كلَّفتـك بالمهمـة». قلـت: «ولكنِّي لا أعرف شـيئًا عن حياة سـيادته الشـخصية، فكيف سـأقوم بالعمل؟». قال الجنرال وعلى وجهه ابتسامة رضـا: «كلُّ مـا تطلبه من معلومات سـآتيك به.. سـأقوم بزيارتك يوميًّا.. سـآخذ الأوراق التي تكتبها كلَّ يوم، سيراجعها القائد بنفسه.. ثمَّ أُعيدها

إليك. لا تنسَ مواعيد النوم، القراءة، الكتابة، الطعام، كلُّ ذلك في جدول أمامك على الطاولة».

كنت حريصًا على التقيُّد بالتعليمات، أعمل كالساعة تمامًا، أصحو في السادسة، أتناول فطوري، أبدأ العمل في السابعة، في الثانية ظهرًا أتناول الغداء، في الرابعة عصرًا الشاي، في السابعة أتوقف عن الكتابة، أقوم بالقراءة حتى العاشرة، موعد مرور الجنرال! يأخذ الأوراق منِّي، يعيدها في الساعة الثانية عشرة، وقد وُضعت عليها ملاحظات بقلم رصاص، شُطبت بعض الأسطر، عُدِّل بعضها، وكُتب في الهامش الموافقة على المتابعة! كنت أشكُّ أنَّ القائد هو مَن يقوم بتلك المراجعة، فقد تخيَّلت أنَّ الجنرال سينشر الكتاب باسمه، وأنَّه هو مَن يقوم بتلك التعديلات، كما يقوم بتزويدي بالمعلومات التي أريدها، والكتب التي تساعدني على مواصلة الكتابة.

في الكتاب كنت أؤسس لفكرة الخلود التي بحث عنها جلجامش منذ بدء الخلق. وقد أعجبت الفكرة الشخص الذي يُراجع ورائي، أثنى عليها بكلمة رائع! ثمَّ كتبت عن الاحتواء كفكرة حاول القائد من خلال تعامله مع الشعب أنْ يكرِّسها من خلال مفهوم الأبوة، فهو الأب للشعب كلِّه. لم يخطر لي في أثناء الكتابة أن أضيف أيَّ بعد ديني لمفهوم الأب، لكنَّ الأوراق وصلتني تلك الليلة وعلى هامشها ملاحظة: «أليس الأب هو الخالق، والابن هو الرسول كما جاء في الدين المسيحي؟». لم أفهم الرسالة الخفية من الهامش، احترت، هل الذي كتبها كان ينهاني عن

تضمين الكتاب هذه الفكرة، أم أنَّه يطالبني بإعطائها بُعدًا دينيًا؟ القائد لم يكن مسيحيًا على أيِّ حال، لكنِّي ما زلت في ورطة. حسمت أمري أخيرًا، وتجرَّأت على كتابة هامش: «المسيح ابن الله في نظر بعض الطوائف المسيحية، وأنا لم أتعمَّق كثيرًا بمذاهبهم، ولا أعرف إلى أيِّ مدى يمكن أن يقبل المسيحيون أن يتجسَّد الأب في شخص حي». جاءني الردُّ بهامش كُتب بيد مرتعشة: «الله لا يخصُّ المسيحيين، هو لجميع البشر. وسوريا ليست لطائفة، هي لكلِّ السوريين. والقائد سيكون أبًا للجميع. والأب لا يأخذ سلطته من الدم فقط، بل يأخذها من التربية، والاحتواء، وفرض الطاعة!». حينها اخترعت اللقب الذي لازم القائد طيلة حياته، «الأب القائد» تيمنًا بألقاب مَن سبقوه من حكَّام العالم المشهورين«الأب الصغير للشعوب، القائد الأكبر، الموجه الأكبر...»، لكنِّي جمعت في لقبه بين الديني والسياسي، واختصرت في شخصه كلَّ رموز العظمة والقوة والخلود!

كثيرًا ما ارتجفت يدي وأنا أكتب. كنت أخشى الخوض في مسائل عقائدية، أخشى أن أكفر من حيث لا أدري. وقد سألت نفسي مرارًا، هل يندرج ما أفعله تحت بند طاعة أُولي الأمر؟ هل سيعاقبني الله على ما كتبت؟ وكنت دائمًا لا أجد الجواب!

في نهاية الشهر الثاني لإقامتي الجبرية مع دخول الخريف، تحديدًا في الحادي عشر من أيلول، صحوت من إغفاءة الساعة الرابعة، التي لم تكن تتجاوز الدقائق بعد موعد الشاي، على ضجيج في الساحة الواسعة

التي أذكر تفاصيل خطواتي فيها، عندما عددتها، وتنفست هواءها، وشممت رائحة أزهارها، وتخيَّلت شكل الشجر فيها! التعليمات كانت تقول: ممنوع أن أفتح النافذة! لكنَّ فضولي كاد يقتلني، تلصَّصت من خلف الستارة، كانت الساحة مزدحمة بسيارات الشبح السوداء، وقد نزل منها شباب وصبايا، وصوت ضحكاتهم وصراخهم أعلى من صوت السيارات. لأوَّل مرَّة أرى بشرًا منذ شهرين! أحدهم علا صراخه، وغطَّى على جميع الأصوات.. فجأة سمعت صوت رصاصة انطلقت في الهواء، بعدها انطلقت صرخات فرح من الصبايا، لكنِّي لم أفهم السبب حتَّى رأيت دماءً تسيل بين الأقدام. ربَّما كانت دماء كلب، فقد خرس النباح الذي كنت أسمعه منذ قليل! كان واضحًا أنَّ احتفالًا كبيرًا سيُقام في المكان الذي يبدو لي كأنَّه قصر في قمَّة قاسيون! حضرت الخادمة في العاشرة بدل الجنرال، وقد جلبت لي قطعة حلوى مع كأس نبيذ. لم تكد تضعه على الطاولة، وتستدير، حتَّى لمحتُ شابًّا جميل الهيئة يقف مقابل الباب، ويحدِّق فيَّ باستغراب. تقدَّم، ودفع الخادمة التي همست: «إنَّه ضيف الجنرال». لم يرد، دخل الغرفة، وبيده سوط يضرب به الأشياء من حوله، بدا في حالة سكر شديدة. شلَّني الرعب وأنا أراه يفتش في الأوراق التي كتبتها ذلك اليوم. نظر إليَّ بذهول، وهو يجلس خلف المكتب. تأملني مليًّا، وسأل: «منذ متى أنت هنا؟». قلت: «منذ شهرين». فتح فمه ليقول شيئًا، وأغلقه.. تصفَّح الأوراق ثانية، وبدأ يصحو. ضغط جرسًا مخفيًّا تحت المكتب، فحضرت الخادمة بسرعة. أشار إليَّ: «ما الأوامر بشأنه». قالت بخوف: «أنا لا أعلم شيئًا يا سيدي، الجنرال يهتم بالأمر

بشكل شخصي». شتمها، وأومأ لها بالخروج. نظر نحوي، فقلت ببرود: «أؤلف كتابًا، ولم أخرج من الغرفة منذ قدومي إلى هنا». قال باستغراب: «نهائيًّا؟! قم معي». قلت: «لا أستطيع، الجنرال أمر ألا أخرج إلا عندما أنتهي من الكتاب، وسأخرج برفقته». صرخ بي: «مَن يكون الجنرال؟! قم قلت لك». نهضت وأنا أرتعد من الخوف، سرت وراءه، عبرنا صالة فخمة لم أرَ مثلها في حياتي، ثمَّ خرجنا إلى الهواء الطلق. على الرغم من خوفي، تنفَّست بعمق هواء الحديقة الرائعة التنسيق، العابقة بروائح الزهر الذي لا أعرف أنواعه. كانت مضاءة بفوانيس خافتة، تسمح برؤية الممرات المبلَّطة، وتحجب الحدائق خلفها! توقف فجأة، واستدار ليواجهني.. لمعت عيناه في العتمة، سألني: «هل تعرفني؟». لم أجرؤ على قول الحقيقة، لم أكن أعرفه، لكن من الواضح أنَّ له سطوة كبيرة هنا، ربَّما يكون ابن الجنرال، لكنَّ ذلك غير معقول، لأنَّه تحدَّث عن الجنرال باستصغار! قال بحقد: «من الواضح أنَّك لا تعرفني، مع أنَّ الدنيا كلَّها تعرفني، الدنيا كلَّها ملكي، لي أنا، لا تصدق الإشاعات التي تقول إنَّ أخي مَن سيملك البلد بعد أبي.. إنَّهم لا يعرفون شيئًا.. ستكتب هذا يومًا ما.. قريبًا جدًّا سآتي بك إلى هنا.. وستكتب ما أمليه عليك أنا، لا ما يقوله هؤلاء الأنذال الذين أحضروك.. قل لي، ماذا تكتب بالضبط؟». قلت: «كتابًا عن فكر القائد وفلسفته في الحكم والحياة، وسيرته الذاتية». ردَّ هازئًا: «عن فلسفته قلت لي؟ وحكمته! الله الله! وماذا أيضًا، سيرته الذاتية؟ يعني كتبت أنَّ جده لويس السابع عشر؟ أم وصلت بنسبه لعلي ابن أبي طالب؟». قلت بثبات: «بالعكس، القائد لم يُرجع أصله لأحد،

بـل توقـف فـي المعلومات التـي أعطاني إياهـا الجنرال عند جـده فقط. وهو فخور بكونه ابن رجل فقير، واسـتطاع أن يحقق كلَّ هذه الإنجازات بنفسـه». قال بسـخرية: «آ.. حسـنًا، هو إذن أنجز كلَّ شـيء بنفسـه.. هل حدَّثك عن الوسـيلة التي أنجز بها كلَّ شيء.. بنفسه؟!». قال عبارته تلك وهـو يلعب بمسـدس أخرجه من جيبـه، غاص قلبي بين ضلوعي، لكن كان لا بـدَّ من الإجابة، قلت مؤكدًا: «أنـا لـم أقابل القائد، الجنرال هو مَن اسـتدعاني، ولا أعلم شـيئًا غير ما يطلب مني كتابته». أطلق رصاصة في الهواء، وسـألني وهـو يضحك: «هل لعبت الطميمـة[1] وأنت صغير؟ أنا أحـبُّ هـذه اللعبة كثيرًا، لديَّ مـكان مفضل هنا أختبئ فيـه، تعالَ لأريك إياه». جرَّني من يدي، ودفعني أمامه.. على بُعد خطوات، فتح بابًا حديديًّا كبيـرًا، ودفعني داخلـه، وأغلقه، وهو يضحك. الدُّوَار تمكَّن من رأسـي، وكـدت أقع أرضًا.. صهلت خيول، ولمعـت عيونها في العتمة، وراحت تحمحـم، وهي تنظـر إليَّ بضيق.. كنـت أتخيَّل أنَّ نظراتها تقدح شـررًا، وأنَّهـا تحاول الخروج من أماكنها لتهاجمني.. صرختُ فزعًا، وسـمعت في اللحظة ذاتها صوت ضحكاته في الخارج، والرصاص يتطاير من كلِّ جانب.. عندما فتح الباب، لم يكن أحدٌ هناك سواه! كان وحده يضحك، نظـر إلـيَّ بخبـث، وقـال: «أنت لا تصلـح للعـب.. تبدو كجـرذ خائف! أتحـبُّ منظر الدم؟». ارتجفـت، ولم أُجب. قال: «يبدو أنَّك خائف مني، هـل يبـدو منظري مخيفًـا». قلت بحذر: «بل أنت شـاب جميـل الهيئة». ابتسـم: «أنت ذكي، تعـرف كيف تتلاعب بالكلمات، هـي هوايتي أيضًا،

(1) لعبة يقوم فيها ولد بالاختباء ويبحث عنه الباقون.

أنـا أحبُّ هـذه الإجابات الزئبقية التي لا يسـتطيع المرء إمسـاكها أو فهم الدلالة الحقيقية لها. يومًا ما ستفخر أنَّك التقيت بي، وستكتب عني، هل رأيت تلك الحيوانات البائسـة في الداخل؟ يخطر لي أنَّها تصلح لمسلخ كليـة الطـب.. آ.. أنـت لم تدخل المشـرحة؟ ضـاع نصف عمـرك.. في مشرحة كلية الطب تجد بشرًا حقيقيين.. يمكنك أن تتعامل مع أجسادهم بمنتهـى الحيـاد.. عليك أن تزور المشـرحة كي تتخلَّص مـن الرهبة التي تقـف بينـك وبين الـدم.. آ.. يبدو أنَّك خَرِع حقًّا ولا تصلح حتَّى لسـماع حديث عادي، فكيف سـتكتب عني مسـتقبلًا؟ لا أريـد رؤيتك.. عد إلى مكتبـك، كنـت أريد أن أريك لعبة خاصة بي، لكن ما دمت تكتب سـيرته الذاتيـة فقـط، وفكره، ها.. لا بأس، لا دور لـي الآن، عد إلى غرفتك قبل أن أغيِّـر رأيي». هرولت في طريق العودة، وقلبي يكاد يتوقف. لـم أصدِّق أنَّ الأمر انتهى على خير!

جافاني النوم أسبوعًا كاملًا بعد تلك الحادثة ما عدا لحظات خاطفة.. فكنـت أسـتغل الوقت بالقـراءة والكتابة، مـع أنَّ الهدوء سـاد القصر بعد تلـك الليلـة. الجنـرال لم يأتِ على ذكـر ما حدث، ففهمـت أنَّه لا علاقة له بالمكان!

قبل انتهاء تشـرين الأول، كان الكتاب جاهزًا. سلَّمته للجنرال، الذي شـكرني، ورافقني هذه المرَّة مع السـائق حتَّى وصلنا إلى أسفل قاسيون، هناك أُزيلت العصابة عن عيني، وطلب مني الجنرال النزول من السيارة، ونسيان هذه الأشهر نهائيًّا!

لم أكن بحاجة لتوصية، خوفي من كلِّ ما جرى كان كافيًا لأنسى ظاهريًّا، لكنَّ الكوابيس كانت تلاحقني دائمًا.

أمِّي استقبلت عودتي بالدموع والنشيج، ولم تسألني أين كنت! كان هناك تواطؤ غريب بيننا على عدم ذكر فترة غيابي، كنت على يقين أنَّها تعرف أين كنت.. أخبرتني أنَّ راتبي كان يصلها أوَّل الشهر إلى البيت عن طريق البريد! وأنَّها أُحيلت إلى التقاعد في غيابي، مع أنَّها لم تكمل سنوات خدمتها، لكنَّها تقبض راتبها كاملًا أيضًا! الغريب أنَّ الكتاب لم يصدر. كنت دائمًا أمرُّ على المكتبات بحثًا عن كتاب صدر عن القائد حديثًا، حتَّى حفظني أصحاب المكتبات كلُّهم، فكانوا يخبرونني أنَّه لا يوجد كتاب جديد قبل أن أسألهم! فتوقفت عن البحث.

سنوات طويلة مرَّت على تلك الحال من الصمت وتجنُّب الحديث عن فترة غيابي. كما صمتت أمِّي أخيرًا عن إلحاحها عليَّ لأتزوج. كنت أقول لها ما قاله المعري: «هذا ما جناه أبي عليَّ». في الواقع لم أكن أهلًا لتحمُّل مسؤولية الزواج، مع أنِّي أحبُّ الأطفال، لكنَّ إحساسي بالعجز عن تربيتهم، و تأمين حياة حرَّة لهم، منعني من فعل ذلك.

في عام 2004، مع موجة انطلاق الحريَّات المزعومة، كنت وأحد أصدقائي من المعارضين نتحدث عن الفرق بين زمن الأب والابن، وتطرقنا إلى الكتب التي كُتبت عن الأب، فذكر لي بعض الأقوال التي أعجب بها على لسان الأب. كأنَّ جمرة لسعت قلبي، قبل أن يقع جمر النارجيلة على يدي. سألت صديقي الذي سارع بلهفة للاطمئنان على

يـدي: «من أيـن أتيت بهذه الأقـوال؟»، قال بلا مبـالاة: «من كتاب صدر بالإنجليزيـة ترجمه صحفي مغمور عن العربية، لكنَّ النسـخة الإنجليزية لـم تذكر اسم المؤلف»!

مـع بدايـة الثـورة، صـرت أكتـب علـى موقـع التواصـل الاجتماعي الفيـس بوك باسـم مسـتعار، أذكـر فيه بعـض الحقائـق التـي عرفتها عن حيـاة الأب القائـد، وخطـر لي فجـأة أن أبحث عن مدى صـدق وواقعية تلـك المعلومات التي كتبتهـا بيدي، وتُرجمت إلى الإنجليزية. سـافرت إلـى عـدَّة مـدن، التقيـت الكثير مـن الشـخصيات، وجمعـت الكثير من المعلومـات لكتابي الجديد. حين بدأت بالكتابـة، خفت أن يقع الكتاب بيد أحد، فغيَّرت رأيي، وقلت سـأكتبه على شـكل رواية، وعندما يسـقط النظام، سأؤلف كتابًا جديدًا. وقتها فقط التقت نظراتنا أنا وأمِّي بوضوح، وحدَّثتهـا عن فترة غيابي. لـم أكن أعلـم أنَّ أمِّي تملك مفتاح الرواية التي سأكتبها.. حتَّى حدَّثتني بأخطر ما في روايتي.

لا أعـرف كيـف، ولا عن أيِّ طريـق عرفت المخابـرات بأمر الكتاب الـذي أقـوم بإعـداده! اقتادونـي مـن البيـت، ولم تكـن أمِّي هنـاك، لكنَّ الجيران عرفوا بالأمر.

أخذوني إلى فرع فلسـطين، بقيت في القبو شـهرًا كاملًا حتَّى انتصف أيلول، حينها نقلوني إلى فرع الإدارة العامة.. ونُقلت في بداية تشرين إلى فرع الخطيب، قضيت فيه شـهرًا كاملًا.. كان المعتقلون هناك يطمئنونني أنَّ الفـرج قريب، وأنَّهم لن يحتفظوا بي سـوى شـهرين، سـأحوَّل بعدها

إلى المحاكمة، كما يحدث للجميع. لكنَّ حدسي الصادق كان يقول لي إنَّهم لن يتركوني أخرج حيًّا.. والدليل أنَّه لم يبقَ فرع مخابرات لم أزره، وتعاقب على رأسي محقِّقون لم أعد أذكر منهم سوى أحذيتهم!

أخيرًا أخبروني أنِّي سأذهب إلى حتفي! هكذا قال لي المحقِّق في باب مصلى: «ما مررتَ به مجرد نزهة، ستذهب الآن إلى حتفك». لم أفهم العبارة حتَّى عرفت أنِّي أصبحت في فرع الجوية بحرستا.. وسمعت من المعتقلين عن «أبو الموت»، وعلمت قبل أن ألتقي به الطريقة التي يموت بها المعتقلون على يديه! سلَّمت أنَّ عزرائيل سيقبض روحي إن عاجلًا أم آجلًا، فرحت أدعو أن يكون ذلك في أقرب وقت.

قبل أن ينتهي تشرين الأوَّل استُدعيت للتحقيق، لكن لم أقابل «أبو الموت»! كان تحقيقًا روتينيًّا، انقضى بسرعة، وفرزوني مع مجموعة شباب، علمت من أحدهم أنَّهم مجموعة الموت المؤجَّل. العبارة المرعبة التي فتحت أبواب مخيلتي على مشاهد التعذيب في زنازين العصور الوسطى، لم أكن أتصور حين قرأت تاريخها، ودرسته، أن أصل إلى لحظة في حياتي أعيش فيها في تلك الزنازين!

قادونا إلى سيارة مغلقة وأعيننا معصوبة، سلكنا طريقًا يبدو من رائحة الهواء الساخن، أنَّه يتجه جنوبًا، وربَّما لا، فنحن لا نرى، وبالكاد تلتقط آذاننا أصوات الفضاء الخارجي. توقفت السيارة في مكان ما.. لم أستطع تحديده على الرغم من معرفتي بالجغرافيا.. من الخطأ أن ندَّعي معرفة

مكان لمجرد أنَّنا درسناه في خريطة. فللمكان روح لا يدركها إلا مَن مرَّ به سابقًا. كنت على يقين أنَّني لم أمر من هنا قبل الآن!

حين نزلنا من السيارة.. انفتحت علينا بوابة جهنم، هبَّت ريح ساخنة.. محمَّلة بالغبار، لفحت وجوهنا بشدة، في البداية قادني حدسي إلى أكثر الاحتمالات توقعًا «الإعدام الميداني». لكنَّهم أزالوا العصابة عن أعيننا، وفكُّوا قيودنا، وناولونا فؤوسًا، وأمرونا بحفر الخندق! في أثناء الحفر لم تفارقني صورة كتمت أنفاسي، إنَّنا نحفر قبورنا، سيطلقون علينا الرصاص بعد قليل، ويتركوننا داخل الحُفر التي صنعناها بأيدينا! لم تكن الصورة متخيلة تمامًا، فقد أخبرني أحد المعتقلين، أنَّ «أبو الموت» يخرج مع المعتقلين أحيانًا، ويتسلَّى بقتلهم، ويتركهم داخل الحفر، ومنهم مَن يموت جوعًا وعطشًا قبل أن يعاجله برصاصة. لم أكذِّب الشاب الذي روى لي تلك الحادثة ووجهه شاحب، وهو يرتجف، بل شئت الاقتناع بأنَّها هلوسات الخوف فقط! لكنَّني وأنا أقوم بالحفر، وجدت نفسي أفكِّر بالأمر رغمًا عني، ولم أستطع الخروج منه، حتَّى جاء السجَّان ليأمر الجنود الذين يقومون بحراستنا بتقييدنا وسوقنا إلى الحافلة. لم أستطع أن أستوعب مَن أعطى هؤلاء الحقَّ ليلعبوا بمصائرنا، ويتسلَّوا بخوفنا وضعفنا البشري! لماذا يفعلون بنا ذلك؟ خلصت إلى فكرة واحدة «لأنَّهم ليسوا بشرًا!»

كان الأستاذ في حالة ذهول وهو يستمع لقصَّة «يونس»، فقد ظنَّ أنَّ ما شاهده خلال اعتقاله من مآسٍ لا يمكن أن يحدث أسوأ منه. تنهَّد بعمق:

«هذا يعني أن أتوقع أحداثًا أشـدَّ قسـوة من حكايتك يا يونس.. لكن، قل لـي، مـاذا كتبت حتَّى تسـتحق كلَّ هذا التعذيب؟». قـال «يونس» بوهن: «سـأروي لك تفاصيل الكتاب، لكن عدني أولًا أن تنشره بعد خروجك. أعرف جيدًا أنَّني لن أخرج من هنا حيًّا». أصرَّ الأسـتاذ: «بل ستخرج كما خـرج يونس من بطن الحوت، وستنشـره بنفسـك، لكن سأسـتمع إليك مـن بـاب الفضول فقـط». قال «يونـس»: «وإن لـم أخرج سـتفعل أنت، أتعدني؟». قال الأستاذ على مضض: «أعدك».

***

تل الجرب، خريف 1910 – ربيع 1946

العتمـة المخيفـة تهيمن علـى الجبل، فيبـدو الدرب موحشًـا وهدفًا سـهلًا لقُطَّـاع الطرق. يسـمع بأذنيه المرهفتيـن أصواتًا غامضـة تأتي من عمق الغابة. يتجلَّد مسـتخفًّا برعشـة يده التي تجرُّ حمـاره العنيد. زوجته فـي الخلف تلهث محاولة إدراك خطواته السـريعة.. وابنته ذات الأعوام السـبعة تغفـو فوق البسـاط البالي الذي لـفَّ به أمتعته البائسـة. اتكأ على عصـاه، ووقـف لدقائق منتظـرًا أن تنتهي زوجتـه من إفـراغ أمعائها. نظر إليها من دون اهتمام.. وتابع سـيره. لم يكن «سليمان» على هذه المسافة القريبـة يسـمع أنين زوجته علـى الرغم مما عُرف عنه من رهافة السـمع! كانت «هاجر» خارج اهتماماته، وخارج دائرة الطاقة المحيطة بجسـده.. يحتفـظُ دائمًـا بحاجزٍ منسـوج مـن مفاهيم ثابتـة عن المـرأة الأفعى التي أغوت جده آدم، فطُرِدَ من الجنة.

عندمـا لاح الفجـر، وصـل إلـى مشـارف قرية نائمة وسـط السـهل، لا يتنفس في بيوتها ضوء، لكنَّ حيواناتها تصدر ضجيج الصباح المشرف على الوصول.. ودخان روثها يتسـلَّل من الحقول، مرسـلًا غمامة رمادية وسـط البـرد القارس. توقـف متكئًا علـى عصاه، نظـر إلى البعيـد، تأمل

السهل بنظرة شاملة.. كانت تفاصيل المكان مشجعة على البقاء! عند قدميه وعلى امتداد مئات الأمتار، امتدت «حاكورة»[1] زُرعت بأشجار الليمون والبرتقال، وعلى أطرافها خضراوات لم يتبين ماهيتها.. وعلى مسافة أمتار كان هناك بيت بسيط لا يحوي سوى غرفة واحدة، وعلى مسافة منه شجرة خرُّوب ضخمة، بدت في غبش الصباح كمارد خارج من قمقم.. خضرتها المعتقة لفَّها شحوب الضباب الصباحي الذي بدأ يهبط تدريجيًّا صوب السهل.

أيقظه من تأملاته صوت ارتطام جسد ابنته بالأرض.. الحمار الجائع اندفع صوب الخضراوات القريبة، راميًا حمله عن ظهره! سار بخطوات واسعة، شدَّ رسن الحمار، وربطه بجذع الشجرة.. حمل الفتاة التي لم يوقظها الارتطام المريع! بل تقلَّبت بهدوء، ومدَّت ذراعيها تريد احتضان شيءٍ ما! اقترب من باب الغرفة الموارب، دفعه، لم يكن هناك أحد في الداخل. بساط ممدود في وسط الغرفة، ووسائد صُفَّت على جانبيها، وقدور في الزاوية، وجرَّة ماء! كأنَّها غرفة زاهد يتعبَّد هنا بعيدًا عن القرية. هذا ما وقر في نفسه للحظات، لكنَّه لم يتردَّد في إدخال الفتاة، ووضعها فوق الوسائد، وتغطية جسدها بما تبقَّى لديه من أسمال كان يرتديها اتقاء البرد في الطريق الطويل. «هاجر» المرهقة من السير والحمل، تكوَّمت على نفسها قرب ابنتها، وغرقت في النوم.

---

(1) الحاكورة: أرض تُحْبَس لزرع الأشجار قُربَ الدُّور.

خرج ليتفقَّد المكان. حماره كان يشد الرسن ليصل إلى الحشائش وأزهار الخروب المتساقطة من شدَّة الريح. قريبًا من الشجرة اكتشف ملحقًا للبيت، يبدو أنَّ أصحابه يستخدمونه للاستحمام، وقضاء الحاجة! المكان مثاليٌّ للعيش بعيدًا عن العيون الفضولية. لم يفكِّر طويلًا فيما سيؤول إليه الحال لو جاء أصحاب المكان ووجدوه هنا، فقد كان مستعدًّا لمواصلة السير بحثًا عن مكان يؤويه. أخرج من جيبه العميق علبة دخانه، لفَّ سيجارة على مهل.. نفث قليلًا من قهره، وابتلع الباقي! سمع أجراس الرعاة في الوادي.. تحفَّز لمواجهة مصيره، ربَّما كان هذا البيت لهم! أبعد هاجس الطرد المر عن مخيلته، واقتنع بحدسه «المكان له، ليس لأحد». سبق الكلب الرعاة، توقَّف أمامه، وصار يلهث! حدَّق فيه «سليمان»، فانكسرت نظراته، وتراجع منكِّسًا رأسه. سمع تحيتهم، تسرَّبت داخل الإطار الحميم لروحه. ردَّ التحيَّة مبتسمًا. سأله أحدهم: «غريب؟». ردَّ: «وأطلب الزاد والمأوى». قال آخر: «أمَّا المأوى فقد حصلت عليه، وأمَّا الزاد، فسيأتيك في الحال».

لم يصدق أنَّه يحمل الحليب الساخن في قصعة كبيرة! أيقظ ابنته وزوجته لتتناولا الطعام.. أحضر قرون الخروب الغضة، وضعها في رغيف الخبز الذي قسَّمه على ثلاثة. النصف لزوجته، والنصف الآخر له ولابنته. لم يبخس «علي» حقَّه. بل تمنَّى لو استطاع أن يعطيه الحصة الأكبر، لكنَّه لم يفعل.. نظر إلى زوجته، وحدَّث نفسه: «الأفعى، ستلتهم الطعام كلَّه بحجة الولد الذي تحمله في أحشائها».. سيكون حسابها

عسيرًا لو ولدت بنتًا، لن يشفي غِلَّه قتلها، سيدفنها حيَّة هي وابنتها، ابنة الـ.. تبسَّم لخاطر الدفن وهو ينظر في وجه ابنته «لمار»، ذقنها المدبب، جبينها الواسع، فمها الصغير، عيناها الزرقاوان الواسعتان كانتا توحيان مع جحوظهما بالذكاء الممزوج بخبث، لو أنَّها جاءت على غير شبه بجدتها لقتلها. مع أنَّ قامتها القصيرة العجفاء النحيلة، وبشرتها المائلة إلى السمرة لا توحي بأنَّها ستملك هيبة جدتها وجبروتها!

أمُّه كانت على فراش الموت، ووجدت فيها استمرارًا لحياتها المنقطعة. اللعنة.. لو أنَّها كانت ذكرًا لما حملت هذه الملامح المشبعة بالضعف والعار! لا يستطيع أن يؤمن أنَّ امرأة في الوجود يمكنها أن تعيد سيرة أمِّه الفارسية التي حملت لعنة زواجها بعابر سبيل عربي، وقطعت معه الأناضول حتَّى ديار بكر.. هناك مات والده بالوباء الأصفر، ونجا هو وأمُّه من الموت بأعجوبة، لكنَّ القرى المحيطة رفضت أن تستقبلهما خوفًا من العدوى، على الرغم من شفائهما التام!

تنقَّلا كثيرًا، حتَّى استقرَّا في مدينة صغيرة تُدعى «وادي الجرب» في ولاية أنطاكية، لم يسمع أحدٌ من سكَّانها بخبر الريح الصفراء التي يحملانها تحت جلديهما! عمل صبي حداد، لم يتحمَّله صاحب الدكَّان، فطرده.. التقطه رجل غني كان زبونًا عند الحداد.. اصطحبه معه ليعمل سائسًا للخيل. لكنَّ العمل في الإسطبل لم يكن على هواه، فهو يحبُّ البراري الواسعة، والتنقل بين البلاد. غافل المالك يومًا، وسرق أحد

الأحصنة، وغادر البلدة تحت جنح الظلام. لكنَّ رجالًا أقوياء حاصروه في دربٍ ضيقٍ، وأخذوا حصانه، وقيَّدوه إلى شجرة مع أمِّه!

حدَّق ثانية في وجه ابنته، أمَل أن يتخلَّص منها خلال سنوات بتزويجها لأوَّل رجل يطلبها، وربَّما يستطيع المبادلة عليها بشيءٍ ذي نفع. مع أنَّ فكرة المبادلة كانت مستحيلة التحقق نظرًا لعدم جودة البضاعة التي يملكها.. لكنَّه حلم أن يحدث ذلك يومًا!

قبل العصر بوقت قصير، سمع صوت أقدام تصعد التل. نهض بهدوء، حمل عصاه، ووقف خلف الباب. اقتربت الأقدام، عرف أنَّها لسيدة كبيرة في السن! أرهف سمعه، فعرف أنَّها انحنت، ووضعت شيئًا على الأرض، وذهبت. حين ابتعدت بما يكفي ليحجبها المنحدر عن ناظريه، فتح الباب. فوجد صحن حساء ساخنًا، وصُرَّة قماش بقربه! لم يكن الأمر مستغربًا بعد موقف الراعي في الصباح.. أحسَّ بارتياحٍ يغمره، تنهَّد مخرجًا من صدره كلَّ التعب الذي رافقه طيلة ليالٍ من التنقُّل بين القرى والمدن بحثًا عن مأوى آمن لا تصل إليه يد أعدائه. شعر أنَّ رحلته ستنتهي هنا في هذه الأرض الطيبة، مع هؤلاء البسطاء الذين مدُّوا له يد العون من دون سؤال عمَّن يكون! لكن إلى متى سيدوم ذلك؟ سيدفعهم فضولهم يومًا لسؤاله، وربَّما ضاقوا ذرعًا به وبعائلته، فطردوه من المكان! الصُّرة.. كان فيها الكثير من الخضار مع صرَّة أصغر، فتحها، فوجد فيها ألبسة لرضيع! كانت نظيفة ومطوية بعناية، ومعها قطعة صابون صغيرة..

فرحت «هاجر» بالملابس الصغيرة، والطعام الساخن. أكلت ما بصحنها، وعادت للاستلقاء بحجة التعب من الحمل. كانت تتحايل على خوفها بالنوم هربًا من فكرة إنجاب طفلة ثانية.. تعلم علم اليقين أنَّها ستكون سببًا في نهايتها، لن يشفع لها كلُّ ما تحمَّلته في سبيل «سليمان». لن يشفع لها صبرها، ولا مساندتها له، ولا تخليها عن أهلها وعشيرتها. منذ الليلة الأولى لفظها «سليمان»، وابتعد عنها، وكأنّها عنزة جرباء. منذ تلك الليلة، وهو يتحاشى أن ينظر في عينيها، أو يلمس يدها ولو بشكل عابر! تلك الشعلة التي اتَّقدت فجأة في عينيه وهو يحملها على كتفيه، ويركض بها في البراري، متخفيًا بين الأشجار الضخمة، انطفأت فجأة بعد ليلتهما الأولى في الخلاء. يومها تركها وحدها في بيت خشبي مهجور معلَّق في قلب شجرةٍ ضخمة، وغاب طيلة النهار، وعاد في المساء، ومعه أمّه! لم تكن حماتها امرأة سيئة بالنسبة إليها، فقد عاملتها بلطف، لم يستمر طويلًا.. فقد شاءت الأقدار أن ترحل عن الدنيا في الشتاء بعد ولادة حفيدتها بأسابيع قليلة. منذ ذلك الحين صار ينام موليًا إياها ظهره.

تلك الأيام هي بداية قطيعة استمرت ست سنوات.. لم يشأ أن يهرب منها تاركًا إياها لمصير محتوم فيما لو عثر عليها إخوتها، بل حملها خلفه على حمار بائس، حتَّى استقروا في منطقة قريبة من النهر الكبير. اتَّخذ لهم كوخًا من القصب، لا يصلح لحمايتهم من الأمطار الغزيرة التي تتسرَّب من السقف، وتدلف من الجدران الخشبية. مرَّ شتاء قارس شعرت خلاله أنَّها لن ترى الحياة في الربيع، لكنَّ الحياة منحتها فرصة أخرى للعيش!

في أواخر الربيع كانت تسبح في النَّهر، حين عاد من الصيد. نظر إليها مليًّا وقد زاد وزنها، وتألق جلدها تحت الشمس. رمى عدَّة الصيد من يده، ونزل إلى الماء، حملها إلى الكوخ، رماها أرضًا.. وشدَّ وثاق الباب بحبل تاركًا ابنتهِ تبكي خوفًا في الخارج. الفتاة الخائفة توقفت عن البكاء، أنصتت للأصوات المريبة داخل الكوخ، لم تفهم ما يحدث، لكنَّها لم تستطع التخلُّص من فكرة موت أمِّها على يدي «سليمان»! وقفت قرب النَّهر تتأمل مياهه الجارية بصخب.. فكرت إن حاول «سليمان» قتلها كما فعل بأمِّها، سترمي نفسها في النهر. لكنَّ الباب فُتح فجأة، وظهر «سليمان» بقامته الضخمة وهو يبتسم، وصعد إلى الغابة القريبة.. وتقدَّمت «هاجر» إلى النهر بذهول وغطست في الماء طويلًا!

غاب «سليمان» أيامًا لا تعرف عددها، وعاد يحمل لها فاكهة، وخبزًا، وثوبًا جديدًا. لم تجرؤ على سؤاله من أين أتى بتلك الأشياء! واعتبرتها مؤشرًا على تحسن معاملته لها.. لكنَّه حلف لها يمينًا إن لم تنجب ذكرًا ستكون نهايتها على يديه!

لم تستمر حالة الاستقرار تلك طويلًا، ولم تهنأ بمعاملته اللطيفة، فقد وصل إلى سمعه من أحد المسافرين، أنَّ أشقاء زوجته علموا بمكانه، وأنَّهم جادُّون في اقتفاء أثره، ومصمِّمون على قتله. انصبَّ غضبه على رأسها، قضت ساعات رهيبة خائفة من أن يتركها وحيدة، ويرحل. لكنَّه هدم الكوخ، وحطَّم أدوات الصيد، وهام ساعات في الغابة القريبة، عاد بعدها، وهو يجرُّ حمارًا، ربطه إلى شجرة. ومن دون أن يوجِّه لها كلمة

واحدة، أزاح الحطام، وجمع الأمتعة القليلة، لفَّها في بساط، ووضع ابنته فوق الأمتعة، وسار وهو يجرُّ الحمار خلفه! تبعته بصمت. في البداية كان الخوف يسيطر عليها، تخيَّلت أكثر من مرَّة أنَّه سيلتفت إليها، ويصرخ بها: «سأكسر أضلاعك إن لمحتك ورائي». لكنَّه لم يفعل..

مع حلول المساء، زال الخوف، وحلَّ مكانه التعب.. لم تستطع أن تطلب منه التوقف، ولم تجرؤ على البقاء وحدها.. سيتابع سيره إن فعلت، ويتركها وسط العتمة عرضة لحيوانات مفترسة قد تبرز لها فجأة من عمق الغابة!

***

دأبت السيِّدة «أسما» على إرسال صحن من الطعام مع خادمتها كلَّ يوم إلى الغرباء الذين استقرُّوا في «بيت الحسنة» الواقع فوق تل الجرب. كانت تجلس كلَّ يوم في شرفة البيت، تصدر تعليماتها إلى «العم جميل» الذي يعتني بالزريبة وخُنِّ الدجاج، ويجمع الخضار من الحاكورة، ويقطف الفاكهة، في الوقت الذي تكون فيه زوجته قد أحضرت الحطب، وهيَّأت التنور للخبز. عمل يبدو أنَّ العم «جميل» لم يعد أهلًا له، لكن لا أحد في هذه القرية يستطيع أن يأخذ مكانه. شباب القرية يسافرون للعمل في بلدان أخرى هربًا من الفقر المهيمن عليهم، ورجالها يكتفون بما يحصلون عليه من مبادلة الحليب والبيض بالطحين في المدن القريبة. السيِّدة «أسما» كانت آخر سلالة إقطاعي كبير هاجر من تركيا إلى إسكندرون بعد أن خسر أمواله كلَّها في لعبة قمار، وغامر

بابنته ليستعيدها، لكنَّه خسرها أيضًا! التاجر الذي ربح الابنة الجميلة، تزوجها، وجاء بها إلى قريته. أنجبت له صبيَّان وبنتًا.. وعندما رحل عن الدنيا، أوصى لها بالبيت والحاكورة، وترك لأولاده نصف أراضي القرية بما فيها التل المطل على بستان الليمون والرُّمان. ابنها الكبير باع حصته، وترك القرية. لم يبقَ معها سوى أصغرهم.. ترك له أخوه التل والبستان. كان «علي» ضئيل القامة، رقيقًا، شديد الانفعال، وقد حرصت «أسما» على إرضائه بكلٍّ ما تملك، فقد كانت تخاف من رحيله كما فعل أخوه. لكنَّ «علي» لم يحبَّ السفر يومًا، بل كان ارتباطه بالأرض قويًّا، اعتنى بالتلة الجرداء، وزرعها، وبنى فيها غرفة. كان يحبُّ الاعتزال فيها.. وكثيرًا ما كانت أمُّه تضطر إلى استعطافه بادِّعائها المرض كي ينزل إليها، ويزورها. ساعات.. ثمَّ يغادر، وكأنَّ شيئًا يندهه هناك! عشق العزف على الناي، وأحبَّه الرعاة، فكانوا يقضون أوقاتهم عنده. في المساء يعودون إلى بيوتهم، ويبقى ليله وحيدًا! لا أحد يعرف ماذا جرى بالضبط، فقد مرَّت أيامٌ عاصفة شديدة البرودة، جعلت الرعاة يغيرون وجهتهم، ويقصدون السهول البعيدة. وعندما مرُّوا به بعد أسابيع، وجدوه على حال غريبة! كان الباب مغلقًا بالمزلاج من الداخل، ولم يصلهم صوت أنينه الخافت. وحين قصدوا النافذة الشرقية خلف البيت، ونظروا إلى الداخل، وجدوه قد تعرَّى، واستلقى وسط الغرفة، والقيح يسيل من بثور ملأت جسده. لم يجرؤ أحدهم على الدخول، فقد تهيَّأ لهم أنَّ الشاب قد أصيب بالجدري!

عندما علمت «أسما» بالأمر أغمي عليها.. وتبَرع أحدهم، فذهب إلى المدينة لإحضار الطبيب. عندما وصل الطبيب في صباح اليوم التالي، لم يدخل إلى المريض، بل نظر هو أيضًا من النافذة، وقال: «إنَّ المرض مُعدٍ ونهايته الموت، ولا داعي ليخاطر أحدكم بحياته من أجله؛ لأنَّه لن يشفى! بإمكانكم أن تتركوا له الطعام قرب الباب».

أحد الرعاة الشباب تبرَّع بإيصال الطعام كلَّ يوم للمريض، الذي لم يطل به الأمر سوى أسبوع، وجدوه بعده ميتًا.. وقد رُصفت صحون الطعام في الغرفة، ولم يمسّ منها شيئًا!

اجتمع رجال القرية، واتفقوا على حرق البيت وجثة الشاب، لكنَّ «أسما» وقفت في وجوههم، وصعدت التلة بنفسها.. أخذت فأسًا، وحفرت قبرًا. عندما رأى الراعي الشاب الذي كان يوصل له الطعام ذلك، اقترب وساعدها. حين فتحا الباب، هبَّت ريح عفنة، تدفَّقت ساخنة، اخترقت صدرهما، ثمَّ سكن كلُّ شيء! اقتربت «أسما» من ابنها الشاب.. لم تجد آثار الجدري على جسده! كانت هناك حبوب قد اندملت، وندوب متفرقة.. التفتت إلى الراعي ودموعها تحجب عنها كلَّ شيء، ونطقت ببطء: «إنَّه جدري الماء! لم يصب به وهو صغير.. يا إلهي! لماذا تعاقبني بهذه القسوة؟ كان سيشفى لو...». الراعي الشاب، ربَّت كتفها قائلًا: «وحِّدي الله يا خالة، الموت حق، وها هو أمامك قد شفي.. هو لم يمت بسبب الجدري كما ترين!». انتبهت «أسما» إلى تلك الحقيقة القاتلة، نعم ابنها لم يمت بالجدري، ما سبب موته إذن؟ هل مات من الجوع؟ هل تعمَّد أن ينتحر؟

دفنت «أسما» ابنها الوحيد كما شاءت أن تسميه، واعتزلت في بيتها. بقيت على تلك الحال طيلة الشتاء وأوائل الربيع، ثمَّ فتحت باب شرفتها ثانية، ووضعت كرسيها وعدَّة النسيج هناك، وعادت لتلفَّ شالها الصوفي حول كتفيها، وتصدر الأوامر إلى الرجل الوحيد المتبقي من أملاكها وزوجته. أوَّل أمر أصدرته أن يصعد العم «جميل» إلى بيت التل، فيصلح الباب، وينظف المكان، ويعيد ترتيب فرشه، ويملأ الجرة بالماء.. ويعتني بأشجار الليمون والرمان.. ويترك الباب مواربًا، ويعود.

مرَّ الربيع والصيف، والعم «جميل» يصعد التل كلَّ أسبوع ليتفقَّد البيت والخلاء والماء والشجر.. أوائل الخريف، منعته «أسما» من قطف ثمار الرمان.. أمرته: «اتركها لعابري السبيل». وأضافت: «خذ صحن طعام، وضعه هناك أمام الباب».

نفَّذ العم جميل طلبات السيِّدة على مضض، كان يفكِّر بأنَّها لا شكَّ فقدت عقلها. لكنَّ «أسما» كانت تفسِّر ذلك بأنَّه «حسنة عن روح ابنها». صار بعض الفقراء يقصدون البيت المنعزل يوميًّا للحصول على طبق الطعام المتروك قرب الباب، حتَّى إنَّهم أطلقوا على البيت تسمية «بيت الحسنة». بالإضافة إلى الحكايات التي نسجتها مخيِّلاتهم عن أسباب موت الشاب، والتي تطورت، وتشعبت، وانتشرت، حتَّى بلغ سمع «أسما» بعض منها! فأصرَّت على خادمتها أن تسعى وراء خيط الأحاديث، لتجمعَ لها ما يُقال. فوجئت «أسما» بالتفاصيل الدقيقة حول حياة ابنها، والتي لم تكن تعرف منها شيئًا! إحدى الحكايات وأقواها أنَّ الشاب عشقته جنية،

ورصدتـه، فكانـت تأتيـه ليلًا، وتنام في فراشـه، ثـمَّ تغادره فـي الصباح. وأنَّـه مـلَّ منها ذات يوم، حين رأى صبية مـن القرية عائدة من النبع وعلى رأسـها جرَّة ماء.. طلب منها أن تسـقيه، ففعلت، ووقع في غرامها، وقرَّر أن يتزوجها. جمع ملابسـه في ذلك اليوم المشـؤوم، ونادى على صديقه الراعي ليخبره أنَّه سيعود إلى بيته في المساء. وعندما دخل الغرفة ليحمل متاعه، انغلق الباب بعنف، ونزل المزلاج! حاول فتحه، فلم يفلح! حاول الخروج من النافذة باقتلاع شبك الحديد المحيط بها، فخانته قواه.. شعر بـدوار، ثمَّ وقع أرضًا.. قيل إنَّ الجنيـة تلك الليلة، نفخت فيه من ريحها، فانتفـخ جسـده، وامتـلأ بالبثـور، وأنَّ أظافرهـا تركت في جسـده جراحًا امتلأت بالقيح، وتركته عاريًا يهذي من الحمى. وأنَّها صبَّت عليه لعنتها، فلم يستطع الصراخ، خرس صوته تمامًا، فلم ينتبه إليه أحد. وقتها علمت «أسما» أنَّ أهل القرية قد أطلقوا على التل اسم «تل الجرب»!

تلـك القصص التي أدمت قلب «أسـما»، لم تثنها عن الاسـتمرار في عادتهـا بإرسـال الطعام إلى البيـت المهجور، والعناية بالأشـجار، وترك الموسـم على أمِّه![1] وحين علمت بقدوم تلـك العائلة الغريبة، وإقامتها فـي البيـت.. انشـرح صدرهـا، فقد كان ذلـك مؤشـرًا بعودة الحيـاة إلى روح ابنهـا.. كانـت تتخيَّل أنَّ أولادًا غرباء سـيمرُّون قرب قبره، ويدعون له، ويحدِّثونه، ويزيلون وحشـته. وأنَّه سـيكون سـعيدًا بهم. فأمرت ببناء مزار حول قبـره، وتزيينه بقبة خضراء، وحوض ماء خارجه، فصار موردًا

(1) المقصود بالعبارة، أن يترك على الشجر حتى يسقط من تلقاء نفسه.

للرعاة، يتركون أغنامهم تسرح في المكان، ويستريحون في ظلِّ شجرة الخروب الضخمة.

لم يكن شعور أهل القرية الفقراء تجاه الغرباء جيدًا، فبقدومهم انقطع رزقهم، ولم يعودوا يحصلون على صحن الطعام، ولا على موسم الرمان، ولم يستطيعوا زراعة الأرض الواسعة بين الأشجار بالخضار! فنشأت بينهم وبين «سليمان» عداوة خفية، تغذيها الكراهية المتبادلة، والمصالح المتضاربة.

وبشكل طبيعي انتقلت تلك الكراهية إلى عائلته، فقد نبذها أهل القرية.. لم تشأ النسوة زيارة الغريبة أو التَّعرُّف عليها، حتَّى حين جاءها المخاض، واضطر «سليمان» إلى طلب المساعدة من «داية»[1] القرية، التي تلكأت، ثمَّ اعتذرت بأنَّها مرتبطة مع امرأة أخرى طلبتها قبله! كتم «سليمان» غيظه، ورجع إلى امرأته وحيدًا، حاول مساعدتها، كان يزمجر، ويشتم، ويلعن، ويهدِّد.. وهو يحضر الحطب، ويشعل النار، ويسخِّن الماء، و... لم يكن «سليمان» قادرًا على استيعاب دهشته وهو يتلقَّى ولده بين يديه! كانت المرَّة الأولى في حياته التي يشاهد فيها طفلًا بهذا الحجم الصغير، وقد اكتسى بالدم والشحم، لكنَّ منظره القميء لم يثر الغثيان في نفس «سليمان» الضخم، بل شعر بغبطة غريبة، ونسي كلَّ غضبه على زوجته وأهل القرية.. لقد كان ذكرًا كما أراد! وهذا يشفع لكلِّ العالم تآمره واحتقاره ونبذه.. كلُّ شيء يهون الآن.

---

(1) القابلة.

حين سمعت «أسما» بالمولود، أمرت بتجهيز عربتها، التي لم تخرج من مكانها منذ سنوات طويلة، أسرج العم «جميل» الحصان، واشترى ما أمرته به السيِّدة من لوازم للطفل، وصعدت إلى التل. عند حدود بستان الرمان، أوقفت العربة، وأمرت مرافقها بالانتظار. لم تكن تريد أن يرى أحد ما يعتمل في صدرها. عبرت البستان بصعوبة، توقفت قليلًا وهي تحدِّق في البيت القريب.. فاجأتها دموعها الغزيرة.. بكت كما لم تفعل حين رأت جثة ابنها الوحيد. مسحت دموعها، واستعادت أنفاسها، وسارت بخطى متعبة مترددة. حين صارت أمام الباب، لم تجرؤ على قرعه، لم تطاوعها نفسها على رؤية الغرفة التي شهدت مأساة ابنها. انحنت، ووضعت هدية الطفل.. استدارت، ونزلت مسرعة إلى حيث تنتظرها العربة.

لم ينتبه أحد لغياب «لمار» ذلك اليوم، فقد انشغل «سليمان» بالمولود، في الوقت الذي سيطر نعاس غريب على «هاجر»، فلم تكن تصحو سوى ساعات، وتعود للنوم! في الليلة الثانية لغيابها، طرق أحد الرعاة باب بيت الحسنة، وأخبر «سليمان» أن يوافيه إلى المزار ليسهر مع الرعاةبمناسبة عيد الغدير.. مع وصول «سليمان» إلى المزار اكتمل عدد المحتفلين تحت شجرة الخروب، وقد تدثروا بعباءات الفرو الثقيلة، وأشعلوا النار، وتحلقوا حولها! الشواء الطازج مع حساء الخروب الساخن والغناء كانوا وقود الاحتفال.. فجأة سقطت القيثارة من يد العازف المرتعشة.. كانت عيناه تحدِّقان في الظلام وراء دائرة النار

جهـة باب المزار.. سـاد صمت ثقيـل والرؤوس تلتفت إلـى الجهة التي جعلت عينا الراعي تجحظان. سمع الجميع خربشة خفيفة، وحركة تشبه ارتطام الريح بفروع الشـجر.. كانت هناك وسـط الباب نقطتان مضيئتان، ظـنَّ الجميع أنَّهما عينا ذئب يتربَّص بفريسـةٍ ما. «سـليمان» كان أوَّل مَن نهـض، واتَّجـه صوب المزار، غير آبـهٍ بتحذير الرعاة مـن خطر لا يعرف ماهيتـه.. قبل أن يصل إلى الباب اختفت النقطتان المضيئتان.. وسـادت عتمـة مريبة. تقـدَّم داخل المـزار، تنحنح بصوت قوي، سـمع لهاثًا، تهيَّأ لـه أنَّـه قادم مـن داخل القبر! مـدَّ يده في العتمـة، ليتلمَّس حجـارة القبر، فوقعت على جسـد يرتعـش.. همس: «جـنٌّ أم إنس؟». لم يسـمع ردًّا.. كانـت «لمـار» فـي تلك اللحظة تخشـى أن تصـدر صوتًا خشـية العقاب الذي سـينزل بهـا. عندما رأت «سـليمان» وهو يسـحب «علـي» من بين فخـذي أمِّها، ويضرب شـيئًا قد تدلَّى منه بحجارة أحضرها من البسـتان، أصابها الرعب، وفرَّت خشية أن يأتي دورها، فيقتلها «سليمان». لم تمشِ طويلًا، فقد لجأت إلى المزار حيث يمكنها أن تختبئ.. كانت تأكل أوراق الخروب، وتشـرب من حوض الماء المخصص للدواب، وتنام ملتصقة بحجارة قبر «علي»، وهي تشـعر بالأمان. لم تعرف أنَّ «سليمان» موجود مع الرعاة تحت الشـجرة، حين قرَّرت التخلـي عن خوفها، والبحث عن الشـواء الذي شـمَّت رائحته، فخرجت من مخبئها.. لـم تتصوَّر أن يقبض عليها «سـليمان» بهذه السـهولة.. أغمي عليها وهـو يحملها بين ذراعيه، ويتَّجه صوب البيت!

***

حين وصلت السيدة «أسما» إلى البيت، دخلت غرفتها، وبقيت فيها أسبوعًا كاملًا، لم تخرج منها أبدًا، كانت خادمتها تحضر إليها الطعام، فتعافه نفسها.. ظنَّ الجميع أنَّها ستودِّع الدنيا قريبًا! جاءت نسوة القرية لعيادتها، وثرثرن طويلًا حول العائلة الغريبة التي حملت معها النحس إلى القرية. دافعت «أسما» بقوة عن الغرباء، ووصفتهم بالطيبين.. كانت تدرك جيدًا أنَّ وجود هؤلاء، سينسف القصص الخرافية التي تناقلها أهل القرية عن حياة ابنها وموته الغامض؛ لأجل ذلك دافعت عن وجود هؤلاء بكلِّ ما تملكه من تأثير على أهل قريتها.

تناقل رجال القرية في مجالسهم موقف «أسما»، نقلًا عن نسائهم، ووصل إلى مسمع الرعاة، الذين قاموا بدورهم بنقل الحديث إلى «سليمان»! الذي لم يعلِّق بشيء، لكنَّه استغلَّ ما سمعه بذكاء، فأطلق على ابنه اسم «علي». وتحدَّث عَرَضًا بشأن ذلك، قائلًا: «لعلَّه يحمل شيئًا من صفات علي ابن السيِّدة الكريمة». دارت القصة في أرجاء القرية، وعادت لتستقرَّ في سمع السيِّدة «أسما»، التي ارتعش قلبها كطائر ذبيح، وأحسَّت للحظات بوجود «علي» قربها. كانت تهمس بشوق: «لقد عاد». لم تكن قوة في الوجود تستطيع نسف يقين السيِّدة المتشوقة لرؤية ابنها الوحيد يعود حيًّا بجسد طفل غريب. وقَرَ في نفسها أنَّه هو، وأصرَّت على تبنِّيه حتَّى يشتدَّ عوده، لكنَّها لم تملك من الدهاء ما يكفي لإقناع «سليمان» بالتخلي عن ولده، فآثرت أن تتبناه من بعيد، بتأمين احتياجاته كلِّها.

لم يكن ذلك الشعور الذي ثقب قلب «لمار» بقسوة هو شعور بالغيرة من شقيقها «علي».. بل حقد أسود على السيدة المحسنة التي اختارت الصبي للعناية به، وحقد أعنف على «سليمان» الذي لم يشعرها يومًا بأبوته بلمسة أو كلمة! أمَّا أمُّها فكانت خارج حساباتها، فهي امرأة مغلوبة على أمرها، كثيرة الشرود، لا تفقه من الدنيا شيئًا! هذا الحقد الذي لوَّن روحها بالرماد دائمًا، أكسبها - مع الأيام - مناعة ضدَّ الألم، وعزلها عن الشعور بالآخرين.

***

تبدَّلت العلاقة الحذرة بين السيِّدة «أسما» و«سليمان» بعد الحادثة المشهورة التي انتشرت في القرية والقرى المجاورة، وباتت حديث الناس في السهرات، إلى علاقة مودَّة وإلفة. لكنَّ«سليمان» كان شديد الحذر، يتعامل مع الأشياء بحياد تام، ولا يكاد يفرِّق بينها وبين البشر! تلك المسافة التي لا يعبرها نحو الآخر تحت أيِّ ضغط أو رغبة، جعلت منه في نظر الآخرين حكيمًا وزاهدًا! كان القرويون في طريق عودتهم من الكروم، يتأملونه في جلسته أعلى التل، فيحسبون أنَّه في حالة تعبُّد وكشف. لكنَّهم يحتفظون بتلك الأحاسيس، ويرفضون الاعتراف بها حتَّى أمام أنفسهم!

كعادتها كل صباح كانت السيِّدة تجلس في شرفتها محاطة بأصص الزرع، تشرب كأسًا من «الزهورات» الساخنة، عندما تعثَّر العم «جميل»، وهو يجرُّ الثور الهائج إلى الزريبة، بعد أن قام بتنظيفها.

لم يكن أحد يعرف ما الذي حصل للثور.. منذ فترة تغيَّرت طباعه، وصار يضرب رأسه بالجدران! همس أحد الفلاحين في أذن زوجته بأنَّ الثور ركبه جني، وعلى السيِّدة أن تذبحه! وحين سمعت «أسما» بالأمر، غضبت، وخرجت عن مألوف هدوئها، ووبَّخت الفلَّاحة الوقحة. في الحقيقة لم تكن «أسما» غاضبة لأجل الثور وثرثرة أهل القرية، بل لأنَّ ذلك ذكَّرها بالمرحوم «علي» الذي قضى بسبب جنية، كانت تخشى أن يسلبها هؤلاء القوم غير المرئيين أحبتها وممتلكاتها؛ لذا دافعت بكلِّ قوة عن صحة الثور، ورفضت تقييده، وأصرت على إرساله إلى المرعى، حتَّى جاءها أحد الفلاحين يومًا وبيده ولده الشاب، وقد سال الدم من رأسه بسبب تعدي الثور عليه. ركب العناد السيِّدة «أسما»، ولم تشأ أن تعتذر للفلاح، أو تراضيه، بل أصرت على موقفها بأنَّ الشاب هو مَن جعل الثور يهتاج، ويهاجمه!

عندما تعثر العم «جميل» أمام باب الزريبة، لم يترك الحبل الذي ربط به الثور، بل تشبث به، في الوقت الذي راح الثور يدور حول نفسه، ويشدُّ الحبل محاولًا الانطلاق خارج السور! عقدة الحبل أحكمت حول معصم الرجل العجوز، ولم يعد بإمكانه التخلُّص منها، فراح يصرخ مستنجدًا.. هبَّت «أسما» من مكانها فزعة.. لم تكن تعرف ماذا تفعل، فطرتها دفعتها صوب الرجل العجوز.. حاولت أن تنزع الحبل عن يده، لكنَّها لم تستطع الوصول إليه، كان الثور الهائج يتحرَّك بعشوائية عنيفة، يرمي الرجل يمينًا، ويجرُّه شمالًا، وهي عاجزة عن اللِّحاق به. أخيرًا

توقف الثور قرب باب السور، وهو يلهث. في تلك اللحظة كانت «أسما» قد سـدَّت بقامتها الطويلة مدخل الباب.. وقعت نظراتها على عينيه، كان يحـدِّق بهـا.. حلفت يمينًا معظَّمة فيما بعـد، أنَّ عينيه لم تكونا عيني ثور، بل عينان بشـريتان، نطقتا بكلٍّ انكسار وعجز، ثمَّ تبدَّل لونهما، فاحمرَّتا، وتوهجتا حتَّى كادت تلمح شررًا ينطلق منهما.. ثمَّ وفي لمح البصر كشَّر عـن أسـنانٍ متآكلة بـدت وكأنَّهـا أنيابٌ حـادَّة، وبحـش الأرض بقائمتيه الأماميتين. كانت تسـمع لهاثه ممزوجًا بضربات قلبها العنيفة. وعت في لحظة أنَّ نهايتها مرتبطة بقَرْنَيه، لكنَّ ساقيها خذلتاها، لم تستطع التراجع، لم تسـتطع الهرب، شـيء أقوى منها سـمَّرها في مكانها! حتَّى صوتها لم يصل سـمعها حين حاولت أن تصرخ مسـتغيثة، عندمـا رأت حركة رأس الحيوان الخاطفة الذي تراجع إلى الوراء خطوات قبل الهجوم عليها!

لا تعـرف ما الذي حدث بالضبط، كلُّ ما تذكره أنَّها أغمضت عينيها، وتعوَّذت من الشيطان، واستسلمت لمصيرها المحتوم. ظنَّت خلال دقائق مـن الغيبوبـة، أنَّ الحيوان قضى عليها، وأنَّها أصبحـت في العالم الآخر. كانـت تتحايل على صحوها بالغرق تمامًا في فكرة حضور «علي».. رأته قادمًا مكلَّلًا بالسـحاب، رأته يبتسـم، رأت السـماء تهطل زهورًا بيضاء.. ورأت نفسـها ترتفع، تحلِّق، وتبتعد! لكنَّ شـيئًا من هذا لم يحدث.. فقد فتحت عينيها على ماء يغسـل وجههـا، وبصل يُقرَّب من أنفها، وأصوات فلاحيـن تجمَّعوا حولها. ورأته! كان وجهه غريبًا، قامته الضخمة سـدَّت مسـاحة الرؤيـة أمامها. قال معتذرًا: «آسـف، لقد قتلتـه». لم تفهم قصده

مباشـرة.. لكن بعد أن دخلت بيتها، وهدأت قليلًا.. حدَّثتها خادمتها عن الغريـب الذي حملها بين ذراعيه في اللحظة نفسـها التي هجم فيها الثور عليها.. وكيف وضعها بعيدًا، وفكَّ الحبل عن يد العم «جميل» العجوز، ولحـق بالثور حتَّى أمسـكه مـن قرنيه، ولوى عنقه، وبطحـه أرضًا. كانت تـروي بذهولٍ كيف اقتلع قرنيه بعد أن كسـر رقبتـه، وتؤكد قولها: «والله لقـد رأيتـه بعيني، واللـه كان ذلك ما حدث، لم أكن أحلـم، كان مثل ثور خرافـي.. نعـم مثل ثور». قالت «أسـما» ضاحكة: «قبَّحكِ الله يا سـعدا، ثـور! ويقتل ثورًا». تناقلت القرية الحكاية، وفي كلِّ مرَّة تهمس بها الريح بصيغة مختلفة واصفة «سـليمان» بالثـور القوي، والثور الخرافي، والثور الذي لا يُقهر!

أرسـلت السـيِّدة «أسـما» وراء «سـليمان» ليحضر لمقابلتها. لم يكن في ذهنها أمر آخر سـوى شـكره على إنقاذها، لكنْ حين مَثُل بين يديها.. نهضت باحترام، صافحته، وطلبت منه الجلوس. كانت المرَّة الأولى التي تجلس فيها مع رجل منذ وفاة زوجها. فقد آلت على نفسـها العزلة التامة بعده. في تلك اللحظات شعرت بأنَّ شيئًا غامضًا يشدُّها للرجل الغريب، وكأنَّ هالـة مغناطيسـية تحيط بجسـده! ارتجف قلبهـا، وتثلَّجت يداها.. لكنَّها فسَّـرت الأمر بحمى ربَّمـا أصابتها نتيجة الرعب الذي عاشـته منذ سـاعات، وهي تعتقد أنَّ نهايتها وشيكة. كان «سليمان» يملك من الفطنة ما يجعله ينتبه إلى التبدُّلات اللونية الطارئة على وجه السيِّدة، والتي تشي بارتباكهـا وخجلها. لـم تكن في سـنٍّ تلائم تلـك الاضطرابات ما لـم تكن

بتأثير حاجة قوية، لكنَّه لم يتسرَّع في استقطاب تلك الإشارات والعمل عليها، بل حافظ على مسافة الاحترام التي يفرضها موقعه الاجتماعي بالنسبة للسيِّدة. كانت تبحث عن شيء تقوله يخفِّف حدَّة مشاعرها، فقالت: «ما رأيك يا سيِّد سليمان أن تحضر لي علي لأعلِّمه؟». لم يتردَّد «سليمان» بالموافقة على طلبها، لكنَّه قال بأدب: «أخشى أن يزعجكِ؛ فهو طفل مشاكس، ولا أريد أن يشغل وقتكِ». قالت بلهفة: «لا أبدًا، أنا في الأصل لا عمل لديَّ، وكما ترى يا سيِّد سليمان ليس عندي أولاد ولا أحفاد ولا...». لم تكمل السيِّدة عبارتها. انتبهت مباشرة إلى ما يمكن أن يحدث لو أنَّها انساقت وراء مشاعرها أكثر. حزمت أمرها، ونهضت فجأة في إشارة لإنهاء الزيارة، واعتذرت من ضيفها بحاجتها إلى الراحة.

لم تذق السيِّدة «أسما» طعم الراحة منذ ذلك اليوم. تقلَّبت تلك الليلة على فراشها، ولم تستطع النوم! كانت أشواك تخزها في كلِّ أنحاء جسدها، في حلقها، في عينيها.. نهضت من فراشها، لفَّت كتفيها بشالها، وخرجت إلى الخلاء. راحت تنظر إلى عمق العتمة، وتتخيَّل أنَّ الزمن رجع بها ربع قرن إلى الوراء.. وأنَّها ما زالت شابة، تتأمل ضوء القمر، منتظرة فارسها الذي سيأتي على حصان أبيض ليخطفها، ويذهب بها بعيدًا! تذكر أنَّ هذا الحلم وأده والدها عندما تنازل عنها بلا مبالاة مقابل حفنة مال! تنهَّدت بعمق وهي تلمس شعرها، كم من الشعر الأبيض غزاه! كيف تستطيع إنكار هذا الواقع والتحايل عليه؟ صحيح أنَّ الحناء

أخفته، لكنَّها لا تستطيع أن تخفي ما شاب من روحها. نظرت إلى البقع البنية على كفيها، كانت باهتة أضفى عليها نور القمر لون الرمال. لم تفلح الصحة التي تتمتع بها في تغطية تقدمها بالسن، وإن أفلحت في إخفاء التجاعيد بعض الشيء.. و«سليمان»! رجل قوي، لا يبدو أنَّه تجاوز الثلاثين! هل يمكن أن يفكِّر في امرأة على أعتاب الخمسين من عمرها؟ عند هذا الحد، وبَّخت «أسما» نفسها، وعادت أدراجها إلى المنزل، أغلقت الباب بعنف، واندسَّت في فراشها، ساحبة الغطاء فوق رأسها.

***

في غفلةٍ من الزمن، وبشكل ملفت للأنظار، طالت قامة «لمار»، ومال جسدها إلى سمنة مفرطة، وأصبحت بشرتها حمراء مليئة بالنمش.. لم تنتبه «هاجر» إلى عودتها في يوم خريفي والدماء تسيل بين فخذيها، لم ترها وهي تمسحها بقمصان «علي» وتدفنها في الحاكورة. لكنَّها شعرت بالتبدلات الغريبة لمزاج «لمار»، وبقائها في البيت فترة طويلة، واهتمامها المفاجئ بـ «علي» والعناية به!

لم ينتبه «سليمان» إلى العيون التي ترصد خطواتها، فقد اعتادت منذ الغياب الأول في المزار، أن تقضي معظم أوقاتها منعزلة هناك، أو في البرية الواسعة تجمع أنواعًا غريبة من حشائش الأرض، وتجرِّب طبخها..

إلى أن جاءه رجلٌ من القرية يطلب الزواج منها مقابل بضعة مكاييل من القمح، وبعض ما تطرحه الكروم. لم يكن «سليمان» يهتم لشأن

«لمـار» كثيـرًا، وافق على تزويجها من دون الرجـوع إليها، فقد انتظر هذا اليـوم طويلًا، اليـوم الذي يتخلَّص فيه من عبئها، ويخلو عالمه من سـيرة النساء ومصائبهن.

***

كانـت تميِّز صوت خطواتـه الخفيفة على الدرب، تسـمعها بروحها، وكأنَّ الزمـن لـم ينقـضِ، وكأنَّ كلَّ ما حدث مجرد منام! سـيفتح البوابة، سـيركض قاطعًـا الفناء، سـيخبط البـاب بكلتا يديه، سـتفتح «سـعدا» له وهي تصرخ: «الدنيا لن تطير، على مهلك». ابتسـمت وهي تفتح عينيها، وتنظـر إليه بحنان، لـم يترك لها الفرصة لتقول عبارتها المعتادة: «اغسـل يديك، وتعالَ، الطعام جاهز». تدفق لهاثه متقطعًا مع الكلمات السـريعة، اضطرَّت للمرَّة الألف أن تقول له: «لا تسـرع، تكلَّم بهدوء لأفهم عليك. مـاذا هنـاك؟». أخـذ نفسًـا عميقًـا، تلفَّت حولـه بحذر، اقتـرب خطوات أخـرى منها، قال وهـو يرتجف: «من حديد ويمشـي». رفعـت حاجبيها باسـتغراب: «مـاذا تقصد؟». قال وهو يرتعش: «حصـان حديد، لا، ليس حصانًـا، هـو يتحرَّك أسـرع مـن حصـان، يركبه رجـال يتكلَّمون بلسـان الجان». صاحت بخادمتها: «هاتي طاسة الرعبة، الولد مسكون، يا مغيث الطف فيه». لمسـت جبينـه بحنان، كانت ترجو من قلبهـا أن يكون الأمر مجـرَّد حمـى، لكنَّ جبينه كان باردًا على الرغم مـن العرق الذي كلَّله! ما الـذي يحدث، هل سـتفجع بـ«علي» مـرَّة ثانية؟ هل سـتفقده كما فقدته بالأمس؟ هزَّته بكلتا يديها، هزَّته بقوة وكأنَّها ستُخرج الجني من جسده..

فـي تلك اللحظة سـمعت ضجة غريبة قـرب البوابـة.. كاد قلبها يتوقف، الصـوت لم يكن ينتمي لأصوات البشـر ولا للحيوانـات! أفلتت الصبي من يديها، وخرجت مسرعة. جسدها امتلك خفة عجيبة، لم تكن تدركها قبل هذه اللحظة! وجدت نفسها أمام البوابة، كانت هناك عربة من حديد، لا يجرُّهـا حصان، واقفة وبقربها ثلاثة رجال في لباس العسـكر! أدركت بسـرعة أنَّهم أغـراب. أحدهم تكلَّم العربيـة، طالبًا منها مـاءً وطعامًا! لم تُخفِ فضولها، سـألته مَن يكونون. أجابها: «بعثة استكشافية من الجيش الفرنسي». اسـتوقفتها عبارة «الجيش الفرنسي». قالت باستغراب: «ماذا يفعـل الجيش الفرنسـي هنا؟». ردَّ ضاحكًا: «يتنزهـون». كان واضحًا أنَّه يسخر منها، نظرت إليه بانزعاج، وقالت: «آسفة، ليس لدينا ماء، وطعامنا على قدِّنا، لا نسـتطيع التبرع به للغرباء». اقترب منها، وهمس: «الأفضل أن تتبرعي به سـيدتي، فأنتِ وما تملكين تحت وصاية الجيش الفرنسـي، ويسـتطيعون أخذ كل شـيء لديكِ من دون استئذان، لطفًا وكرمًا منهم أن طلبـوه بأدب، ثـمَّ أين كرم العرب؟». المترجم الـذي قال عبارته الأخيرة بلهجة لوم واضحة، ابتعد عنها بسـرعة، وتكلَّم مع السـائس، الذي أسرع إلى الداخل ليحضر للغرباء كرسيين من القش، وقربة ماء. أعطت «أسما» الأوامر لخادمتها بوضع الطعام، ونبهتها: «زيت وزيتون وخبز، لا تخرجي شـيئًا آخر»، وأضافت بحقد: «سـم الهاري». جلسـت علـى كنبتها وهي ترتجف.. ما الذي يحدث بالضبط؟ متى احتلَّت فرنسا البلاد؟ لم تختزن ذاكرتهـا الكثيـر من المدن، لكنَّهـا ما تزال تذكر تفاصيـل الجبال والقرى والمـدن التـي عبرتها فـي طريقها إلـى هذه القريـة النائيـة، عندما جاءت

مهزومـة الـروح ومنكسـرة القلـب، وأقامت هنـا بصفة زوجـة لإقطاعي مسن، عاشت معه سنوات من العز والدلال. لم ينادها مرَّة واحدة باسمها من دون لقب خانم.. حتَّى إنَّ أهل القرية ظنُّوا أن اللقبَ جزء من اسمها. «أسما خانم»، كانت تكره اللقب لأنَّه يشعرها بأنَّها أصبحت سيِّدة، فقدت براءة الصبا، واندفاع الشباب وأحلامها بالحبِّ والفارس الغامض، دفعة واحدة! لكنَّ اللقب أضفى مع الأيام على مشـاعرها حيادًا وبرودًا، صارا يلازمانها حدَّ شـعورها بتبلُّد أحاسيسها تجاه أيِّ حدث يمرُّ بها، اكتشفت ذلك حين مـات زوجها، وحين تزوجت ابنتها الكبـرى، وغادرت القرية مع زوجها إلى بلاد الغربة، ولم تعد تعرف عنها شيئًا! ثمَّ حين رحل ابنها البكر من دون أن يودعها! لم تبكِ على أحد، فتَّشت في قلبها عن الحزن، عن الألـم، عن الارتعاش، فلم تجد شيئًا! لكنَّ ذلك كله انقلب فجأة حين مرض «علي»، وصارت تفقده يومًا بعد يوم إلى أن مات.. ارتجَّ كل شيء فـي الكون حولها.. انكسـرت القشـرة الصلبة التي غلَّفت مشـاعرها كل ذلك الزمن، وتدفَّق الدَّم في عروقها ليعيد إلى قلبها نبضه!

ارتفعت أصواتٌ في الخارج تنبئ عن تجمُّعٍ لرجال، يبدو أنَّ الفضول أتى بهم لمعرفة ما يجري. فتحت النافذة، نظرت إليهـم.. رأته يتوسطهم.. منذ متى صار «سليمان» يجتمع برجال القرية، ويتحدَّث إليهم؟ لم تتوقف عنـد السـؤال طويلًا، فقد أثارها أمـرٌ آخر، اللهجة الحميمـة الخافتة التي يتكلَّم بها «سـليمان» مع المترجم! رفع رأسـه فجأة، وتلاقت نظراتهما.. كانـت على يقيـن أنَّ لمعة عينيه التـي اخترقت قلبها لم تكـن وهمًا، ولم

تصدق أنَّ عشرات الأمتار التي تفصلهما كافية لعدم رؤية عينيه بوضوح! فمنذ رأته أوَّل مرَّة أيقنت أنَّ في عينيه قوة جذب لا يمكن مقاومتها حتَّى على هذه المسافة من البعد! انتبهت إلى تحديقه المستمر بها.. أسدلت الستارة وقلبها يرتجف. لمحته من خلف الستارة وقد قرَّب رأسه من المترجم، وهمس له بشيء ما، ثمَّ شدَّ على يدي الضابطين مصافحًا، ومودِّعًا!

الضجيج الذي أحدثته العربة في أثناء إقلاعها، جعل الرجال يتراجعون إلى الخلف، والأطفال يركضون مبتعدين عن الطريق! رأته يلوِّح بكلتا يديه للعساكر، ثمَّ يسير خلفهم بضع خطوات. توقعت أن يلتفت صوب نافذتها ثانية، أن يتوقف أمام البوابة، أن يطلب من السائس إخبارها بأنَّه يريد رؤيتها.. يدخل إليها.. يقول تلك الكلمات العالقة في حلقه منذ ثلاثة عشر عامًا! لن ترده خائبًا، أقسمت لنفسها مرارًا إن طلب يدها لن ترفض، وليقل أهل القرية عليها ما يشاؤون.. هي تشعر أنَّ «علي» ابنها، دائمًا كانت تحسُّ عندما يزورها أنَّ البيت عاد إلى الحياة، اكتمل بوجوده مع «علي»، تراه لم يفهم طيلة تلك السنوات أنَّها ترغب به كما يرغب بها! هل يعقل أنَّ كلَّ تلك الإشارات التي تطلقها روحها في حضوره لم تصله؟ أم أنَّه يتعمَّد تجاهلها؟

فتحت عينيها على الدرب الخالي منه.. وعلى أمنياتها الخائبة التي لن تتحوَّل إلى حقيقة في يوم من الأيام.

***

بـدأ أهـل القرية يعتـادون التغيُّـرات الحاصلة فـي تل الجـرب، بدءًا بالأغراب الذين يرتادون المكان، وليس انتهاءً بالفوانيس الملوَّنة المعلَّقة بشـجرة الخـروب، والتـي تُضاء طيلـة الليل، فتبـث حولهـا مهرجانًا من البهجة. فكلُّ أسـبوع يدهشـهم حدث جديد، يشـغل أذهانهم عن سابقه. فقـد دأب عسـكر الفرنسـيين على زيـارة «سـليمان» في نهاية الأسـبوع، حيـث تُقـام الولائـم هنـاك، وتحضر صبايـا من «النَـوَر» الذيـن ينصبون خيامهـم على بعد ميلين من القرية في موسـم الشـتاء، ويغادرونها أوائل الربيع. الفضول دفع العديد من الشـباب لجعل الدرب المؤدي إلى التل طريقًا للنزهة، كي يسـتطيعوا تأمل الراقصات عن قرب، والاسـتماع إلى الأحاديـث الصاخبة التي تغطي على أصوات موسـيقى تنبعث من جهاز عجيب يحضره العسكر معهم!

لـم يكن هـؤلاء البسـطاء يفهمـون بالضبط ما الـذي يجـري، لكنَّهم انغمسـوا تدريجيًّـا في الحدث، وصار لكلِّ فرد منهـم دورٌ تحدِّده أصول اللعبـة. مـا لـم ينتبه إليه أحد، علـى الرغم من وضوحـه، أنَّ الخيوط كلَّها كانت معلَّقة بكفِّ «سليمان»! أوَّل مَن رحَّب بعسكر الفرنسيين، أوَّل مَن دعاهـم إلى القرية، أوَّل مَن أحضر الراقصات من الخيام، وأوَّل مَن أعلن قيام الدولة المستقلة! لم يستوعب معظم السكَّان معنى الدولة المستقلة، فهـم بطبيعتهم لـم يغادروا إلى أبعد من بسـاتينهم، والذين سـافروا منهم إلى «اللاذقيـة»، كانـوا يعتبرونهـا الدولة، فهـم لا يعرفون العاصمة سـوى بالاسـم، ولا يدركون شيئًا عن الحدود الممتدة إلى الشمال أو الجنوب.

كانوا يكدحـون في أراضيهـم، يتزوجون، ينجبون، ويرحلـون عن الدنيا بصمـت، ويُدفنـون في حـدود التراب المحيـط بحواكيرهـم. حتَّى حين رحل أولاد «أسـما» إلى خارج حدود الوطن الكبير الذي يسـمعون عنه، لم تسـتطع مخيلتهم رسـم صورة لتلك البلاد تختلف عن صورة قريتهم، أو صـورة «اللاذقية» كمـا وصفها لهم مَن زارها أو عمـل فيها. فأيُّ دولة تلك التي أذاع «سـليمان» خبر وجودها كأنَّها فتحٌ من السـماء! وهل وراء هـذا العالم الذي يعيشـون فيه عالم آخر، وبشـرٌ آخرون يشـبهونهم! كان لا بدَّ من السعي لدى المشايخ ليفهم أهل القرية ما يجري!

«سـليمان» لم يفوِّت الفرصة، كان واعيًا وحذرًا، وعرف أنَّ أمر إقناع البسـطاء بيد مشايخهم، فأولم لهم، ودعاهم للتعرُّف على الضباط الكبار الذين يرطنون بالعربية، ولا يحتاجون إلى مترجم مباشر كوسيلة للتفاهم، واتفقـوا على ضرورة انفصالهم عن جسـد سـوريا الكبـرى بدولة تخص طائفتهـم. تلاقت تلك الرغبات مع هوى الفرنسـيين في التقسـيم! خرج «سـليمان» علـى أهل القرية في صباح عيد النيـروز، وقد تجمَّعوا في ظلِّ شـجرة الخـروب الضخمة. تنحنح كما يفعل الخطبـاء، ورفع يده.. فهدأ الناس، وران صمتٌ عميق بانتظار ما سيقوله:

«إنَّ هـؤلاء قد جاؤوا ليعيدوا إليكـم حقوقكم، وينصفوكم من الظلم الـذي لحق بكم عبـر التاريخ، وقـد قـرَّروا أن يطلقوا عليكم اسـمًا يرفع من شـأنكم.. أنتم العَلَويون منذ اللحظة، انسـوا العتمة التي عشـتم فيها،

واخرجوا إلى النور. لا أطالبكم بنسيان ثاراتكم، ولا تاريخكم، لكن لا بأس أن تنطلقوا لغزو العالم، بدلًا من السبات الذي تعيشون فيه».

لاقت خطبة «سليمان» قبولًا، ولامست قلوب أهل القرية، وكانت سببًا مباشرًا في تغيُّر معاملة الناس له. لم يعد منبوذًا وعائلته، وصار الأهالي يتجنبون ذكر اسم «بيت الحسنة» في حضوره! بعض القرويين صار يجهر بما يراه من عظمة «سليمان» في أثناء تعبُّده أعلى التل في مساءات الشتاء الباردة!

لكن ما لم يتوقعه «سليمان» أن يجد دعمًا كبيرًا من النخبة المثقفة في الطائفة، وبالتحديد من شاعرها الأكبر المقيم في العاصمة، والذي كان نائبًا في البرلمان السوري.

***

رفع رأسه قليلًا ليختلس نظرة لوجهها بعد أن نطق كلماته بسرعته المعهودة وارتباكه، ثمَّ نكَّسه ثانية، مردفًا: «هل تأمرينني بشيء سيدتي؟». نظرت طويلًا في نقطة غير مرئية، والصمت يلفهما. بحثت عن تلك الهوة المفجعة، التي اتَّسعت في غفلةٍ منها إلى الحدِّ الذي جعله يناديها «سيِّدتي». تركته واقفًا مكانه، لم تأمره بالانصراف، ولم تنادِه ليجلس بجانبها، وتضمه، لتشمَّ رائحة راحل لا يغيب! مضت إلى غرفتها، أغلقت الباب جيدًا.. اقتربت من مرآتها، لمست التجاعيد النافرة تحت عينيها بأصابعها المرتعشة، لاحظت البقع البنية الكثيفة التي غطَّت بياض بشرتها، ولم تترك للنور أثرًا.. شدَّت منديلها، حلَّت ضفيرتها البيضاء..

وتساقطت الدموع وحدها، لم تكن تبكي، لم يتحرَّك قلبها نابضًا بالأسى، ولم تنبس شفتاها بالتفجع المعهود لأغنية ترثي الراحلين من الحياة، وتناشد طيفهم بالعودة. جلست على حافة السرير.. الوهن أثقل يديها وساقيها، ومنعها من الاستلقاء. لم تستطع رفع صوتها طلبًا للنجدة من خادمتها. لكنَّ العجوز التي اعتادت على التقلبات الصحية لسيدتها تبعًا لمزاجها، جاءت من دون استدعاء.. ساعدتها على الاستلقاء، رتَّبت الوسائد على طرفي السرير، أسندت لها جسدها جيدًا، ودثَّرتها. جاءت لها بكوب الماء، وضعته في متناولها، وخرجت.

حتَّى تلك اللحظة كان «علي» ما زال واقفًا وسط الصالة لا يعرف ماذا عليه أن يفعل. طلبت منه «سعدا» المغادرة والعودة في وقت آخر. لكن قبل أن يخرج سألته بفضول: «ماذا قلتَ للسيِّدة حتَّى أصبحت على هذا الحال؟». نفى بسرعة أن يكون قد قال ما يسيء، وأكَّد أنَّه يحترمها، وأضاف بارتباك أنه «يحبُّها».

خرج لا يلوي على شيء. حين وصل التل.. كان الرعاة «أصدقاء والده!» قد زيَّنوا الشجرة الضخمة بأشرطة ملونة، وفوانيس إضافية، وأحضروا الخراف المعدَّة للذبح، وكانت أكياس القمح والبرغل مصفوفة في الغرفة الإضافية التي بناها «سليمان» على مهل بساعديه، كي ينفرد بها «علي». وحدها شقيقته «لمار» لم تكن موجودة. سأل أمَّه عنها. قالت بغيظ: «ذهبت تدعو نساء القرية للعرس». لم يفهم السبب الذي يجعل أمَّه متضايقة من دعوة نساء القرية، مع أنَّ معاملتهن لها قد تغيَّرت

منذ وطئ الأغراب بيتهم، وصاروا يلتقون فيه بشكل منتظم، قبل أن يبنوا النقطة العسكرية التي أطلقوا عليها اسم «المخفر»، وحتَّى بعد أن صار لهم بناء مميز وجميل، فيه غرف كثيرة، وأشياء غريبة، عدا الزنازين التي يوقفون فيها «العصاة»، ظلُّوا على عهدهم بالسهر تحت شجرة الخروب في الأوقات الدافئة، وداخل الغرفة حين يميل الجوُّ إلى البرودة!

لا يمكنه بالتأكيد فهم مشاعر أمِّه التي عانت من موقف الحياة والناس العدائي تجاهها منذ وعت على الدنيا وحتَّى اللحظة. حتَّى الرجل الذي كانت تظنُّ أنَّه يحبُّها، وقد خطفها من بيتها في أثناء انشغال أهلها بعرس أخيها، فاجأها بعد أيام من زواجهما ببرود عواطفه وكراهيته الخفية. كيف تسامح الدنيا التي رمتها بعيدًا عن أهلها بذنب لم تقترفه يداها، بل وجدت نفسها متورطة فيه مثلهم! كيف ستسامح النسوة اللواتي ينظرن إليها نظرتهن إلى عنزة جربة حين يصادفنها في أيِّ طريق، فيتجنبن السير قربها! لا تستطيع أن تسامح، كما أنَّها لن تنسى جرح «لمار» التي تزوجها أحد رجال القرية لقاء مكيالين من شعير، ثمَّ أعادها بعد شهر بحجة أنَّها لم تكن عذراء، وعاقر أيضًا! تعرف أنَّ ابنتها عقيم، لكن أن تتهم بعذريتها من أجل استعادة مهرها هذا ما طعنها في القلب. بصقت جانبًا وهي تنظر في عيني ابنها المبتهج بعرسه، وهمست: «الكلبة، تسعى دائمًا لتحقيري». رجاها «علي»: «أمِّي الله يخليك لا تفسدي العرس». نظرت إليه بحقد، وقالت: «وهل تسمي هذا المزاد عرسًا؟ ألست رجلًا؟ يا حيف عليك.. لكن ماذا أقول، الحق ليس عليك، بل على الرأس الكبير، والدك الذي

يتغاضى عن كلِّ شيء في سبيل مصلحته، اللعنة عليكما معًا». لم يجد ما يبـرِّر به الأمـر لأمِّه، لأنَّها كانت تعرف، وتتغاضى، لقـد رأته أكثر من مرَّة وهو يحضن قائمتي حمارتهم الخلفيتين ويضاجعها! لكنَّها لم تسـتهجن الأمـر لإدراكهـا أنَّه عـارض لا يمكن أن يدوم. أمَّا الـزواج بفتاة لا تعرف قرعـة والداهـا من أين، فهـذا ما لم تكن لتوافق عليه لـو كان الأمر بيدها! لو...

كالعـادة لـم يترك لها «سـليمان» وقتًا للتفكير والتدبيـر، ولـم يترك لها وقتًـا حتَّـى لمجرد الحلم! هو أيضًـا كان يتضايق من حكمتهـا ومثاليتها، ويشـتمها دائمًا محاولًا التقليل من شـأن عائلتها ومنبتها. كانت تدرك أنَّ ذلك ليس لكون عائلتها ذات منبت سيئ كما يدَّعي، بل لأنَّه يشعر بالنقص تجاهها، يعلم جيدًا أنَّها ابنة عائلة كبيرة، لها سطوة، وشأن، وأنَّ أهلها لم يسـكتوا عن طلب ثأرهم منه طيلة تلك السنوات.. ويدرك بشكل غامض أنَّ مصيره معلَّق بخنجر أحد أشـقائها.. لكن ما هو على يقين منه أكثر من أيِّ شيء آخر، هو أنَّه يهاجمها دائمًا كنوع من الدفاع عن النفس. يعلم أنَّ زوجته لا تعرف شيئًا عن ماضيه. لا تعرف سوى أنَّه يتيم جاء إلى بلدتهم مع أمِّه، واضطر للعمل أجيرًا عند أيِّ شخص يستخدمه، وبأيِّ عمل كان، حتَّى لم يترك عملًا لم يقم به. وآخر مَن اسـتخدمه والدها، رعى له الغنم مدَّة سنة، كان يتحرَّق خلالها للنيل منها، وحين لم يحصل عليها برضاها، خطفها، وهرب بها. ثمَّ وجد نفسه وقد تورَّط بالزواج منها وحمايتها أيضًا! وهـا هـي ترافقه كاللعنة، لا تريد أن تحلَّ عنه، ليعيش حياته. لكنَّه مع هذا

لم يفكِّر بالتَّخلص منها بشكل جدي بالوسائل التي يتقنها جيدًا، والتي لم تعرف عنها شيئًا! لم يخبرها يومًا أنَّه عمل كقاتل مأجور لدى رجل متنفذ في الأناضول، أطعمه وآواه، ثمَّ طالبه بثمن ذلك.. كان ذلك الرجل على خصومة مع تاجر حول صفقة وضع فيها كلَّ ما يملك، ولسبب غامض غرقت السفن المحمَّلة ببضائعه. علم من بعض البحارة الذين نجوا أنَّ العطب الذي أصاب السفينة كان بفعل فاعل، وأنَّ ذلك التاجر دفع مبلغًا كبيرًا للِّص الذي أعطب السفينة، وتسبَّب في غرقها. وكان الثمن الذي دفعه «سليمان» لقاء الطعام والمأوى رأس ذلك التاجر! بعد أيام سمع من الناس أنَّ أولاد القتيل يبحثون عن قاتله لينتقموا منه.. فهرب خوفًا من اكتشاف أمره! وحلَّ في بلدتهم محاولًا نسيان ماضيه.

نهضت «أسما» من فراشها صباح اليوم التالي، وقد نسيت كلَّ ما حدث يوم أمس. نادت خادمتها «سعدا»، وسألتها: «ألم يحضر علي بعد؟». نظرت «سعدا» باستغراب، وقالت: «لكنَّه كان هنا البارحة سيِّدتي». «البارحة!» تمتمت، وتابعت سيرها إلى الشرفة، وطلبت طعام الإفطار. جاءت «سعدا» بالعسل والقشدة والخبز الساخن كعادتها.. نظرت السيِّدة في الطبق، وقالت باستغراب: «لا أحبُّ هذا الطعام، لماذا أتيتِ به؟ أريد بيضًا مقليًّا، وزيتونًا و...». سكتت، وراحت تتأمل البساط الأخضر من الحشائش النابتة بين أشجار الحديقة الأمامية لمنزلها، قالت باستياء: «لماذا لم تنزعي الحشائش؟ أتريدين أن يموت الشجر؟». قالت «سعدا»: «أنتِ مَن أمرني بتركها سيِّدتي.. البارحة قلتِ لي إنَّ منظرها

يعجبك، وإنَّ لون الزهور البنفسجية والأقحوان بينها يبهج قلبك».
تأملتها «أسما» مليًّا: «أنا قلتُ ذلك؟ حسنًا، افعلي ما أقوله لكِ الآن».
هزَّت «سعدا» رأسها، وأسرعت تستدعي زوجها ليقوم بتنظيف التربة كما شاءت السيِّدة. قبل أن تصل إلى البوابة الخارجية، نادتها «أسما»: «تعالي يا سعدا». امتثلت «سعدا» لأمر سيدتها: «حاضر». سألتها ثانية: «لماذا تأخر علي؟». قالت «سعدا» وابتسامة تعلو شفتيها: «لقد تزوج البارحة يا سيدتي، يعني لن يستطيع المجيء الآن، كيف يترك عروسه ويأتي؟».
قالت وكأنَّها تحدِّث نفسها: «تزوج، ولم يقل لي؟ كيف يفعل ذلك؟ مَن سيمسك بيد عروسه إن لم أفعل أنا؟ مَن سيزفه؟ أين سيسكن؟».. ظنَّت «سعدا» أنَّه من الأفضل بقاؤها صامتة، لكنَّ السيِّدة نظرت إليها تحثها على الكلام، فقالت: «بنى له سليمان غرفة ألحقها ببيته، وقد كانت أمُّه موجودة، صحيح لم تزف العروس كما قالوا لي، لكنَّها كانت موجودة مع نساء كثيرات من القرية، وقامت حجية [1] من النَوَر بالغناء والرقص في العرس.. لكن قالت لي نسوة من القرية، إنَّ أمَّه لم تكن راضية عن العروس التي لم يعرف أحد من أين جاءت! يُقال، والله أعلم، إنَّها هدية أحد الضباط الفرنسيين لسليمان، وقيل إن أحد أغوات مدينة حماة أهداها له». فتحت «أسما» فمها دهشة، ولم تنطق بشيء. لم تصدق الحكاية، بل أرادت توبيخ خادمتها، ولم تفعل! شعرت أنَّها لم تعد قادرة حتَّى على سماع المزيد. أرادت لـ«علي» زوجة تختارها هي، أرادت أن تزفه في بيتها، أن تحقِّق حلمًا حرمها منه ابن بطنها الذي غادرها غير مبالٍ

(1) لقب يُطلق على الراقصات من «النوَر» الذين يسمون «قرباط» في سوريا.

بآلامها.. تركها ورحل عن الدنيا كلِّها.. وحين عوَّضتها الحياة بـ «علي»، تركها هو الآخر.. تركها لأنَّه لم يكن... لم يكن... لم تستطع أن تصفه بما يسيء حتَّى بينها وبين نفسها! كان ألمها أكبر من أن يشعر به شاب أفلت من سن الصبا والوصاية، وعلم يقينًا أنَّ حياته لن تكون مرتبطة بوجودها يومًا ما، فقد بدأ يشعر بذلك الفاصل الحاد بين عالمه وعالمها، بمجرد أن يعبر عتبة بيتها، يعاوده إحساسه أنَّه ابن الرجل الغريب، الذي نبذه الناس في صغره، وتحاشوا أن يلعب مع أطفالهم. ونبذت النساء أمَّه وأخته، فلم يدعوهما لدخول بيوتهن يومًا، ولم يقمن بزيارتهما في بيتهما، بيت الحسنة! حتَّى التل ليس لهم، يدرك جيدًا أنَّ أحدًا لن يعامله يومًا على أنَّه ابن السيِّدة «أسما»، صاحبة البيت الكبير، وأرض التل.. وصاحبة الفضل في إيوائهم وحمايتهم!

***

لا تعرف كم مضى من العمر وهي جالسة على هذا الكرسي العتيق، كم مرَّة أصلحته، كم مرَّة جدَّدت عروق الخيزران، وغطاء المخمل.. كلُّ ما تعرفه أنَّه جزء من حياتها لا تبادل عليه كنوز الدنيا.. هنا تجلس كلَّ صباح، تلمسه قبل ذلك لتتأكد من حقيقة وجوده التي لم يعد نظرها يسعفها على حفظ تفاصيله. فالرؤية المشوشة تجبرها على إمساكه بيديها قبل الجلوس. تضع عكازها في متناول يدها، وتغفو بانتظار خادمتها الشابة الثرثارة، فلم تعد «سعدا» تستطيع القيام بأعمال المنزل وحدها، فأتت لها بشابة، قالت، إنَّها نشيطة وأمينة. لكنَّها عنيدة ومشاكسة

لا تفهمها بسرعة، وتتصرف وكأنَّها ندٌّ لها! حاولت أكثر من مرَّة الاستغناء عنها ولم تستطع. كانت الفتاة تمتلك قوة تأثير على مَن حولها تغطي على طباعها السيئة.. ولو أنَّ السيِّدة «أسما» ما زالت تتمتع بقوة نظرها عن قرب، لما احتفظت بها يومًا واحدًا.. فقد كانت نظرات الفتاة الحاقدة تشي بقلب لا يعرف الحبَّ ولا الشفقة، ونيران الغيرة تنفث ريحًا كريهة أينما حلَّت. من حسن حظ السيِّدة أو من سوء حظها، كانت ترى الأشياء البعيدة فقط، ولا تدرك ما يحدث قربها بدقة!

لهذا كانت دائمة الشرود في البعيد، تلتقط بعينيها تبدُّلات الفصول، وألوان السماء، وحركة الأولاد خارج البوَّابة. مضت سنوات على آخر مرَّة رأت «علي» فيها.. لكنَّها كانت تعتقد أنَّ ذلك حدث البارحة، فلم تنسَ يومًا أن تسأل إن كان تناول غداءه، أو مرَّ ليأخذ العيدية التي تتركها له على طاولة في الصالة خشية أن يأتي، ويجدها نائمة! لم تعرف أنَّ قطعة النقود تلك لم تبرح المكان الذي وضعتها فيه منذ عشر سنوات! فقدت إحساسها تمامًا بالزمن منذ انقطع عن زيارتها. لكنَّها لم تفقد ألق حضوره الدائم في روحها.. حتَّى إنَّها كانت تحدِّثه، وتحثه على النهوض من مرضه، وتؤكد له أنَّه سيشفى قريبًا، وأنَّها ستزوجه الفتاة التي أحبَّها.. أكَّدت له مرارًا أنَّ تلك التي ضاجعته في بيت التل لم تكن سوى امرأة شريرة، أرادت الانتقام منها لسبب تجهله! يمكن أن يكون ثأرًا قديمًا خلَّصته منها بإرسال ابنها إلى العالم الآخر! شاءت أن تمتلك ذلك اليقين لتجد روح «علي» طريقها إلى الدنيا مرَّة أخرى! لكنَّ جسد «علي» فارقها

ثانيـة، فأوقفـت الزمن عنـد اللحظة التـي كان يلجأ فيها إليهـا لتحميه من الأولاد الذين يشـتمونه، ويلقِّبونه بابن الحسنة! بقي «عليٌّ» بجانبها، يمرُّ بها كلَّ صباح، وعند الغداء يتناول طعامه معها. ومع غياب الشمس، يأخذ حصته من الطعام والهدايا التي تحضرها له باستمرار. كانت تحرص على إعطائـه كميات أكبر من حاجته من الزبيب والجوز والبندق واللوز، وكلِّ ما يشتهيه، حرصًا منها على عودته!

لفـت انتباههـا أحد الأولاد الذيـن يلعبون خارج البوابة، كان يتسـلَّق السور، ويقطف حبات المشـمش، ورفاقه يضحكون، ويتحدونه ليصعد مرَّة ثانية.. صاحت بصوتٍ استمدَّ قوته من روحها: «يا علي». الولد انتبه إلـى وجودهـا فجأة، اختلَّ توازنه، وسـقط داخل السـور. نهض بارتباك، وركـض صوب البوابـة، كانت مغلقة بالقفل! رفاقه لـم يهربوا، بل وقفوا يشـجعونه على اعتلاء السور والهرب. صرخت ثانية: «يا سعدا». جاءت العجوز تنقل جسـدها بصعوبة.. قالت بحدة: «هاتيـه، لا تدعيه يهرب». كانت تحاول السـيطرة على ارتعاشـها في غمرة حماسها وحرصها على عـدم هربـه. «سـعدا» خطـت بتثاقل صـوب البوابـة.. وصوت «أسـما» يلاحقهـا: «هاتيـه، لا تدعيه يهرب». الولد أصبح فوق السـور، ولم تفلح «سـعدا» فـي الوصـول إليـه، ولم تبـذل أيَّ جهـد لإقناعه بعـدم الهرب. وصلت الخادمة الشـابة على صوت الصراخ، التفتت إليها متسائلة: «مَن ذاك الولد الذي يعتلي السور؟». لم تكن تقصد السؤال، بل كانت تبحث عـن إجابـة تؤكد لها أنَّـه هو «علي»، لـم يكبر، لكنَّه اختفى فـي مكان ما،

كان يلعب، وتأخر عن الحضور فقط! الخادمة الشابة، قالت بحياد: «ماذا تريدين منه؟ لم يسرق شيئًا، المشمش يتساقط لوحده، ولا أحد يهتم به».

ردَّت بحدَّة: «لا أريد معاقبته يا غبية، لا يهمني المشمش، أريده أن يغتسل فقط، ويأكل، ويبدِّل ملابسه القذرة.. لم يكن قذرًا هكذا في يوم ما». استغربت الفتاة، لكنَّها لم تعلِّق بكلمة، فقد عرفت من قبل أنَّ سيِّدتها قد أصابها الخرف، وأنَّها تعاني أمراض الشيخوخة وأولها النسيان. وقد استغلت مرضها، فكانت تأخذ أجرتها أكثر من مرَّة، وتسطو على ملابس السيِّدة القديمة التي لم تعد تصلح لسنها.. تستغل نومها، وتفتش صندوقها.. لم تستطع معرفة مكان النقود! لكنَّها تأمل أن يأتي اليوم الذي تتذكَّر فيه السيدة المكان، فقد أشيع أنَّها تملك الكثير من المال والمجوهرات، وقد خبَّأتها في مكان ما من المنزل، ونسيته!

انتبهت إلى صراخ سيدتها وهي توبخ «سعدا»: «لم تعودي صالحة لشيء، لماذا لم تمسكي به؟ لماذا تركتيه يهرب؟». ابتسمت الفتاة وهي تقول ببطء: «لن يبتعد كثيرًا، سآتيك به». قالت السيِّدة بلهفة: «صحيح؟ أنت متأكدة؟». قالت بثقة: «طبعًا، متأكدة، لأنَّه ابن أخي!».

وفت «لمار» بوعدها للسيِّدة «أسما»، وأحضرت «صخر» ابن أخيها في اليوم التالي، وحاولت أن يبدو بهيئة جيدة.. حين تأملته السيدة «أسما» عن قرب، وأمسكت بيديه، حدث شيء غريب لعينيها، اتَّسعت حدقتاهما، وتلوَّنتا بألق غريب.. حدَّقت به جيدًا، رأته بوضوح!

أمـرت أن يدخـل الحمَّـام الخـاص بهـا، وأن تُرمى ملابسـه تلك في القمامة، ويسـتبدل بها ملابـس جديدة. وحين خرج إليهـا، وقد احمرَّت بشـرته، وارتدى ملابـس نظيفة وحذاءً جديدًا.. رنـت إليه وقلبها يرتعش بفرح يشـي بسـنين الانتظار والحـزن، وقالت: «يـا رب!». هتفت «لمار» وكأنَّها ترى ابن أخيها لأوَّل مرَّة: «يا علي.. ما أجمله!». وقع اسم «علي» على سـمع «أسـما» كصاعقة، انتفض جسـدها كلُّـه، لم يخطـر ببالها أنّ خادمتهـا تقصـد «الإمـام علي»، بـل انصرف ذهنهـا تمامًا إلـى أنَّ الطفل الواقـف أمامها هو «علي».. ابنها المتجـدد دائمًا، والذي لا يبرح طفولته أبـدًا! التفتت إلى خادمتها العجوز متجاهلة وجـود «لمار»، وطلبت منها أن تأخذ «علي»، وتطعمه، ثمَّ تذهب به إلى المدرسـة، وتوصي الأسـتاذ بـه.. وأكَّـدت عليها: «قولي له، إنَّي سـأدفع مصاريف دراسـته، ليمر بي، ويطلب ما يشـاء». كانت «لمار» واقفة وقد أذهلها ما سـمعته من السيِّدة، لكنَّ ذهولها لم يسـتمر طويلًا، فقد اشتغلت حواسها مجتمعة لاستيعاب الحدث الجديد واستغلاله.

حيـن عـاد «صخـر» ظهر ذلـك اليـوم مـن المدرسـة، كان محتشـدًا بالحكايـات الغريبة، لم يكن ينقصه الخيال كي يخترع شـكلًا للمدرسـة غير حقيقي، ويروي عن الأسـتاذ أمورًا لم تحدث، بل إنَّه وصفه بالساحر الذي يعرف كلَّ شيء. كانت السيِّدة مبتهجة بحديثه، حدَّ أنَّها لم تمل من جعله يكرِّر الحكاية أكثر من مرَّة، وفي كلِّ مرَّة كان يجيد صياغتها بشكل أكثر إقناعًا!

وقد حرصت السيدة على أن ترى كتبه ودفاتره، وأن تتابع بنفسها تهجئته المتعثرة للأحرف، وترى كيف ينطق الحروف الفرنسية، كما ينطق العربية! كان الوحيد بين إخوته الذي دخل المدرسة، والوحيد الذي حظي باهتمام السيِّدة كما حصل لوالده قبله. ومع أنَّه لم يُدرك السبب الحقيقي لذلك الاهتمام، إلا أنَّه كان سعيدًا لتحقيقه أمنيات مستحيلة، كانت حلمًا لكثيرين من أبناء القرية الذين في سنه. فكلُّ ولد يرث صنعة أبيه.. وهو من بين هؤلاء الفتيان حصل على شرف التعليم من دون أن يسعى إليه!

***

خلال السنوات العشر الأخيرة انقلبت حال القرية، فقد عبَّد الفرنسيون الطريق الواصل إليها، وبنوا مدرسة إضافة إلى المخفر، وألزموا التلاميذ بتعلُّم الفرنسية، وأدخلوا صناعات جديدة، وتحوَّل بعض سكَّان القرية من العمل في الزراعة إلى التجارة، وانتعشت صناعات وماتت أخرى. وطال الموت عجائز القرية الذين شهدوا بداية التحولات الكبرى ومنهم السائس وزوجته «سعدا»، وتزوج «علي» للمرَّة الثانية بعد ولادة زوجته مباشرة. وبقيت السيِّدة «أسما» طريحة الفراش طيلة تلك السنوات، تعاني من العجز وفقدان الإحساس بالأشياء بالإضافة إلى النسيان. وفرضت «لمار» قوانين صارمة على البيت الكبير، منعت أيَّ إنسان من زيارة السيِّدة بعد موت السائس وزوجته، لكنَّها لم تكف عن العناية بها، لازمتها طيلة الوقت، كانت تأمل أن تصحو السيدة آخر الأمر صحوة

الموت، فتوصي لها بما تملك! أو على أقل تقدير تذكر في نوبات الهذيان التي تفاجئها أحيانًا مكان المجوهرات والمال الذي لم يكف أهل القرية عن ذكر تفاصيل دقيقة عنه!

أخيرًا دخلت السيدة «أسما» في غيبوبة، كانت تصحو منها لدقائق، لتسأل عن «علي»، هل تناول طعامه؟ هل كتب وظائفه؟ هل يحتاج شيئًا؟ ثم تذهل عن الدنيا وما فيها! استمرَّ ذلك الحال عدَّة أشهر، كانت «المار» خلالها قد ملَّت الانتظار، وضاقت ذرعًا بالسيدة الميتة - الحية، التي تقاسمها البيت، فصارت تتصرَّف وكأنَّها سيِّدة المكان! فتحت الصناديق، وأخرجت أثواب السيِّدة وشالاتها القطيفة الملونة، وربطت شعرها بمناديلها، واحتلَّت مكانها على الكرسي، فكان المارُّون يرون طيف السيِّدة الجالسة على الشرفة من وراء الأشجار الكثيفة للحديقة، ويستغربون، وينسجون الحكايات حول صحتها وعودتها إلى الحياة، بعد أن أشاعوا أنَّها ماتت! لم تكن «المار» تهتم بكلِّ ذلك.. كانت ترجو في خريفها المفاجئ بعد أن نحل عودها، وترهل جلدها من غير سبب ظاهر! أن تعوضها الأيام عمَّا افتقدته طيلة عمرها من الاستقرار والأولاد والزوج بمال يقيها الحاجة، ويمنحها سلطة على مَن حولها! فما كان أمامها سوى تقمُّص دور السيِّدة، لكنَّها لم تُحضر خدمًا للبيت، كانت حريصة على سيادتها واستقلالها، الوحيد الذي لم يشمله المنع «صخر» ابن أخيها «علي».. الورقة الرابحة التي ما زالت تحتفظ بها لعلَّ السيِّدة تستيقظ من غيبوبتها يومًا، فتحقق حلمها اليتيم في انتقال ملكية البيت ومزرعة التل إليه.

لم تستفق «أسما»، ولم يتحقَّق حلم «لمار» بالثروة، فأهملت السيِّدة، ولم تعد تعتني بها، حتَّى إنَّها دخلت عليها يومًا، فوجدت الغرفة قد طفحت بريحٍ خانقة، اضطرتها لفتح النوافذ، وتبديل الأغطية وملابس السيدة التي كان جسدها قد بدأ يتآكل وهي ما تزال حية! الضيق والغضب أوغرا صدر «لمار»، وتمنَّت لو تموت السيدة، وتريحها. لم تعد ترغب بالبيت، ولا بالثروة، كانت تريد الخلاص منها فقط. كراهيتها العميقة للسيدة جعلتها تكره البيت الصامت المسوَّر بهالة الموت، وتفكِّر بالخروج منه، وأخذ ما تستطيع، لكنَّها تراجعت عن الفكرة.. أعطت نفسها فرصة التفكير الصافي بخروج مؤقت من البيت. صارت تذهب إلى زيارة أهلها في التل، وزيارة بعض بيوت القرية لتعقد صداقات مع الناس، وتستميل الصبايا ببعض الهدايا الصغيرة. وقامت بدور خاطبة مرَّة، وبدور دلَّالة مرَّة أخرى، ثمَّ بدور كاتمة أسرار! وبعد جولات استمرت أشهرًا، التزمت البيت، وفتحت البوَّابة، وصارت الصبايا يقمن بزيارتها. اتَّسعت دائرة قاصديها، وامتدت لتشمل معظم نساء القرية. كان لديها من الدهاء ما يؤهلها لإيجاد حلول عجيبة لكلِّ مشكلة، زواج، طلاق، كتابة أحجبة للمحبة، للبغض، للفراق. وبانقضاء شتاء تلك السنة طارت شهرتها إلى القرى المجاورة، وقصدها بعض الأغراب ليلًا.. فكانت تستر على فتيات متورطات في علاقات غير شرعية، وتنقذهن من الذبح بالحيلة أحيانًا، وباتفاق مع عجوز على حافة القبر ليعقد صفقة مع أهل الفتاة يظنُّ أنَّها رابحة، لكنَّه يكتشف الخديعة بعد أشهر حين يصبح أبًا لطفل لا يعرف عن جسد أمِّه سوى شكل الثوب الذي ترتديه!

سكَّان القرية أطلقوا على «لمار» لقب الدلَّالة في البداية، ثمَّ العرَّافة.. وأطلق عليها الأولاد لقب الساحرة الشريرة، فقد كانوا يخافون من هيئتها العجيبة الشاذة، على الرغم من سعيها الدائم لتحسين وجهها بمساحيق خاصة، تجلبها من المدينة. وعلى الرغم من ارتدائها ملابس السيِّدة الأنيقة، لكنَّها لم تفطن أنَّ هذا بالضبط ما يجعل شكلها منفِّرًا وغريبًا. فلم يكن وجهها القبيح المدهون بالأصباغ لإخفاء لونه الغامق، يتَّسق مع الملابس، وشكل الشال القطيفة والمنديل الفلاحي وكمية الأساور وأطواق الخرز المحيطة بعنقها ورأسها! وعلى الرغم من وصول تلك المسميات إلى سمعها إلا أنَّها لم تكن تهتم، فقد حدَّدت هدفها منذ البداية، وسعت إليه بكلِّ قوتها. الهدف شكَّل هاجسًا ملحًّا جعل «لمار» تعمل بشكل محموم وكأنَّها في سباق مع الزمن. لم تكن تستشعر خطرًا، ولم تتنبأ بنهاية محزنة، لكنَّ ثقلًا غامضًا كان فجأة يجثم على صدرها، ويقبض أنفاسها للحظات، فتشعر بالضيق، فالاختناق، ثمَّ يزول بعد أن تدفع بكامل جسدها خارج الغرفة، وتركض في الحديقة وهي تسحب شهيقًا، ينتهي بزفير مريح.. تعطس، وتستعيد نشاطها.

حرصت «لمار» طيلة أشهر الربيع على حضور «صخر» إلى البيت الكبير لتراه السيِّدة «أسما» التي كانت تفتح عينيها، وتنظر حولها بذهول، ثمَّ تبتسم له.. ابتسامة اليقظ العارف. وحين نال شهادته آخر العام الدراسي، أحضرته أمام السيِّدة، وهمست لها: «لقد نال الشهادة كما أردتِ، ألا ترين؟ لقد أصبح شابًّا». ابتسمت السيِّدة، وهمست بكلمات

لم تستطع «لمار» سماعها جيدًا. انتظرت أن تعيد السيِّدة عبارتها على أمل أن تكون رغبتها الأخيرة ترك أملاكها لـ «صخر»، ظنًّا منها أنَّه «علي»! لكنَّ «أسما»، غابت عن الوجود ثانية مصحوبة بلعنات «لمار» وشتائمها التي أدهشت الصبي، وعندما انتبهت إليه، أمرته بالذهاب إلى بيت والده. كانت تتميز غيظًا، ما الذي جنته في حياتها حتَّى تُعاقب بهذا الشكل؟ تخدم سيِّدة خرفة قذرة من دون مقابل! دخلت غرفتها، ورتبت ثيابها في بُقْجَة، وأحضرت صندوقًا حشرت فيه ما انتقته من أغراض ثمينة وإن لم تكن بحاجتها. أحضرت حمارًا، وحمَّلت الأغراض على ظهره، وأرسلت في طلب ابن أخيها «صخر»، وأمرته أن يأخذ الأغراض إلى بيت التل.

في الطريق أثاره ملمس الأشياء، ودفعه فضوله إلى فتح البُقجة التي كان يتكئ عليها في جلوسه. أبهرته الألوان والأشكال، وقرَّر أن يأخذها لأمِّه!

جلست «لمار» تتأمل الشرفة والحديقة بغيظ، غرقت في تأملاتها لوقت طويل وهي تشرب كأسًا من البابونج والنعناع، اعتادت على تناوله لتهدئة تشنُّجات معدتها حين تغضب.. لم تشعر بتحسن مع انتشار الدفء في جسدها، لكنَّها استطاعت أن تسترخي قليلًا في جلستها، وتعيد حساباتها. حين صفا ذهنها قليلًا، خطرت لها فكرة جهنمية.. ماذا لو كانت العجوز قد أخفت وصيتها مثلًا داخل وسادتها؟ أو في فراشها؟ ماذا لو تركتها الآن، وماتت، وشيَّعها أهل القرية، ومزَّقوا وصيتها؟

لا تعرف من أين جاءها اليقين بأنَّ السيِّدة لن تموت من دون وصية، وأنَّ الوصية ستكون حتمًا لابن أخيها، وستوصي له بكلِّ ما تملك. هذا ما كان يصبِّرها على الذل الذي تعيشه من جرَّاء إحساسها بمنبتها الوضيع الذي رمى بها للعمل خادمة في أكبر بيوت القرية وأغناها. صبَّت لعناتها على «سليمان».. لماذا لم يكن غنيًّا بما يكفي ليجعلها سيِّدة مثل «أسما»؟ لماذا هي من بين النساء اللواتي تعرفهن اختصَّها الله بالقبح والعقم معًا؟ أخذتها أفكارها بعيدًا إلى حلم صارت تعتقد بصعوبة تحقيقه، وانتزعها منه بقسوة ضجيجُ عربة توقفت أمام البوابة! لم يحتج خبر السرقة لأكثر من ساعة حتَّى انتشر في أنحاء القرية، ووصل تل الجرب، والقرى المجاورة. تناقله الرعاة، والفلاحون في حقولهم، والنساء في تجمعاتهن سواء في الحقول، أو في حفلات الخبز.

لكنَّ الخبر لم يأخذ حظه من التفسير والتأويل والزيادة؛ لأنَّ خبرًا ثانيًا ذرَّاه، وحمَّله للريح، واحتلَّ مكانه. حكاية الأغراب الذين حلُّوا في القرية بسيارتهم الفخمة، وأزيائهم الغريبة التي تشبه أزياء الفرنسيين في الحفلات، طغت على كلِّ الحكايات تلك الليلة في البيوت الساهرة وراء أبواب الترقب والانتظار. ونسي أهل القرية سيرة «لمار» وسرقتها لأغراض السيِّدة مؤقتًا! الغموض الذي شاء القرويون أن يصبغوا به حكاياتهم، لم يأتِ من فراغ، فلم يكن أحدهم قد رأى شخصًا من الأغراب الذين احتلوا البيت الكبير، انتقلت إليهم الأخبار عن طَريق الأولاد الذين يصرون على اللعب أمام البوَّابة مهما فعلت بهم «لمار»،

فكانت كلَّما طردتهم، يعودون! وقد رأوا في ذلك العصر سيارة فخمة كبيرة، تتوقف أمام البيت، وينزل منها رجل أنيق برفقة سيدة شقراء، وثلاثة أولاد، شابان وفتاة في منتهى الجمال. برع الأولاد في وصف الفتاة، ملابسها وشعرها الذهبي المنسدل على كتفيها، قدميها، حذاءها، كل تفصيل صغير.. لكنهم عجزوا عن تذكُّر ملامح الرجل الذي كان يقود السيارة وزوجته الشقراء.. فقط اتفقوا على معلومة وحيدة، عصاه المذهبة، وقبعته الغريبة الشكل!

حين توقفت السيارة أمام البوَّابة، نهضت «لمار» من كرسيها مفزوعة، حدَّقت في الرجل الذي دفع الباب بهدوء، ووقف يتأمل الأشجار، ثمَّ نادى على أولاده ليدخلوا.. الفتاة كانت أوَّل الواصلين.. حيَّت «لمار» بحركة أثارت سخريتها، لكنَّها حافظت على جديتها لتستوعب ما يحدث. الرجل حدَّق فيها بنظرة استخفاف شملت وجهها وجسدها وحتَّى قدميها، وسأل بحياد صعقها: «أنتِ خادمة الجدة؟». هزَّت رأسها وكأنَّما تنفي أن تكون خادمة لأحد، هي سيِّدة المكان، ماذا يخرِّف هذا الرجل؟ لكنَّها لم تنطق بكلمة. فعاد الرجل يتساءل: «مَن تكونين إذن؟». خرست «لمار» تمامًا، كانت بحاجة لوقت لتستوعب مَن يكون، لم يخطر لها أبدًا أنَّه يعني السيِّدة «أسما».. كلُّ سكَّان القرية يعرفون أنَّ ابنها الوحيد «علي» لم يتزوج. من أين جاء هذا الرجل الذي يدَّعي أنَّه حفيدها؟ ولماذا في هذا التوقيت؟ لا شكَّ أنَّه محتال جاء ليستولي على أموال السيِّدة وممتلكاتها. قالت بثبات: «ومَن تكون حضرتك حتَّى

تسأل هذه الأسئلة؟». صعقها الجواب: «ابن محمَّد بِكر السيِّدة أسما، وأنتِ؟». مادت الأرض بها.. مَن تكون هي؟ كيف تجيب عن السؤال؟ بلعت ريقها مرارًا، لكنَّه كان جافًا إلى درجة منعتها من الكلام.. أشارت بيدها إلى الداخل، لم تكن تعني شيئًا.. المرأة تجاوزتها، ودخلت من دون سلام. الشابان دخلا وراء أمِّهما من دون حتَّى أن ينظرا ناحيتها. ما الذي يحدث؟ نطقت ببطءٍ بصوت خرَّشته غصة حادَّة: «السيِّدة أسما في الداخل، أنا ممرضتها». لم تعرف كيف أسعفتها فطرتها بهذه الفكرة، لكنَّها أنقذت نفسها بها من إهانة وصمها بها حفيد السيِّدة بسؤاله الفظ عن كينونتها!

حين رأى السيِّد – أو الخواجة كما سمَّاه أهل القرية – جدته على تلك الحال، صرخ بالممرضة المزعومة، وشتمها، وطلب منها جمع أغراضها، ومغادرة البيت حالًا. كانت «لمار» في حالة من الذهول والقهر لم تتركها تستوعب الأمر، شعرت أن كلَّ ما فيها يتعرَّض للضرب العنيف، أرادت أن تنفي تهمة الإهمال عن نفسها، وتشرح للسيِّد أنَّ جدته في الفراش منذ عشر سنوات، وأنَّها لا تكاد تصحو من الغيبوبة حتَّى تستطيع تبديل ملابسها وتهوية جسدها كما يجب. لكنَّه لم يشأ أن يسمع أيَّ تبرير، بل ذهب حدًّا بعيدًا في إهانة المرأة الواقفة أمامه وهي ترتجف بقوله: «في الحقيقة ما خاب من اختار اسمكِ».

استدارت «لمار» لتخرج من البيت، فاستوقفها السيد: «خذي حاجياتك، لا أريد أن أراك هنا ثانية». توقفت قليلًا، قالت ببطء، من

دون أن تلتفت: «ليس لديَّ شيء هنا، أنا لا أقيم في المنزل، كنت أعتني بالسيدة زكاة عن يديَّ بعدما صارت وحيدة ومنبوذة». أنهت عبارتها تلك، وحثَّت خطاها نحو البوابة، كانت تشعر أنَّها انتقمت لنفسها بإهانة السيد الذي أهانها. وقد شعر هو بذلك.. فتسمَّر مكانه وقتًا طويلًا وهو يتابعها بعينيه حتى غابت في الدرب. تساءل في نفسه إن كان قد ظلمها.. لكنَّ فكرة الظلم لم تستوقفه بقدر ما شعر بتسرُّعه، مَن سيعتني بجدته الآن؟ من المستحيل أن تفكر زوجته مجرد تفكير بالدخول إلى غرفتها.. إذن لا أحد سيقوم بذلك غيره! بصق جانبًا: «اللعنة». إلى متى سيبقى أسير قراراته المتهورة؟

عندما وصلت «لمار» إلى بيت الحسنة كانت في حالة يرثى لها من التشوش والقهر والغضب. لم ترد على تساؤلات أمِّها حول سبب عودتها، بحثت بعينيها عن الصندوق والبقجة، فلم تجد شيئًا. صرخت بكلِّ قوتها: «صخر». جاء الصبي مرتجفًا، لم يكن بحاجة لسماع السؤال، فهو يعرف ماذا تريد عمَّته، أشار بيده إلى غرفة أمِّه. دفعته «لمار» مبعدة إياه عن طريقها. فتحت باب الغرفة بعنف يتناسب وغضبها، نظرت إلى زوجة أخيها بحنق، وشتمتها: «لم يكن ينقصني سوى أنتِ يا عاهرة». لطمتها على وجهها، فوقعت أرضًا وهي تحمي بيديها ابنها الصغير المتعلِّق بثديها! لم تكتفِ «لمار» بذلك، كانت هائجة إلى درجة الجنون، وتريد أن تفرغ حقدها دفعة واحدة لتستريح. ركلت زوجة أخيها على بطنها، وأبعدت الصبي، وأمسكتها من شعرها.. وصل صراخُهما إلى سَمْع «علي» الذي وصل في تلك اللحظة إلى البيت، دخل مسرعًا

ليخلِّص زوجته من يدي أخته، وهو يصرخ بها: «أنا الذي فعلت ذلك، أنا قلت لصخر أن يحضر الأغراض هنا، لم تكن تلزمك، وأنت تسيطرين على كلِّ شيء هناك». دفعت زوجته بعيدًا، ووقفت مواجهته: «أنت! انبسط إذن، لم أعد سيِّدة المكان.. لقد طردوني من هناك. لم يعد لديَّ حتى الحلم». لم يدهش «علي» لقولها، فقد سمع قصة الأغراب الذين يدَّعون أنَّهم أصحاب البيت، كما سمع عن سرقة أخته! لكنَّه لم يتوقع طردها بهذه السرعة، فلا بدَّ أنَّهم يحتاجون لمن يعتني بالسيدة والبيت، ما داموا «خواجات» كما وصفهم أهل القرية. لم يكن «علي» يملك الفضول الكافي للذهاب إلى هناك ليرى صاحب البيت، الذي سرق حلم أخته، فقد أدرك منذ زمن طويل أنَّه لا يمكن أن يكون ابن السيِّدة «أسما» مهما حاولت أن تثبت ذلك.. لهذا لم يقم بزيارتها منذ تزوج.. لم يشأ أن يبني بيوتًا من الوهم، فقد كانت مخيلته فقيرة على عكس أخته، وأحلامه بسيطة وعادية، لا تتجاوز رغيف خبزه وقوت أبنائه، وإرضاء زوجتيه. كان يستغرب تلك التطلعات التي تمتلكها «لمار».. والتي أرجعتها أمُّه إلى الشبه بجدتها الفارسية التي حملت اسمها. فقد جعلته يعتقد أنَّه يشبه أخواله، ولا ينتمي إلى عائلة أبيه بشيء. لم يعرف لماذا كانت أمُّه تصرُّ على ذلك الشبه، وعلى إبعاده قدر المستطاع عن عالم أبيه، ولم يكلِّف نفسه عناء البحث أو حتى الاستفسار عن ذلك.

صحت القرية في صباح اليوم الثالث لوصول الأغراب على نبأ هزَّ وجدانهم، واستحضر كلَّ أحزانهم، فارتدوا السواد على غير اتفاق، وتجمَّعوا في ساحة القرية، وساروا بصمت إلى البيت الكبير. توقف

الجميـع هناك أمـام البوابة المفتوحة، لـم يجرؤ أحد على الـكلام، تقدَّم المشـايخ بصحبة «سـليمان»، ودخلوا إلى البيت. كان السـيد جالسًـا في صدر الصالة ذاهلًا عمَّا حوله، وفي الداخل كانت نسوة من القرية يجهزن الراحلة للتشييع!

ردَّد المشـايخ كلمـات التعزيـة بحيـاد، وصافحـوا حفيـد المتوفـاة، وجلسوا بضع دقائق، وغادروا. «سليمان» بقي جالسًا، واسى «أبا محمَّد» بعبارات ودية، وسـأله إن كان يحتاج إلى مسـاعدة. نظر السـيد «منصور» إليـه باسـتغراب، فأضاف «سـليمان»: «أقصـد في ترتيبات العـزاء». رفع «منصـور» كتفيه، ونطق بحرقة: «لا أعرف. كانـت تحدِّثني. كيف حدث ذلـك؟ كانت تقول إنَّها انتظرتني طويلًا، لم تشـأ أن تموت طيلة سـنوات مرضها؛ لأنَّها كانت تعرف أني سـآتي، ولن أتركها وحيدة، وأنِّي سـآخذ عزاءهـا، وأحقِّق وصيتها. ماذا كانت تعنـي؟ عن أيِّ وصية تتحدَّث؟ هل تعرف أنت يا عم...؟». قال «سليمان» بهدوء: «سليمان.. عمك سليمان. المرحومة لها فضلٌ كبير عليَّ وعلى عائلتي. لكنَّها لم تخبرني عن وصية، بالتأكيد ستجد وصيتها في مكان ما». حدَّق «منصور» في وجه «سليمان» مليًّا، وقال: «وما أدراك يا عم أنَّها تعرف الكتابة؟». قال «سليمان» بصبر: «لا أعرف يا بني، لكنَّها ستلجأ لمن يعرف ليكتب لها، وربَّما قالت وصيتها لشـخص مقرَّب منها، كان يقيم معها مثلًا». رمى «سليمان» كلماته وكأنَّه لا يقصد شيئًا، واستأذن في الخروج. كان يأمل أن تكون السيِّدة قد باحت

لابنته بشيء يخص أملاكها، كان يأمل أن تكون قد خصَّت «علي» بشيء مما تملك، أو أوصت بشيء لحفيده «صخر»!

أصيب أهل القرية بالخيبة كما أصيب «سليمان» من معاملة سكَّان البيت الكبير للناس من حولهم بعد وفاة السيدة «أسما». كان السيد، على الرغم من حذره الشديد، وتجنبه للضباط الفرنسيين، قد استعاد كلَّ الأراضي التي تملكها جدته من الفلاحين الذين يعملون فيها. لم تكن السيِّدة «أسما» تحاسب أحدًا، خاصة في ربع القرن الأخير من حياتها، بالضبط بعد مجيء الفرنسيين إلى القرية. تركت كلَّ ما تملك تحت إمرة مَن يعملون في الأرض. لأجل ذلك أحبَّها الناس، وطمعوا فيها. لكنَّها لم تشعر بالاستياء يومًا.. خاصة بعد موت «علي».. وانتظارها الطويل للموت كي تذهب إليه! زهدت بالدنيا وبما فيها، ولم تفكِّر في ترك وصية لأحد، وإن تمنَّت أن يعيش «علي» ابن «سليمان» في البيت الكبير، فهذا فقط لأنَّها كانت تريده قربها ومعها، لكن أن يبقى بعدها، ويأخذ ما تملكه، فهذا ما لم يخطر ببالها. كانت تشعر في ساعات الصحو القليلة التي تخرج فيها من غيبوبتها برغبة عميقة في رؤيته. في الحديث إليه، لكنَّها لم تكن ترى سوى نظرة عينين تقدحان شررًا في عتمة الغرفة وسكونها، فتخاف من صحوها، وتلتمس الغيبوبة من جديد!

ما لم يعرفه أحد، أنَّ «لمار» كانت تفعل ذلك متعمِّدة، لم تسمح للنور بدخول غرفة السيِّدة في الفترة الأخيرة، وتعمَّدت أن تخيفها بشكل يجعلها تنسحب تدريجيًّا من الحياة. ظنَّت أنَّ بإمكانها استحضار الموت

ليسرع في اصطحاب «أسما» إلى العالم الآخر، فترتاح منها، وتتفرغ لمخططاتها الكثيرة بما يخص البيت والأرض والتل! الفشل الذريع الذي مُنيت به أحلامها، لم يجعلها تيأس، أو تتوارى عن أعين الناس، فقد كسبت في السنوات الأخيرة حرفة تؤهلها للسيطرة على معظم نساء القرية البسيطات بتفكيرهن ومعرفتهن. لم ينقصها الكثير لتصبح عرَّافة واسعة الشهرة، مع أنَّها لا تعرف القراءة والكتابة.. لكنَّها تعرف كيف تسرق الكحل من العين، على حدِّ تعبير امرأة، كانت تكرهها، وترفض أن تجتمع بها، ولم تسمح لها بزيارتها يومًا. تلك المرأة لم تكن غنية جدًّا مثل السيدة «أسما»، لكنَّها كانت زوجة تاجر مهم لديه ثروة معقولة وبيت واسع، وأبناء لا يعرف عددهم من زوجات كثيرات، هي الوحيدة بينهن من أقربائه، والبقية تزوجهن في أسفاره، وأنجب منهن. بعضهن جئن إلى القرية. والبعض بقين في بلادهن. السيِّدة «جنَّات» أم «أسينة»، الفتاة الوحيدة بين جيش من الذكور، كانت تكره «لمار»، وتعتقد أنَّها مجرد نصَّابة، لكنَّها لا تمتلك الدليل الدامغ أمام الثقة العمياء التي أولتها إياها نساء القرية الأخريات، مما جعلها تتجنب التواجد في الأماكن التي تزورها. لم تكن «لمار» تهتم لشأن السيِّدة «جنَّات»، والتي كانت تنطق اسمها بكسر الجيم متعمِّدة السخرية منها.

***

استطاعت «لمار» خلال سنة بعد وفاة السيِّدة، أن تستعيد نشاطها، وتقوم بزيارات إلى القرى المجاورة لتحضر بعض الأعشاب الطبية التي تساعدها في الكثير من أمور الشعوذة. وفي إحدى رحلاتها إلى وادي النصارى، قصدت «تنورين»، فقد سمعت في الحكايات أنَّ ينابيعها تشفي الكثير من الأمراض الجلدية. وفكَّرت أنَّها ستحمل معها بعضًا من ماء «عين داود» لعلَّه يساعدها في شفاء أحد المرضى. صادفت زيارتها في الرابع عشر من آب عيد السيِّدة العذراء. بعد مرورها على المزار الخاص بطائفتها، فكَّرت بزيارة الكنيسة. دفعها فضولها لرؤية الاحتفالات بميلاد السيِّدة.. ووجدت نفسها ضائعة بين حشود الناس المجتمعين في الكنيسة. مع ذلك بقيت هناك حتى انفضَّ الاحتفال، وشعرت بخلو المكان، فنهضت لتغادر، حينها سمعت صوتًا من خلفها: «أنت غريبة يا بنتي؟». التفتت لترى رجلًا عجوزًا لا يبدو من رجال الكنيسة. قالت بهدوء: «نعم يا أبتِ». «ماذا تفعلين في تنورين؟». سألها، فوجدت نفسها تخبره أنَّها جاءت تتعلَّم أمور الطب العربي، والحكمة. ابتسم العجوز، ودعاها لمرافقته.

تحت شجرة تين ضخمة جلسا، وهما يشرفان على كروم العنب والزيتون. حدَّثها أنَّ أوَّل خطوة نحو الحكمة، صفاء القلب والذهن.. وأوَّل خطوة نحو العلم معرفة القراءة والكتابة. شعرت بورطة حقيقية، فقد أبدى العجوز استعدادًا لتعليمها ما يعرف إن هي صبرت على العيش المتقشف، فهو يأكل من البراري، ويشرب من النبع، ويكتفي من الخبز

بمـا تجود بـه الفلّاحات الطيبات حيـن يأتين إلى الكـروم. أبدت «لمار» موافقتهـا بعـد تفكير قصير، فما فقدته في حلمها الأوَّل، سـتعوضه بحلم جديـد! قال العجوز: «تأملي الشـجر مـن حولك، هل تسـتطيعين وصفه لي؟». وجدت «لمار» نفسـها في شَـرَك لا تعرف كيف تتخلَّص منه، فهي لا تـرى شـيئًا غير الأشـجار! قـال العجـوز: «أوَّل درس هو أن تكتشـفي جمـال الأشـياء حولك.. ثمَّ تـري الجمال في الآخـر.. لكن من الصعب أن تري الجمال وداخلك مليء بالقبح. عليكِ أن تتخلَّصي منه؛ لتصبحي جميلة.. عندها سـترين حقيقة الأشياء، فللشـجر ظلال! والظِّلال تخدع العين أحيانًا، ولها مقدرة على تحفيز المخيَّلة لخلق أشـياء غير موجودة، تأمليها جيدًا، هذه الأشـكال التي تخلِّفهـا أوراق التين مع ظلِّ الخراف.. انظري إلى ظلال الغيوم على الأرض، ألا ترين كيف تعبر خفيفة منسـابة وكأنَّها طيف مَن نحبُّ! حين تصلين إلى روح الأشياء، ستكتشفين ظلالًا خفيَّة تعكس روح السـماوات في الأشـياء من حولك.. عندما تستطيعين لمسـها، تكونيـن قد وصلـت مرحلة الكشـف، وسـيكون اللـه داخلك، عندها يمكنك أن تسـعي لتكونـي في قلب الله». علـى الرغم من الغصة التي تركها كلام العجوز في حلق «لمار»، والضيق الذي تسبب لها به، إلَّا أنَّهـا أصرَّت على مرافقته. لم تكن تأمل أن تتغيَّر، فقد كان هدفها واضحًا أمام عينيها!

انقضى الصيف سـريعًا، ومرَّ الخريف بطيئًـا، دافئًا، وحنونًا، ثمَّ هجم الشـتاء ببـرده وأمطـاره وثلوجـه. فكان أقسـى شـتاء رأته «لمـار»، وأكَّد

العجوز أنَّه لم يمرَّ بقرية تنورين شتاءٌ بهذه القسوة من قبل. كانت ترافقه إلى الجبال، يجمعان الحطب، ويعدَّان المدفأة، وترافقه إلى بيوت القرية لزيارة المرضى، وتشعل التنور لتخبز بنفسها. تحمَّلت كلَّ ذلك بصبرٍ أثار إعجاب العجوز. حتَّى هي أُصيبت بالدهشة من نفسها!

في أوائل الربيع قرَّرت العودة، لكنَّ العجوز مرض في تلك الأثناء فلازمته شهرًا كاملًا للعناية به. كانت تندب حظها المشؤوم الذي فرض عليها أن تقوم بخدمة الآخرين من دون مقابل! على الرغم من معرفتها الأكيدة لحجم الفائدة التي حصلت عليها من العجوز المبارك كما يسميه أهل تنورين. لكنَّ غيظها كان نابعًا أيضًا من يقينها أنَّها لن تستطيع أن تكون مباركة مثله، ولن تكون يدها ثابتة في شفاء المرضى.. قد تستفيد من المعلومات، ومن الأحرف التي تعلَّمتها في كتابة الأحجبة، وعدم اللجوء ثانية إلى الحيلة السخيفة التي مارستها سابقًا، حين كانت تمزِّق أوراقًا من دفاتر ابن أخيها، وتضعها داخل الحجاب على أنَّها سور من القرآن تكفي لمنع الحسد وإبعاد المرض! لكنَّ ما حصلت عليه في اعتقادها لا يوازي الجهد الذي بذلته في تحمُّل شقاء الحياة مع رجل يعيش على الصدقات، ولا يأكل إلا مما تُنبت الأرض، بعد أن اعتادت على العيش في البيت الكبير الذي لم ينقطع الخير عنه بمرض السيِّدة. صار الحليب واللبن والبيض والعسل والزيت والزيتون واللحم وكلُّ ما تشتهيه نفسها مجرد ذكريات. خلَّفت وراءها جسدًا نحيلًا، لكنَّه قوي، هذا ما لا تستطيع إنكاره!

توفي العجوز في أواخر شهر نيسان، وبعد أن دفنه أهل القرية، وحضرت العزاء، حملت كتبه القليلة في صندوق، بالإضافة إلى الكثير من الأعشاب - التي تعلَّمت استخدامها، وعرفت أماكن تواجدها - وبعض المتاع الخفيف والزاد البسيط. وضعت الأشياء على حمارها، وعادت إلى القرية.

حين وصلت، كان المساء قد حلَّ، والشمس غاصت وراء الجبل، وعتمة خفيفة صبغت المكان بسحر غريب. أوقفت حمارها تحت شجرة الخروب، وربطت الرسن في جذعها. وقبل أن تصل إلى البيت، لمحت الباب ينفتح، ويخرج منه رجالٌ لا تعرفهم.. لكنَّها ميَّزت بينهم السيِّد «منصور»!

سمعت بوضوح ما قاله، تحدَّث بشأن البيت! أين والدها إذن؟ أين «علي»؟ والأولاد!

لم تتسرَّع، بقيت مكانها حتَّى غادر الرجال. اقتربت من البيت، كان فارغًا، لا أثر للحياة فيه! لم تستشعر شرًّا، بل استطاعت أن تتصوَّر الأمر على حقيقته. لقد طرد السيِّد أهلها من المنزل بحجة ملكيته. هذا حقُّه، لن يستطيع أحدٌ أن يلومه أو يراجعه فيه. لكن لماذا انتظر كلَّ هذا الوقت؟ حين فكَّت رسن الحمار، وسارت، رأت رجالًا يحملون الفؤوس والمجارف، ويتوجهون صوب البيت أعلى التل!

لم يرفع «سليمان» رأسه ليرى مَن القادم عبر الدرب الضيق إلى البيت الذي استأجره في أطراف القرية، في أفقر أحيائها، قريبًا من مكبِّ

النفايات. كان يحكي لطفل صغير يجلس في حضنه حكاية عن ساحرة شريرة، كانت تخدع الناس بطيبتها، وتنتقم منهم بخطف أطفالهم، وأكلهم أحياء!

أوقفت «لمار» حمارها أمام الباب، نظرت إلى أبيها الجالس على مصطبة ترابية، تلاقت نظراتهما للحظات، تابع «سليمان» الحكاية، ودخلت هي البيت!

لم يسأل «سليمان»«لمار» عن غيابها، ولا أين كانت، ولا لماذا عادت.. فمنذ طلاقها الثاني، واستقلالها بالبيت الكبير اعتاد عدم التدخل في شؤونها، فقد امتلكت من القوة والحقد ما استطاعت به فرض وجودها ككيان مستقل عن الأسرة. كان «سليمان» يتحاشى النظر في عينيها تحديدًا؛ لأنه يرى فيهما نظرات أمه! وفي الوقت نفسه لم يكن في مزاج يسمح له بالتفكير بشأن سخيف من وجهة نظره بعد فشله الذريع أمام أهل القرية ومشايخها بسبب العار الذي لحق به بعد أن خذله أصدقاؤه الفرنسيون، الذين وضع آماله الكبيرة في حكم القرية على السلطة التي سيمنحونه إياها.

لكنَّ الفرنسيين رحلوا، ومات الحلم، وانتفت الحماية التي جعلت حفيد السيدة «أسما» يصمت عن احتلاله لبيت التل، والأرض المحيطة به. جاء اليوم الذي انتظره سنة كاملة منذ عودته من المهجر، اليوم الذي وقف فيه أمام باب «بيت الحسنة» ليطرد «سليمان» وعائلته، ويحقِّق حلمه في بناء قصر واسع، يطلُّ على القرية، ويعلو على أهلها!

***

دمشق - فرع المخابرات الجوية - حرستا، كانون الثاني 2013

ليلة الشبح الأولى

في الصباح وقف السجَّان أمام المهجع ينادي أسماء المعتقلين الذين سينزلون إلى القبو. كان «يونس» أولهم! ساقوه وهو يستند على «يوسف» و«جمال». صفعه السجَّان وهو يضحك: «اعتز بنفسك، قدَّامك وقت كبير لترتخي مثل الخرقة».

في الغرفة القذرة، أمروه: «اخلع ملابسك». أحد الجلادين قال: «انتظر، أنا مَن سيفعل بك وبأمِّك». خلع عنه ملابسه، لكزه بالعصا، وعصب عينيه، قيَّد يديه أمامه، ثمَّ رفعه عن الأرض، وقيَّده بأنبوب الماء في السقف، وأفلته! أصابع قدميه لا تصل إلى الأرض.. شعر بتمزُّق رهيب في عضلاته.. تخيَّل منظر الذبيحة يوم العيد في المسلخ.. لا شكَّ أنَّه مثلها الآن، لكن مع فارق أنَّها لا تحسُّ! كاد يفقد وعيه، والدماء تتجمَّع في كفيه المقيدتين، القيود تشدُّ على أعصاب يديه، تضغط عظامه، يسمع في لحظة غيبوبة صوت عظامه. تمرُّ شحنة الكهرباء من فتحة أنفه، يصعق رأسه، يرتجف بشدَّة.. يضعها الجلاد وراء أذنه، فوق ركبته، في فمه،

على لسـانه، أسفل قدميه، مرفقيه، خصيتيه... يغيب عن الوعي.. يصارع المـوت، يشـعر أنَّه يغرق فـي لجة عميقة، يحاول أن يصعد إلى السـطح، أن يتنفـس.. يريد أن يتنفس، يصحو على جسـده المبلَّـل بالماء! يحاول لمس الأرض بأصابع قدميه، فتندلع النار تحتهما.. يرفعهما بسرعة تجنبًا للسـخَّان الكهربائـي الذي لم يره، لكنَّه شمَّ رائحة الشـواء قبل أن يشـعر بالألـم! حاول أن يصرخ.. كان صوته قد اختفى تمامًا.. فقط عبَّر جسـده بتشنجات متتالية، جعلت الجلَّاد يضربه مجددًا بحزامه على ظهره وبطنه ورأسه.. حتَّى فقد وعيه ثانية!

حين أعادوه إلى الزنزانة لم يسـتطع الـكلام، وبقي يومًا وليلة يهذي، ويصـرخ من الألـم. في اليـوم الثالث، صحا قليـلًا، تناول وجبتـه من يدِ الأسـتاذ الذي لم يفارقه طيلة الوقت. قال: «سـأكمل لكَ الرواية». حاول الأستاذ الاعتراض: «يجب أن ترتاح». لكنَّ «يونس» لم يرد، بل تابع...

***

تل الجرب، تشرين الأوَّل 1947

ليس الحنين وحده ما دفعه لاعتلاء التل والنظر عن قرب إلى البقعة التي تحوَّلت إلى مكانٍ ساحر. وبالتأكيد ليس الفضول، بل شيء لم يدركه، كان يشدُّه بخيط غير مرئي، يسحب جسده بخفة، يضعه هناك على الدرب المشجَّر بالورد، والمرصوف ببلاط ناعم تحيط به العرائش، ونباتات الصبَّار، ويفضي إلى بوابة السور الضخمة! تقدَّم بخطى حثيثة صوب البوابة على الرغم من كلمات التحذير التي لاحقته بها أمُّه، والتي ما زالت تنقر رأسه مسببة له وشيشًا في أذنيه. توقف عند البوابة، لمس بأصابعه الحديد المطلي بدهان أخضر، والزخارف التي تعلوه، حدَّق بالكفِّ الحديدية التي انفتحت في وسطها عين لمنع الحسد. تنهَّد بعمق، شعر بأنفاسه تحرق صدره.. دار دورة كاملة حول السور، كان هناك في الخلف باب صغير لم يعرف مهمته، لكنَّه تخيَّل أنَّه للخدم، وربَّما لدخول الخيل! تنهَّد ثانية.. ليته يستطيع اعتلاء السور كما كان يفعل في البيت الكبير في حياة السيِّدة «أسما». تخيَّل وجهها وهي تصرخ: «هاتيه، لا تدعيه يهرب». لماذا لم يكن ابن تلك السيِّدة؟ أليس من العدل أن يكون الآن مالك هذا القصر؟ يطلُّ منه على القرية، يراقب من السطح

النجـوم والقمـر، يحلم بفتاة جميلـة و... توقف عن أحـلام يقظته، حين فُتحـت البوابة فجـأة، واندفع منها حصـان، مرق بجانبه كالسـهم. التقط أنفاسـه بصعوبة، كاد يقع أرضًا.. تماسـك، وحدَّق في أثرِ الحصان الذي لفَّ حول الشجرة الضخمة، وغاب أسفل التل!

اقترب من شجرة الخروب، لمس بأصابعه الخشب الدافئ لذكريات الطفولة اللاهية.. هنا كانت عمَّته تنصب أرجوحتها، وهنا كانت سهرات الضباط أصدقاء جده، وهنا كانت الحياة في أوج جمالها يومًا. لكن لماذا لم يقطعوا الشجرة، ويضموا مكانها داخل السور؟ انتبه إلى نظافة المزار، وجفاف حوض الماء.. إذن لقد ترك السيِّد قبر عمِّه خارج السور!

أطـاح الحضـور الصاخـب للحصان بـكلِّ أفـكاره، لكنَّه هـذه المرَّة عـاد متمهلًا، وعلى ظهره فارسـه يحاول أن يهدِّئ مـن جموحه.. اقترب الحصـان حتى صـار بمحاذاته، حينها نزلـت الصاعقة في قلبـه. لم يكن الفـارس الذي يمتطي الحصان سـوى الفتـاة الذهبية الشـعر التي لمحها منذ سـنوات تنزل من السيارة الفخمة، وتدخل بيت السيِّدة «أسما» بخفة فراشـة، وتنحني بطريقة مضحكة لتسـلِّم على عمَّته. «شـفق» هكذا قالوا اسـمها.. كانت عيناها تهطلان عسلًا يكاد لشـدَّة بريقه يشبه نبيذًا معتقًا.. لـم تكن عيناها عسـليتان بالشـكل المألوف لـدى الناس، بـل فيهما ظلٌّ أحمر، زاد حدته التاج الذهبي لشعرها المحيط بوجهها على شكل دائرة! لـم يرَ فـي حياته جمالًا بهـذا الصفاء، ولا فتنـة راقية هكذا. فـي اللاذقية حيـث قضى السـنوات الماضية من دراسـة الثانوية العامة، رأى سـيدات

كثيرات من دون غطاء رأس، وشعرهن لم يكن مجدولًا، ولم يكنَّ يعبأن بالضفائر، لكن لم يرَ تسريحة شعر بهذا الشكل! على الرغم من القبعة التي تعتمرها، بدت كثافة الشعر ونعومته عند الجبين، وأسفل الرقبة. رفع يده بالتحية، ونطق كلمات متعثرة.. اعتقد أنَّه قال لها، مساء الخير، أو شيئًا يشبه ذلك. فهو يعرف أنَّ «الأكابر» لا يحيون بتحية أهل القرى. لم ترد التحيَّة، بل نظرت ببرودٍ إليه، وغاب حصانها داخل البوَّابة! التقط حجرًا من الأرض، وحفر التاريخ في جذع الشجرة. أراد أن يفعل شيئًا آخر، كأن يكتب لها «أحبُّك» أو «للذكرى» ويوقِّع بحروف اسمه الثلاثة، لكنَّه لم يفعل. خشي أن يرى ذلك أحدٌ غيرها، وتقع كارثة تقضي عليه! نزل الدرب وهو مشوش الذهن وقلبه ينتفض بين ضلوعه. عرف لماذا اندفع لزيارة التل.. لا شكَّ أنَّ قدره سحبه إلى هناك ليراها! لا شكَّ أنَّ الدنيا ستضحك له أخيرًا. ولِـمَ لا؟ لقد حاز على شهادة الثانوية العامة، لا أحد في القرية غير صديقه «مغيث» حاز عليها.. كان يحلم بدراسة الطب.. يحلم أن يصبح مشهورًا في المنطقة كلِّها ليرفع رأس عائلته عاليًا، وينتقم لسنوات الفقر والذل. الآن جاءت الفرصة. لقد حصل على الثانوية، وسيدخل كلية الطب، وسيخطب «شفق».. توقف قلبه لثوانٍ حين نطق اسمها مجردًا من لقبها، حين همس به بصوت مسموع، قلَّب حروفه بين شفتيه، وشعر أنَّ لحن الاسم الغريب الذي تزامن نطقه مع لون الغياب الدامي، قد كست جسده رعشة محمومة، وقلبه سرعة في النبض.

وحدها عمَّته انتبهت إلى لون وجهه الشاحب وعينيه الزائغتين. راقبته

من بعيد، ولم تعلِّق على الأمر بكلمة. حين انتصف الليل، سمعت صوته يتحدَّث إلى شخصٍ ما، نهضت من فراشها، اقتربت منه، كان نائمًا، لكنَّه يهذي! وضعت يدها على جبينه، لم يكن حارًّا.. أرادت إيقاظه، لكنَّ يدها تجمَّدت حين سمعته ينطق باسمها. شيء ما صفعها بقسوة. أيُعقل هذا؟ يحبُّ «شفق»؟ لماذا هي من بين كلِّ البنات اللواتي يعرفهن؟ وخزها الاسم في قلبها، وشمَّت رائحة حريق قريب. رؤيا مشؤومة تخايلت أمام عينيها. صرَّت على أسنانها: «لن يكون هذا أبدًا وأنا حية». عادت إلى فراشها ثانية، لم يغمض لها جفن حتَّى الصباح.

نهض في الصباح مهمومًا، لم يتناول فطوره، خرج لا يلوي على شيء، حين عاد في المساء، كان وجهه أشدَّ شحوبًا من ليلة الأمس، تأملته «لمار» بنظرات أفهمته أنَّها تعرف كلَّ شيء. أدارت له ظهرها، ودخلت غرفتها الخاصة، أسدلت الستارة على نافذتها الوحيدة، وجلست وسط العتمة، كانت تعرف أنَّه سيأتيها. وسيجلس أمامها بارتباك كما كان يفعل عندما كان صغيرًا، وهذا ما حدث. دخل الغرفة، وجلس عند العتبة، وكأنَّه على وشك أن يهرب من مواجهتها. تمتم بكلمات غير مفهومة، وانتظر ما ستقوله. لم تنهض من مكانها وتحتضنه كما كانت تفعل، لم تمسح رأسه، ولم تقبِّل جبينه. قالت بصوتها المخرَّش العميق: «وبعد؟». قال كأنَّه لا يعرف سبب مجيئه إليها: «ماذا؟». قالت: «ماذا بعد حبِّك لشفق؟ ماذا تنوي أن تفعل؟». قال باندفاع:«سأذهب لخطبتها». ردَّت بقسوة: «لا، لن تفعل». تداعى جسده، وأحسَّ بقواه تخور، ورأسه

يلف.. كان يريد أن يفهم، أن يسـألها لماذا؟ مـا المانع؟ لكنَّه قال: «لماذا تكرهينهـا؟». قالت بثبات وبصوت لا يشـوبه أيُّ انفعـال، ولا يحمل أيَّ عاطفة: «لي أسبابي، ربَّما لا تعرفها، وربَّما تتجاهلها، لكنِّي على استعداد للتخلـي عن موقفي، إن كانت هي تحبُّك». نطق بصعوبة: «هي؟». قالت بلهجة سـاخرة: «ولا تعرف أيضًا إن كانت تحبُّك أم لا؟ سـتخطبها لأنَّك تحبُّهـا من طرف واحد؟ كيف سـتضمن موافقة أهلهـا إذن؟». قال: «لقد حصلت على الثانوية العامة، وسـأدرس الطب في الجامعة اليسـوعية في لبنان، سـأصبح طبيبًا، وسأكون ندًّا لها.. سيكون معي من المال ما يكفي لتحقيـق رغباتهـا». ارتفعـت حدَّة السـخرية فـي لهجتهـا: «كلُّ رغباتها! كم أنت سـاذج يا بن أخـي! وكأنَّك لا تعرف كم يملـك والدها؟ وكأنَّك لا تفهـم أنَّ دراسـتك للطـب لن تعني لهم شـيئًا. ورقتك الرابحة ليسـت دراسـة الطب، بـل قلبها.. إن كانت تحبُّك، سـتفرض رأيهـا على أهلها، وسـتكون الرابـح فـي المعادلـة الصعبـة». قلب «شـفق» إذن هـو الورقة الرابحة! عليه أن يحصل عليه مهما كانت الوسيلة.

هـذه المرَّة وهو يصعد التـل، لم يكن يملك السـيطرة على قلبه، ولم يفكِّـر بالحنيـن القاتل للمكان الـذي وُلد فيه، فالتبـدُّلات الحاصلة هناك لـم تترك له من أمسـه سـوى ظلِّ شـجرة الخـروب الممتد على مسـاحة القلـب. قلبه الذي لا يتوقف عن الخفقان بقوة لمجرد رؤية السـور. ترى متى سـتخرج من هنـاك؟ هل سـيندفع حصانها من البوَّابة كمـا في المرة الماضية؟ هل ستنظر إليه من فوق صهوته ببرود، وتمضي؟ هل ستتوقف

للحظات فترى شحوب وجهه، ورعشة يده، و.. مدَّ يده، وقطف وردة جورية بيضاء، تسلَّل رأسها خارج سياج الصبَّار المحيط بالدرب المفضي إلى البوَّابة. انتظر هناك ساعات تحت الشمس، لكنَّ البوَّابة بقيت مغلقة على صمتها!

مشى صوب الشجرة، استلقى في ظلِّها ساعات لا يعرف عددها.. كانت أزهار الخروب تتساقط، والريح تلاعبها. تسقط فوق رأسه، يلتقطها بأصابعه، ويجمعها بين كفيه، ويشمُّها بعمق. اشتهى في تلك اللحظات رائحة «الخبيصة» الساخنة، أعادت الرائحة له أماسي الطفولة، عندما كانت أمُّه تجمع القرون الغضة لثمار الشجرة، وتغليها مع الحليب، وتطعمه إياها. كان طبق الحلوى المفضل لديه.. ربَّما لأنَّه الوحيد المتاح في ذلك الزمن، وربَّما لأنَّ الذاكرة تختزن من الطفولة الأشياء الجميلة فقط، وتتجاهل عن عمد كلَّ ما من شأنه أن يؤلم صاحبها. لكنَّه ليس من هؤلاء الذين يرون جمال الطفولة، بل ذاكرته تختزن كلَّ التفاصيل المؤلمة والمحرجة. الحادثة الأكثر حضورًا في ذاكرته، مضى عليها عشر سنوات، لكنَّه يتذكرها كأنَّها حصلت البارحة. كانا في طريقهما إلى الطاحون، هو و«هيثم».. أعطاهما والدهما مقدار خمسة مكاييل من القمح، وأوصاهما بالانتباه والحذر. كانا يرتجفان من البرد وأقدامهما تغوصان في الطين، حين لمحا بائع الحلاوة المتجوِّل.. «هيثم» رجاه قائلًا: «الله يخليك لا تقل لأبي، فقط قطعة صغيرة، لن يشعر والدنا، من زمان أشتهي أن آكل قطعة». ردَّ بجفاء: «لا علاقة لي، إن عرف والدك

سيضربك، وأنا لن أخفي عنه شيئًا». نظر في عينيه متوسلًا، لكنَّه لم يتراجع عن موقفه، مع هذا تقدَّم «هيثم» من بائع الحلاوة، وبادله على قطعة الحلاوة بمكيال قمح! أكلها بنهم، وتابعا الطريق إلى الطاحون. لم يتصوَّر يومها أن يكتشف والده ما فعلاه. لكنَّ «علي» ارتاب في الأمر وهو ينظر إلى الطحين.. كاله، فعرف أنَّه ناقص، صرخ بأعلى صوته: «مَن منكما فعل ذلك؟». «هيثم» لزم الصمت وفرائصه ترتعد.. قال «صخر» ببرود: «هيثم بادل مكيال قمح على قطعة حلاوة». لم يعرف بعد تلك الكلمات ما الذي جرى لوالده؟ أيُّ شيطان ركبه حين ركض إلى عصا الفأس، وراح يضرب بها أخاه! صرخات «هيثم» ما زالت تصل سمعه حيَّة وحارَّة.. لهاثه وهو يستنجد به ليحميه، صراخ والده، ثمَّ الجسد الهامد أمامه الغارق بدمه! لم يكره والده على الرغم من بشاعة الحادث.. لكنَّ عينيه تحجَّرتا منذ ذلك اليوم، ونشف الدمع فيهما!

لم ينسَ أبدًا الدافع الحقيقي لتحصيله العلمي، ربَّما عليه أن يشكر أيضًا تلك الظروف القاسية التي خلقت منه رجلًا استثنائيًّا! أعجبته العبارة، تبسَّم لنفسه.. استثنائي! نعم، ولن تجد «شفق» أفضل منه في الناحية كلِّها.

انتبه من إغفاءته القصيرة على صوت البوَّابة تُغلق بقوة. نهض مذعورًا، نفض ملابسه من التراب، نظر إلى كومة أزهار الخروب التي ذرتها الريح، وإلى الوردة البيضاء التي داستها حوافر الحصان فغاصت في التراب.. نفخ بغيظ: «هل مرَّت من هنا وهو نائم؟ اللعنة». اقترب من

السور، نظر إلى الأعلى، لمح طيفًا يمشي على السطح، لا شكَّ أنَّها هي، قلبه ينبض بسرعة، هي.. اقترب الطيف من سور السطح، كانت سيِّدة في الخمسين تنظر إليه باستغراب. ارتبك، واستدار ليهبط الدرب بسرعة! الخوف يدفع خطواته، والقلق جعله يخاف من النظر إلى الخلف. حين صار أسفل الطريق، تساءل عن السبب الذي جعله يخاف هكذا؟ ما المشكلة إن رأته السيِّدة أمام البوَّابة؟

هدأت دقات قلبه حين وصل إلى البيت. كان الجميع يتحلَّقون حول مائدة الطعام. ناداه «سليمان»: «منذ متى لم تأكل معنا يا صخر؟». أراد أن يعتذر من جده، ويجلس بعيدًا، لكنَّ عمَّته نظرت في عمق عينيه محذِّرة. جلس من دون رغبة، تناول لقيمات، وادَّعى أنَّه شبعان، وأنَّه أكل عند «مغيث». مضغ والده اللقمة بصعوبة، وقال: «ولماذا تأكل عند مغيث، ألم أقل لك إن صحبته لا تعجبني». حدَّقت «لمار» في وجه «علي»، وقالت بنبرة لوم: «لم يعد صغيرًا، هو يعرف كيف يتصرَّف بشؤونه الخاصة». ارتاح لقول عمَّته الذي أنقذه من شجار محتمل مع والده بسبب صداقاته ذات الطابع السياسي، والتي لم تكن تلقى قبولًا لدى والده منذ كانا في اللاذقية. حذره مرارًا بأنَّ ذلك سيؤثر على مستقبله ودراسته، ووبَّخه لانضمامه إلى حزب سرِّي، اعتقد أنَّ «مغيث» كان وراء ذلك. وتمنَّى أن يبعده قبوله بالجامعة عن جوِّ الحزب ورفاقه. لكنَّ أمنياته كلَّها ذهبت أدراج الرياح. اليوم بالضبط عرف أنَّ الجامعة اليسوعية رفضت قبول ابنه في صفوفها لسببين. لن يستطيع دفع مصاريف الجامعة، وإن استطاع، لن

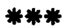
تقبل الجامعة به بسبب أصله الوضيع! لكن العائلة كلّها اتفقت على عدم إخباره في الوقت الحالي بالنبأ السيء، بانتظار فرصة ثانية، يستطيعون التمهيد فيها لقبوله بالخبر إن فشلت.

لم يعرف «سليمان» أنَّ زمنه انقضى، حتَّى وصله ردُّ الباشا «سليم»، الذي زاره يومًا في بيروت برفقة صديقه الضابط الفرنسي، والذي وعده يومها بتحقيق أيِّ طلب يريده لأجل عيني صديقه. جاءه الردُّ بالاعتذار عن الوساطة، فلم يعد لسليم باشا ذلك النفوذ الذي يؤهله للضغط على إدارة الجامعة لقبول حفيده «صخر» فيها! ومع أنَّ «سليمان» كان على ثقة أنَّ ذلك غير صحيح، بل انتفاء المصلحة بينهما، والوضع الذي آل إليه «سليمان»، هما سبب الرفض، إلَّا أنَّه شاء أن يصدق ذلك ظاهريًّا، ويكرِّره على مسامع الجميع.

«لمار» وحدها حملت على عاتقها مسؤولية نقل الخبر التعيس لابن أخيها، أومأت إليه ليتبعها، ودخلت غرفتها. جلست كعادتها وسط العتمة، أشعلت بخورًا، وأمرته بإغلاق الباب خلفه. كما في المرَّة السابقة سألته باختصار: «ماذا تنوي أن تفعل؟». لم يعرف بماذا يرد، شعوره بالضياع والإحباط منع ذهنه من التفكير السليم. انتظر أن تقول عمته شيئًا آخر. سألته: «أسألك عن مستقبلك، هل تنتظر من الآخرين أن يقرِّروا عنك؟». قال بارتباك: «لن أتخلى عنها، أنت تعلمين، أنا أحبُّها». قالت بجفاء: «أعرف، لكن ماذا عنها؟». لم يجد بدًّا من الكذب، لن تعرف عمته ذلك، لم تكن معه هناك عند التل، أجاب بثقة أكسبه إياها

اعتقـاده ببراءة كذبته، وملامسـتها الحقيقة.. «وهي أيضًا». قالت بشـكٍّ: «هـي مـاذا؟». لـم يفكر طويـلًا، هذه المرة ملأه اليقيـن بحقيقة ما يجري، إنَّها تحبُّـه. نطق بتلك الكلمات بثقة فاجأت عمتـه، وجعلتها تتنهَّد بقوة، وتقول: «مع هذا هناك أمر لا بد سـيغيِّر كلَّ شـيء، لقد رفضوا قبولك في كلية الطب». قال بصوتٍ يائسٍ: «أعرف، أعلم ذلك منذ أسـبوع». سـألته بنبرة انتصار تشـي بتشـفيها من نتائج معرفته تلك: «وسـتخطبها وأنت لا تعـرف من أين سـتجلب لها الطعـام؟». طعنته في الصميـم. لماذا تذكِّره بفقـره وحاجته وهي واحدة من هذه العائلة الموسـومة بعار الحاجة. قال كأنَّمـا فقط لينتقم منها: «ولماذا أفكِّر بطريقة الحصول على الطعام وأنتِ موجـودة؟ أهل القرية يقولون إن لديكِ أمـوالًا طائلة، لكنَّك تخفينها في مكانٍ ما.. ويقولون إنَّها أموال السـيِّدة أسـما التي سـرقتيها أثناء خدمتك لها». شـدَّت قبضتها بقوة لتمنع نفسـها من صفعه. لو يعلم هذا الجرذ أنَّه السـبب في صبرها تلك السنوات على خدمة السيِّدة، لما نقل ما يتقوَّل به النـاس عليهـا.. لكنَّه الأثير لديها من بين إخوته، سـعت ليسـتطيع العيش فـي المدينة، ويكمل دراسـته، وها هـو يرد الدين لها بـكلِّ فظاظة. قالت بنبـرة جاهـدت لتخرج ثابتـة: «نعم سـرقت أموال السـيِّدة، تلك الأموال صرفتهـا عليك وعلى عائلتك في أثناء دراسـتك فـي اللاذقية. ألا تعرف من أين كنتم تحصلون على ثمن الطعام؟». أراد الاعتذار منها، نهض من مكانـه، قبَّل يديها: «سـامحيني عمتي، وحق الـرب لم أكن أقصد، أعرف أنَّك لم تسـرقي شـيئًا، وإلا ما كنا نسـكن الآن في هذا الجحر». سيطرت «لمـار» علـى انفعالها، لم تكن تحبُّ أن يراها أحدٌ ضعيفة، حتَّى ولو كان

ابـن أخيهـا المفضل. سـاعدتها العتمة على إخفاء دموعهـا التي غافلتها، وتدحرجت على خديها. لمسـت تلك الدموع بأصابعهـا، وكأنَّها تلمس شـيئًا سـحريًّا.. فمنذ دهر لـم تعرف البكاء، ولم تشـعر شـفتاها بملوحة الدمع! قالت متناسية الحديث كلَّه: «حسنًا يا صخر.. إن كنت مصرًّا على الزواج منها، عليك أن تسـعى لتكون ندًّا لها». قال بلهفة العاجز: «كيف؟ كنت أعتقد أنَّ دراسة الطب ستجعلني أوازيها في المكانة، والمال.. لكن ماذا أفعل الآن وأحلامي نسفت كلها؟». قالت: «ليس المال ما سيجعلك ندًّا لها، بل القوة، والسلطة». سأل بقلق: «القوة! السلطة! كيف؟». قالت ساخرة: «حفيـد سـليمان لا يعرف كيـف! القـوة تأتي من السـلطة، قوة السـلطة تتفـوق على قـوة المال لأنها قـادرة على جعلك غنيًّـا. عليك أن تختار ما يمنحك القوة، الجيش سـيمنحك ذلك. سيكون المشوار طويلًا بعض الشـيء، لكن عليك أن تصبر، وتسـعى، وسـتجد نفسك يومًا أهلًا للزواج منها».



حمص، 1952

في الكلية العسكرية استعاد توازنه، لم يشعر هنا بأيِّ فرق بينه وبين زملائه.. حتى تلك الغصة التي كانت تعلق في حلقه أحيانًا من صحبة «مغيث» تلاشت. هنا الجميع ينامون في وقت واحد، يستيقظون في وقت واحد، يأكلون الطعام نفسه، من القصعة المستنسخة ذاتها. الفراش نفسه، الأغطية كذلك.. واللباس موحد! لا أحد هنا يمكنه أن يسخر من ثوبه القصير، وقدميه الحافيتين، ولا من عدم ارتدائه لباسًا داخليًّا. كلُّ شيءٍ هنا خاضع للنظام، والمساواة.. بدأ طيف القرية البائس يبتعد، لكنَّ حضور القصر في مخيلته كان قويًّا إلى درجة طغيانه على اليومي من حياته العسكرية، وفي الوقت نفسه كان يخفف من إحساسه بالغربة والبعد. ويعطيه الأمل لتجاوز قسوة الحياة التي يعيشها. لم يفارقه وجه «شفق» في سنوات دراسته الثلاث، كانت تزوره في الحلم، تقول له إنَّها ما زالت على عهد الوفاء، تنتظر عودته! الحلم تحوَّل إلى يقين بقرب ارتباطه بها، حدَّ أنَّه باح لصديقه «مغيث» بقصته طالبًا منه ألا يخبر أحدًا. «مغيث» ابتلع شكَّه مع الحكاية، ولم يخبر أحدًا. ليس لأنَّ «صخر» طلب منه ألا يبوح بالسر، بل لأنَّه لم يصدِّق الحكاية أصلًا، واعتقد يقينًا بكذب صديقه. لم يكن يتصوَّر أن تنظر «شفق» لشاب فقير وغير معروف الأصل

مثله وأمامها خيارات واسعة من أبناء العائلات الكبيرة، والأغنياء، وأقارب أمِّهـا الأجنبيـة! كان ينظر إلى رفيقه علـى الرغم من صداقتهمـا العميقة، وانتمائهمـا إلى حزب واحد ومعتقـد واحد، نظرة ابن العائلة لابن خادم! وهـو الأمـر الوحيد الذي لم يعتقـد «صخر» أنَّ بإمـكان «مغيث» التفكير فيه. «مغيث» بالمقابل وكي لا يترك في نفس صديقه حرجًا أخبره أنَّه على علاقـة بصبية من أسـرة كبيرة، لكنَّه لا يفكِّر الآن بالزواج منها. اسـتغرب «صخـر»، وسـأله: «لماذا، مـا دامت تحبُّـك؟». «مغيث» أخبـر «صخر» بـلا مبالاة واضحة، أنَّ الزواج أمر آخر غير الحبِّ! تلك الفكرة شوَّشـت ذهـن «صخـر»، وفكَّر قليـلًا: «هل يُعقـل أن تكون علاقته بشـفق هكذا؟ لا بدَّ أن مغيث مجنون حتَّى يفرِّط بفتاة يحبُّها وتحبُّه». «مغيث» عقَّب على اسـتغراب صديقه: «حتى الأخلاق نسبية يا صديقي، إن كنت ترى الأمر مـن هذه الزاوية. كل شـيء في الوجود خاضع لظروفـه وبيئته، وإن كنت تراني غبيًّا لأني سـأترك فتاة أحبُّها، فاسـمح لي أن أقـول لك، إنَّ نظرتك قاصرة، لـم تنضجك التجارب بعد!». لم يشـأ «صخر» أن يناقش صديقه. انتبه لحظتها إلى أنَّ «مغيث» لم يكن فعلًا ابن البيئة نفسـها التي نشـأ فيها «صخـر». كلاهما مـن قرية واحدة. لكـنَّ أبا «مغيـث» حقوقي معروف، درس فـي فرنسـا، وناضل ضدَّ الاسـتعمار، ووصل للنيابة، ورُشِّـح يومًا للبرلمـان! كيـف يقارنـه بأبيه الذي لا يفـك الخط، ولا يعـرف من الدنيا سوى السعي وراء لقمة الخبز ليطعم جيشًا من الأولاد والنساء! لا يمكنه أيضًا أن يقارنه بجده «سليمان» الذي حالف المحتلين وكان يطمع بدولة منفصلة يكون هو مَن يحكمها بقوة أصدقائه المسـتعمرين، وبقوة هؤلاء

المثقفيـن الذي شـكَّلوا رابطة، وقَّعت وثيقة انفصال السـاحل عن جسـد سوريا، وإقامة دولة خاصة بطائفتهم[1].

نهـض في الصبـاح الباكر علـى نفير يسـتدعي طلاب الكليـة الجوية للاجتمـاع. لم يكن الجميع متواجدين في القاعة، بـدا الأمر وكأنَّ خطرًا محدقًا يسـتدعي سـرية الاجتماع واقتصـاره على عدد محـدود. تهامس الجميـع بصـوت منخفـض عن السـبب، البعض خشـي أن يكـون الأمر متعلقًـا بانقـلاب جديد، وتبـدلات في القيـادة.. لكنَّ القائـد دخل غرفة الاجتماع مبتسمًا بشـكل يشـي بأنَّ الأمر سـارٌّ. أخذ التحيـة وقلبه يخفق بشـدَّة، التوجس طبعٌ لازمه منذ اليوم الأوَّل له في الكلية وحتى اللحظة. كان حريصًـا على عدم اقتراف أيِّ خطأ يتسـبب له بعقوبة، كحرصه على

(1) الشاعر «بدوي الجبل» أحد الموقعين على الوثيقة التي تقول: «ردًّا على ما شاع حول المفاوضات بين الوفد السوري والفرنسيين في باريس 1936، من موافقة فرنسا على إلحاق دولة العلويين بالجمهورية السورية. يرفض الموقعون على هذه البرقية، معللين رفضهم بأنه ليس هناك ما يجمعنا. فطرق التربية في المنزل والمدرسة والعادات القومية والأهداف الاجتماعية مختلفة بيننا وبين السنَّة كل الاختلاف. ورغم أنه تجمعنا معًا حضارة القرن العشرين وأن الإدارة في سورية إدارة فرنسية إلا أن تناقضنا الديني والعقائدي متغلغل في كل مجالات الحياة الاجتماعية. لن يضيف ضمنا إلى سورية ثقلًا لوزنها أو نفوذها خاصة إذا تم هذا الضم رغم أنوفنا. كل ما في الأمر أنها تطمع إلى تنمية مواردها التجارية والصناعية والاقتصادية والسياسية على حسابنا». (من كتاب إياد العبد الله: رحلة العلويين من سوريا ورحلتهم إليها).

سرية نشاطه السياسـي. بعد خطبة قصيرة خصَّ القائد فيها طلاب الدفعة المتواجدين، أخبرهم أنهم سيدخلون بطولة الألعاب الجوية!

لـم تكن تجربته الأولى فـي الطيران، مع هذا أحسَّ بالرهبة وهو يغلق قمـرة القيـادة، ويرتفـع بالطائرة نحـو السـماء. الآن عليه تنفيـذ حركات بهلوانية بالطائرة.. سـيقلب رأسـه نحو الأسـفل، انقبض قلبـه، لن يكون ذلـك فألًا جيدًا، فقد اعتاد النظر إليها من فـوق، يراها دائمًا تحت قدميه، وهـو يعلـو، ويهبط، ويسـتدير، ويحلِّق.. وتبقى تحتـه، ويبقى فوقها! في تلـك اللحظـات يتجلَّـى الحلـم كحقيقة أمـام عينيـه، تبدو فيـه العاصمة ملك يديه، سـوريا كلها بين راحتيه، مخضبة بالحناء، ولون عيني «شفق» سـاعة المغيـب! حـرص على سريَّة الحلـم، كحرصه علـى تحويله إلى حقيقـة، لم يخبر أحـدًا بالرؤيا حتى «لمار»، كان يخشـى أن تفسِّـر رؤياه بشـكل مختلف عن طموحه. سـيملك كل هذا يومًا ما، لا يستطيع الجزم متى، لكن سـيملكه. كاد يلمس ذلك بقدميه حين لامسـت الطائرة أرض المـدرج.. لا يـدري كيف ارتبطت لحظة الملامسـة تلـك بتحقُّق الرؤيا، حتـى كاد شـعوره بالتفوق في الألعـاب، يتحوَّل إلى شـعور بالنصر على الدُّنيـا بأكملهـا، وليس علـى زملائه فقـط! لقد أصبح بطلًا فـي الألعاب الجوية.. صار هناك ما يميزه عن زملاء دفعته، شيء أقوى من ملابس، أو طعام أو غطاء. كم كانت «لمار» محقة في دفعه إلى امتلاك القوة!

***

ليلة الشبح الثانية

في الليلة الثانية لم يطل غياب «يونس» سوى عدَّة ساعات. أخذوه إلى التحقيق، المحقق تأمله طويلًا، دار حوله، وكأنه يعاين بضاعة سيشتريها.. ثم أمر بربطه إلى فتحة الباب. سحبه الجلَّاد، أدخل يديه في الفتحة وشدَّهما حتى التصق جسده بالباب، قيَّده، وتركه هناك عدَّة ساعات من دون حراك! لكنَّ المحقق لم يحرمه الأنس خلال تلك الساعات، أمر بإحضار مسجل وضعه قرب رأسه، وشغَّله، وانطلقت منه أصوات بكاء وعويل وصراخ معتقلين تحت التعذيب، سياط الجلاد تلهب أجسادهم، وأصوات استغاثاتهم تثقب أذنيه! مطرقة حديدية هوت على رأسه، فجَّرت أذنيه، ارتفع ضغطه، صارت الأصوات وشيشًا، وخارت قواه. لم يفارقه طيف والده في تلك الساعات العصيبة، كأنه أصبح هو! فقد بدأ يعيش دورة الحياة كما عاشها...

كانت أمُّه تتقدَّم نحوه بملابس الصلاة، ابتسمت بحنان، ومسحت جبينه برقة..

حينها توقف كل شيء. همدت الحركة حوله، وتلاشت الأصوات، وأحسَّ بيدي الجلَّاد تفكَّان قيده، وتسحبانه في الممر الطويل..

***

تل الجرب، 1955

ها هو يصعد التل من جديد، لكن هذه المرَّة بشـعور مختلف تمامًا.. يزهـو ببزَّتـه العسـكرية، والنجوم اللامعة على كتفيه. لم يشـأ أن يسـتمع إلـى عمتـه «لمار» التي اشـترت له بـزة جديدة ليرتديهـا خصيصًا في هذا اليوم الاستثنائي. لأنه اعتقد أن قوته التي يحتاجها اليوم مستمدة من تلك النجوم اللامعة فوق كتفيه، ومن بزته العسكرية. وأنه لن يجلس في حضرة أبيها كتلميذ مذنب، سـيضع سـاقًا فوق ساق، سيناقشـه في مستقبل البلد والمتغيرات الحاصلة والتي سـتطيح بكلِّ المفاهيم العفنة التي بنى أمثاله أمجادهم عليها! بثبات وثقة، قرع الباب الكبير. فتح خادم نظيف، يرتدي ملابـس غريبة، الباب. طلـب منه الانتظار ليخبر السـيِّد. ضايقه الأمر مع علمه المسبق أنَّ ذلك غير موجه ضده بشكل شخصي، بل هو السائد مع كلِّ الناس. وخزه شيء في أعماقه «لكنَّني غير الناس جميعًا!». عاد الخادم بعد انتظارٍ خاله استمرَّ دهرًا، ليقوده إلى غرفة ضيوف واسعة، وطلب منه الجلوس، وانتظار السيد. وضع ساقًا فوق الأخرى، وراح يتأمل الحديقة مـن وراء النوافذ الواسـعة، وينقل بصـره بين التماثيل والثريات، وأشـياء لم يدرك ضرورتها في الحياة! لماذا يحتاج الإنسـان لكلِّ هذه الأشـياء؟ ألا تكفيـه غرفة للنوم وأخرى للجلوس، وبيتٌ للخلاء؟ غرق في تأملاته

حـدَّ عدم انتباهه لحضور السـيد، الذي رحَّب به باختصـار: «أهلًا». ولم يتقدَّم لمصافحته! وامتلك هو الجرأة لمبادلته التحية بمثلها. جلسـا معًا، سـأله: «خير، طلبـت رؤيتي». ارتبك قليلًا: «اسـمي صخر». ردَّ السـيد: «نعـم، أهلًا بك، عرفت ذلك، أخبرني الخـادم، قال إنَّك صخر بن علي، كانـت الجدة تحبُّـك، وتعتني بك». بداية سيئة! أصابه التذكير بإحسـان السـيدة في مقتل، لكنَّه ابتلع الإهانة المواربة، والغصة معها، وقال: «كان ذلك في طفولتي، أنا الآن ملازم طيار، وسـيكون لي شـأن في المستقبل، لا شكَّ سـمعت عـن حزبنـا، وعـن التبـدلات الحاصلـة بعـد اغتيـال العقيد...». لم ينتبه في غمرة حماسـه لأفكاره والمكانة التي وصل إليها، أنه قد جاء ليخطب «شـفق»، لا ليُلقي محاضـرة في اجتماع حزبي، حتى قاطعه السيد قائلًا: «نعم، تلك الأمور لا تهمني من قريب أو بعيد، لا أظنُّ أني سأنتسـب إلى أيِّ حزب يقوده الغوغاء.. بمَ أسـتطيع أن أخدمك؟». كبـح جمـاح انفعاله، وابتلع غصـة أخرى، إذن كلُّ هـذه المناورة لم تأتِ أكلها! رطَّب حلقه الجاف بجرعة ماء، وقال محاولًا أن تكون لهجته ثابتة وواثقـة: «جئت بطلب خاص.. أرجو أن توافق على زواجي من كريمتك شـفق». نهض السـيد كالملسـوع، حـدَّق فيه باسـتغراب، تمتـم: «أنت؟ تطلـب ابنتـي أنا؟ ما هذه الجرأة؟». قال باندفـاع: «نعم أنا، وأيُّ جرأة في طلـب الزواج من ابنتك، أليسـت مثل باقـي البنات؟». ردَّ السـيد الإهانة ببـرود: «هـي مثل البنات اللواتـي من طبقتها، وحين أفكِّـر بتزويجها، لن أعطيها لصعلوكٍ مثلك، يبدو أنَّ الخبز الذي أطعمتك إياه السـيِّدة أسـما، أطار صوابك». قال وقد صعد الدم إلى رأسه: «ستندم لو زوجتها لغيري، أنـا أحبُّها، وهي...». قبل أن يُكمل عبارته، لمحها واقفة بالباب كشـمس

المساء، نظرت إليه باستعلاء، وقالت: «وأنا لست موافقة». التفت والدها إليها، وأمرها بالدخول.. استدار صوبه وأشار بيده: «غادر بيتي حالًا، لا تدعني أتصرَّف معك بطريقة غير لائقة، ولا تريني وجهك بعد اليوم، لم يكن ينقص سوى أن أزوج ابنتي لابن خادم».

***

كانت «لمار» تشعر بارتباك يطغى عليه فضول ممزوج بالحذر من دعوة السيدة «جنَّات» لزيارتها! مشاعرها المتشابكة جعلت خطواتها تتعثر على الدرب أكثر من مرَّة، وتعيد ترتيب شالها السميك المزهَّر على كتفيها، وتسوي غطاء رأسها. توقفت قبل الوصول إلى حارة «السعد» عند بائع السمك، جادلته في سعر السمك الطازج، ثمَّ تركته، ومضت! دخلت دكان نعيم العجوز، اشترت بعض حبَّات المسكة، وضعتها في جيب ثوبها، وخرجت. حاولت ترتيب أفكارها وهي واقفة على عتبة الدكان، تخيَّلت أنَّ الأمر يتعلَّق بمرض لا تريد السيِّدة «جنَّات» أن يعرفه أحد، فقصدتها لأجله.. لكنَّ السيِّدة «جنَّات» تكرهها، فكيف تأتمنها على سر مرضها! هزَّت كتفيها، وقالت بصوت مسموع: «يا خبر بفلوس...»

دخلت بقدمها اليمنى، وقرأت دعاءً لإبعاد الشر والحسد، استنجدت بـ «مجيب»[1]، والرب «سليمان»، وسائر الأولياء لدعمها قبل أن تعبر

(1) ابن الرب سليمان المرشد، المؤسس الحقيقي للمرشدية بعد إعدام والده. قام بطرح المرشدية كدين جديد متمايز إلى حد كبير عن الطائفة العلوية. طرح «مجيب» صلاة جديدة، وأطرًا فكرية مختلفة نسبيًا عن العلوية، ووضع نظامًا صارمًا، وكوَّن مذهبًا جديدًا شديد التماسك، واتَّخذ اسمه قيمة قدسية لدى أتباعه وسُمِّي بالمجيب الأكبر، ويرد اسمه في كثير من=

البوَّابة. توقف الأولاد عن اللعب حين رأوها، وصاح أصغرهم لأمِّه.

استقبلتها «جنَّات» بوجه بشوش وترحيب حار، لكنَّها لم تفقد تحفظها. أدخلتها إلى غرفة واسعة كان من الواضح أنَّها غرفة مخصصة للضيوف، عُلِّقت على جدرانها أسلحة منوعة، وصُفَّت الفرش السميكة ووسائد مغطاة بالبسط الملونة، وجلود الخراف والماعز وحيوانات أخرى لم تستطع معرفتها، وقد عبق الجوُّ برائحة التبغ المفروم حديثًا. في الوسط وضع منقل فحم كبير من النحاس المزخرف وعليه ركوة قهوة تغلي، وتنفث بخارها في الأرجاء. سَحرها الطابع العام للغرفة، لكنَّها لم تغيِّر التعبير المحايد الذي ألبسته لوجهها منذ عبرت البوَّابة. بقيت صامتة بانتظار «جنَّات» التي عادت وبيدها طبق فاكهة، وبعض الحلو وصحن خبيصة! وضعتهم في طبق قش أمامها، وقدَّمت لها فنجان قهوة مرة! زاد ذلك من استغرابها وارتباكها، مع هذا لم تندفع بسؤال «جنَّات» عن أيِّ شيء، فمنذ بدأت بمزاولة مهنتها، تعلَّمت حكمة انتظار الزبون حتى يبدأ هو بالحديث.. ليس كلُّ زبون، فهؤلاء الذين يدخلون غرفتها المعتمة، يتعرَّضون لرُهاب الأماكن المظلمة، بعضهم يبوح بما لديه بسهولة، وبعضهم يحتاج إلى استدراجه بأسئلة بعيدة أو قريبة عما يريد قوله. في مطلق الأحوال كان عليها هي تحديد ما يريد الزبون لتقوم بالخطوة المناسبة، وقد حدست أنَّ السيِّدة «جنَّات» تريد منها أن تسألها عن سبب دعوتها لها، لتبدأ الحديث، لكنَّها أرادت أن تنتقم منها بالصمت، تغلَّب

=الصلوات الخاصة بصيغة الربوبية. تمت تصفيته على يد قائد الشرطة العسكرية عبد الحق شحادة 1952/11/27.

إحساسها بمرارة هذا اللقاء على فضولها المهني، وعلى فضولها كأنثى.. الصمت قد يردُّ لها بعضًا من كرامتها المهدورة عبر سنين طويلة من التجاهل والكراهية. لكن، ليس الآن.. يجب أن ترى نساء القرية بأعينهن دعوة «جنَّات» لها. اقتربت السيِّدة «جنَّات»، وجلست بجانبها قائلة: «لمَ لا تشربين القهوة؟». اغتصبت ابتسامة لا معنى لها، وقالت بصوتها الأجش العميق: «قهوتك مشروبة». انزعجت «جنَّات»، وبدا ذلك واضحًا على ملامحها وهي تقول: «والله سأزعل منك، أعرف أنك قد أخذت على خاطرك مني بسبب أني لم أزرك من قبل، لكنَّها ملحوقة، سأقوم بزيارتك قريبًا». كشَّرت عن ابتسامة صفراء تنضح كراهية، وقالت: «مرحبًا بكِ في أيِّ وقت». أيقنت مباشرة أنَّ الأمر أخطر من مرض جلدي تتقن هي مداواته، أو وصفة للحميراء والجرب وآلام الحيض والنفاث. «جنَّات» في ورطة، وإلا ما استدعتها إلى بيتها، ومن ثمَّ اقترحت أن تزورها! وعلى الرغم من ورطتها، تعاملت معها بذكاء وحذر، أرسلت تستدعيها، لتشيع في القرية أنَّها جاءت لزيارتها، ثمَّ يكون ذهابها إليها عاديًّا كردٍّ للزيارة؛ لتبعد الإشاعات التي ستتداولها النساء حول سبب زيارتها لبيت العرَّافة على الرغم من الكراهية والقطيعة بينهما! نهضت بسرعة مدعية أنَّ لديها أعمالًا هامة.. لم تستبقها «جنَّات»، بالعكس أبدت تفهمها لأهمية العمل الذي تقوم به، وسألتها عرَضًا: «في أيِّ وقتٍ تحبين أن أزورك؟». قالت: «في أيِّ وقت تشائين». انتقت «جنَّات» عباراتها: «لا أحبُّ أن أزاحم زبائنك؛ لذا أريد وقتًا خاصًّا، لا تكونين فيه مشغولة مع أحد». فهمت «لمار» أنَّ «جنَّات» لا تريد أن تجتمع بنسوة من القرية عندها، فأعطتها

موعـدًا بعد صلاة العشـاء.. أبـدت «جنَّات» موافقتها، «الموعد مناسـب جـدًّا!». حيـن خرجت من البوابة، تنفَّسـت بعمق.. آخـر رأس في القرية صـار فـي جيبها. لم يعـد هناك أحـد يحتفظ بسـرٍّ في جرابه الشـخصي، الـكلُّ في قبضتهـا، في جرابهـا الملوث بقـذارات النفـوس، وأحقادها. مـع هـذا يعيِّرونها بماضيهـا، ويتقوَّلـون عليها! صحيح أنَّها لـم تعرف ما وجع «جنَّات»، لكنَّها غير مسـتعجلة، سيأتيها الخبر اليقين غدًا بعد صلاة العشاء!

لا تـدري كيف مرَّ هذا اليوم بعواصفه ورعوده، البرد شـديد، والهواء جـاف، وتشـرين ينـذر بعاصفة ثلجيـة! لأوَّل مـرَّة منذ وعت علـى الدنيا يهجـم الشـتاء بهـذا العنف أبكر مـن موعده، والنـاس لم ينتهـوا بعد من قطاف آخر المواسم في كرومهم. لـم تتذكر في زحمة العمل في الأرض، لإحضار الأغصان اليابسة من أجل التنور والتدفئة موعدها مع «جنَّات». قفلت في المسـاء باب غرفتها الداخلي، واسـتعدت للنوم، حين سمعت طرقات خفيفـة على الباب الخارجي لغرفتهـا المتاخم لمكب النفايات، فطنت مباشـرة قبل أن تهمس: «مَن». إلى الزائـرة.. فتحت الباب ببطء.. تراءى لها في العتمة شـبح امرأتين، همسـت إحداهما مـن خلف لثامها: «مساء الخير». كانت تلك «جنَّات»، وبقيت الثانية صامتة! أفسحت لهما الطريـق، وهي تقول: «زارنا علي، وأغلى». لـم تكن تقصد ما تقول، فقد كانت تشـعر بالضيق لأنَّ الزيارة جاءت على هذا النحو من السرية بحيث لم ترَ النسـوة في القرية «جنَّات» وهي تسعى إليها بقدميها! أغلقت الباب

حاجـزة الرائحـة الواخـزة وراءه. تبرَّمـت «جنَّات»: «ليتـك تبدلين موقع الغرفة، الرائحة لا تطاق!».

جلست المرأتان.. الاضطرابُ بادٍ على ملامحهما.. لم تسأل «لمار» عن الشـابة التي ترافق «جنَّات»، فقد عرفـت بخبرتها أنَّ الأمر يتعلَّق بها، وأنَّهـا لا بـد أن تكون الابنة الوحيدة للسـيِّدة التي سـمعت بهـا قبل الآن كثيرًا، ولـم يصدف أن رأتها. تنحنحت «لمار»، ورحَّبت ثانية بـ «جنَّات»، وقالت: «أرجو ألا يكون الأمر خارج استطاعتي، فأنا أريد مساعدتك من كلِّ قلبي». ابتسـمت «جنَّات»، وقالت بارتباك: «بل تسـتطيعين، إن شـاء اللـه، الأمر يتعلَّق بابنتي...». لم تحثهـا «لمار» على المتابعة، حدَّقت في وجه الشابة على الضوء الخافت للفانوس، كانت تبدو إلى جانب شحوبها هزيلـة، ومكسـورة النفس، نظراتهـا القلقة، وحـركات يديها المتشـنجة تسـتجدي أمهـا ألا تقول ما بهـا.. كان واضحًا أن «جنَّـات» أجبرتها على المجـيء معها، ولـم تكـن على اسـتعداد للتراجع عمَّا جـاءت من أجله. قالـت بصوتٍ خافتٍ: «أوَّل شـيء لن أذكِّـرك أنَّ الأمر في غاية السـرية، لا أريد أن تتأذى ابنتي، هي على علاقة بشـاب هجرها، وقد علم إخوتها بالأمر، وينوون قتله إن لم يتقدَّم لخطبتها. ذهبت إليه بنفسي، لكنَّه قال إنَّه لا ينوي الزواج حاليًا، وأهله لن يوافقوا على خطبتها؛ لأنَّهم سيخطبون له ابنة السـيِّد منصور! تصوري.. النذل». قالت «لمار» بحياد: «ماذا تريدين منـي أن أفعل بالضبـط؟». قالت «جنَّات» بلهفة: «أريد أن أزوجها قبل أن يعـرف أبوهـا بالأمـر». ردَّت «لمار» بضيـق: «لكنَّه لم يسـمع منك، فهل سيسمع مني؟». قالت «جنَّات»: «ليس مهمًّا إن تزوجته هو أو غيره، لكن

إن استطعتِ أن تربطيه، سأدفع لك الثمن الذي تريدين». كانت «لمار» على ثقة من عدم جدوى كتابة الأحجبة. فكَّرت بوسيلة تستطيع بها إقناع الشاب، وبعد ذلك تكتب لـ «جنَّات» الحجاب لتضمن النتيجة. قالت لها: «أريد شيئًا من أثره، واسم أمِّه وجدته، وبيضة حمام طازجة، وليرة ذهب». ردَّدت «جنَّات» الطلبات كي لا تنساها.. واستأذنت من «لمار»، وخرجت مع ابنتها متسلِّلة تحت جناح العتمة.

جلست «لمار» تفكِّر بالأمر، الوصول إلى الشاب أمر سهل، لكن إقناعه أمر صعب جدًّا، كيف تقنعه بترك ابنة السيد «منصور» التي يتشاجر على خطبتها كبار العائلات! مسكين ابن أخيها «صخر»، خدع نفسه كما حاول خداعها بحبِّ الفتاة له. هي على يقين أنَّ «شفق» لم تتنازل وتنظر إليه حتى، فكيف تحبُّه؟ ولماذا؟ لكنَّها مع ذلك تركته يغرق في الوهم ليكون دافعه لتحقيق حلمه في السلطة. ليته يستطيع الحصول على «شفق»، عندها ستُحل مشكلة ابنة «جنَّات» هكذا لوحدها، حين يجد الشاب نفسه خارج المنافسة، سيعود ليخطب «أسينة». ابتسمت «لمار» وهي تهمس لنفسها بسخرية: «ما أسهل المخططات حين تكون في أذهان الحالمين!».

رأت «لمار» ابن أخيها يتسلَّل إلى غرفتها كما يفعل دائمًا في لحظات عجزه، يجلس في العتمة، ويطلب منها تفسيرًا لكلٍّ ما يحدث معه.. لماذا هو من بين كلِّ البشر تتحطَّم أحلامه بهذه الصورة البشعة؟ لماذا طردوه كحيوان أجرب؟ لماذا لم يردَّ عليه السيد «منصور» بأدب، ويرفض طلبه بلطف؟ أليس بشرًا مثله؟

كلُّ التساؤلات التي نطق بها بتلعثم واضح، كانت «لمار» قد سألتها لنفسها من قبل، لم تكن بحاجة لمواساة ابن أخيها ونفسها، بل بحاجة لإيجاد حل يُخرجه مما هو فيه كي لا يصبح عائقًا أمام مستقبله. قالت بثقة: «الحل أن تنساها، وتخطب غيرها، وبسرعة. الحل أن تتزوج، وتهجر هذه القرية المنحوسة.. سافر إلى العاصمة، مستقبلك هناك، لا تنظر إلى حصولك على رتبة ملازم طيار على أنَّها نهاية أحلامك، هي فقط أوَّل خطوة في الحلم». كان يُنصت إليها بكلِّ حواسِّه، لقد لامست أعماقه بخفة. ختمت حديثها: «اذهب للنوم.. إن غدًا لناظره قريب».

لم تتوقف «لمار» في أثناء حديثها عن التفكير في الحل، وقد وجدته بالسرعة المطلوبة، ولم يكد الصباح يشرق، حتى وضعت شالها على كتفيها، وحزمت شعرها بمنديلها الملون، ووضعت فوقه غطاء القطيفة السميك، وتبخَّرت، وقرأت أدعيتها على نية التوفيق مستنجدة بكلِّ الأرباب الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم، حتَّى إنَّها التمست رحمة العذراء كما رأت النساء يفعلن في الكنيسة، وخرجت تسعى إلى بيت «جنَّات»!

فوجئت «أسينة» التي فتحت لها الباب بحضورها المبكر، أمسكت بيدها، ورجتها قائلة: «الله يخليكِ لا تردي على أمِّي، لا تذهبي إليه». ابتسمت «لمار»، وقالت: «لن أفعل». ودخلت قبل أن تتم الفتاة كلامها.. كانت تريد أن تقطع عليها الطريق، فقد فهمت أنَّ الفتاة تريد شيئًا آخر غير الذي تريده أمُّها! تبعتها إلى الغرفة، جلست في الزاوية، وأنصتت إلى

حديث أمِّها مع العرَّافة. قالت «جنَّات»: «أحضرت لكِ ما تريدين، اسمه واسم أمِّه وجدته، والبيضة والليرة الذهبية، لكن لم أستطع أن أحصل على أثرٍ منه، فقد سافر إلى العاصمة ومعه كل أغراضه صباح البارحة، هذا ما أخبرتني به أمه». تنهَّدت الفتاة بارتياح حين سمعت ذلك، التفتت إليها أمها، وأمرتها بمغادرة الغرفة حالًا. امتثلت للأمر، لكنها بقيت تتنصَّت عند العتبة. قالت «جنَّات»: «ماذا ستفعلين الآن؟». لم يكن لدى «لمار» حل، فهي لن تستطيع مقابلة الشاب ما دام قد سافر.. ولن تستطيع ربطه ما لم تحصل على شيء من أثره.. لا الشعوذة ولا الذكاء ينفعان الآن!

أخذت الصُّرة من يد «جنَّات»، وقالت: «الأثر أهم شيء في العملية كلِّها، لا أستطيع ربطه ما لم تحصلي على قطعة من ملابسه، وشعرة من رأسه أو قصاصة من أظافره». قالت «جنَّات» بقلق: «ماذا أفعل الآن؟ من أين أتتني هذه المصيبة؟ اللعنة على الساعة التي أنجبتك فيها يا أسينة». التقطت «لمار» الإشارة، إنَّها اللحظة المناسبة لقول ما عندها. همست لـ«جنَّات»، وهي تقرِّب رأسها منها لأنَّها على يقين أنَّ «أسينة» وراء الباب: «ما رأيك بعريس آخر؟». قالت «جنَّات» بدهشة: «عريس! الحقيني به، أنا أريد حلًّا لقطع ألسنة نساء القرية». «حسنًا». قالت «لمار»، واعتدلت في جلستها: «عليكِ فقط أن تقنعي والدها بأنه عريس مناسب والمستقبل أمامه». نظرت «جنَّات» في عمق عيني «لمار»، كانت هناك لمعة انتصار، اخترقت قلبها، لكنَّها لم تهتم، كانت تريد إنقاذ ابنتها بأيِّ ثمن!

رمت «لمار» بيضة الحمام في حضن أوَّل ولد رأته جالسًا على المصطبة أمام البيت، ودخلت غرفتها. كانت تقلِّب الليرة الذهبية بين أصابعها حين دخل «صخر» يصحبه ضجيج العائلة المجتمعة على الغداء في الغرفة الثانية. أغلق الباب خلفه، وسألها من دون حماس: «قالوا لي إنك تريدينني في أمر هام». رمت «لمار» الليرة إليه، فالتقطها بدهشة، قالت: «مهر عروسك!». قال باستغراب: «أيُّ عروس؟ هل ذهبت منذ الصباح لتبحثي لي عن عروس؟». قالت: «بالضبط هذا ما كنت أفعله، ووجدتها، أسينة ابنة تاجر القماش.. لا تقل لي إنَّك لا تعرفها». ردَّ بجفاء: «سمعت عنها، لكن أتعتقدين أنَّ والدها يوافق؟ هؤلاء أيضًا دينهم المال، فكيف يزوِّجون ابنتهم الوحيدة لفقير مثلي؟». قالت بثقة: «يتمنون.. هل يجدون مثلك؟ أنت أفضل من أبيها، لا تذكر الفقر بعد اليوم. أنت غني.. هل تفهم؟ ستكون أغنى منهم جميعًا، حتى من السيد منصور، هذا ما أراه حقيقة، كما أراك أمامي الآن.. وستقول يومًا، عمَّتي عرَّافة لم تلد البلاد مثلها». ردَّ مازحًا: «حسنًا سأقول منذ الآن إن وافقوا على الزواج». قالت: «غدًا تذهب في المساء بصحبة مشايخ القرية وجدك، لا تترك أباك يتحدَّث، سيخرب الدنيا، دع سليمان يطلبها، وخذ في يدك هدية لها، سأعطيك شالًا من الحرير الطبيعي كان للسيِّدة أسما، لم تمسَّه يدي، ولا يد أحد غيري، ولم تره عين من قبل. كانت أسما تحتفظ به لعروس علي.. سبحان الله، لا أحد يعرف أين النصيب!».

أرسلت «لمار» في الصباح الباكر خبرًا إلى «جنَّات» بأنَّ العريس سيزورهم في المساء. لم يكن لدى «جنَّات» خيار آخر، أخبرت زوجها

أنَّ نساء «سليمان» قد جاؤوا إليها لطلب يد ابنتها لابنهم الملازم الطيَّار.. وحرصت على عدم ذكر اسمه، بل رتبته العسكرية. لم يناقش زوجها الأمر كثيرًا؛ إذ وجد زوجته مقتنعة بأنَّ العريس مناسب، وأنَّ المستقبل أمامه، وبأنَّه سيأخذ ابنتهم لتعيش معه في العاصمة بعيدًا عن القرية المنبوذة على أطراف العالم. لم تكن «جنَّات» تعلم السبب الحقيقي الذي جعل زوجها يوافق من دون نقاش! مع أنَّها استغربت ذلك، لكنَّها ارتاحت لأنَّ مهمتها انتهت من دون مشاكل أو اشتباكات محتملة مع زوجها حول الأصل والفصل لعائلة «سليمان»، وحول المهر الذي سيقدِّمه لها، و... أشياء لا تحصى كان يفاجئها بها كلَّما قالت له إن عريسًا تقدَّم لابنتها!

***

ليلة الشبح الثالثة

في هذه الليلة نادى السجَّان «يونس» منفردًا.. استغرب باقي المعتقلين، لكنَّهم احتفظوا بتساؤلاتهم، وبفرح خفي يخصُّ كلَّ واحد منهم لعدم استدعائه إلى التحقيق.

عرَّاه الجلَّاد، وربط يديه من الأمام، ثمَّ تركه واقفًا في الممر.. ثلاثة أيام مضت وهو واقف هكذا، من دون طعام، ولا ماء، ولا نوم.. يمرُّ به العساكر، فيتسلَّون بشتمه ولكزه بسلاحهم. يمرُّ الجلَّادون، فيضربونه بكبل الحديد أو الحزام أو أيِّ شيء يحملونه. يمرُّ المحقِّق، فيتسلَّى بشتمه بألفاظ جنسية، تطال أمه وأخته وطائفته. الشيء الوحيد الذي خفَّف من وطأة الإهانات والضرب أنَّه كان معصوب العينين، لم يرَ تلك الوجوه القذرة التي تخلَّت عن إنسانيتها، وامتهنت كرامته بهذا الشكل المتوحش. صحيح أنَّ الحقد تفاقم في نفسه، وكان في تلك الأيام على استعداد لارتكاب جريمة لو أُتيح له ذلك. لكنَّه كان يُصبِّر نفسه بتلاوة القرآن لعلَّها تهدأ، ويفكِّر في أمِّه التي كُتب عليها أن تقضي عمرها في انتظار أبدي لمعتقلين لا يعودون!

الأستاذ فقد الأمل خلال تلك الأيام، وظنَّ أنَّهم أعدموه. انفرد بنفسه، ولم يعد يستطيع تناول الطعام. لقد سيطرت حكاية «يونس» على حواسِّه كلِّها، لكنَّه الآن لا ينتظر الحكاية، فقط يتمنَّى لو يرجع «يونس» سالمًا.

تحقَّقت أمنيته في صباح اليوم الرابع. عاد «يونس» في حالة يُرثى لها.. كان نحوله مخيفًا، وجلده مترهلًا، وعيناه شاخصتين، وكأنه فارق الحياة. لكنَّ ذلك لم يدُم سوى ليلة واحدة!

***

دار ميساك، 1960

كأنَّها دخلت مغارة علي بابا.. كلُّ شيءٍ حولها يملك خاصية الإدهاش، والمقدرة على لفت الانتباه، لكلِّ شيء سحر يتجاوز في سيطرته المعقول بالنسبة لفتاة قروية لم تغادر قريتها منذ ولادتها. كانت تشعر بالارتباك، ولا تعرف كيفية التعامل مع الأشياء الجديدة بالنسبة لها. لكنَّها امتلكت المقدرة على تجاهل أحاسيسها حدَّ البلادة، فهي لا تُبدي أيَّ تأثر لأيِّ مظهر جميل في الحياة من حولها، بل تكاد تفقد المقدرة على التواصل مع ما هو جميل إن لم تكن قادرة على امتلاكه! وبالقدر الذي أشعرتها المدينة فيه بالاتِّساع والجمال، والتحضر، امتلكت هي إحساسًا بالحقد والغيرة والضيق. كان إحساسها يتضخَّم حين تسير في شوارع دار ميساك القديمة، وتدخل سوق الحميدية أو تقترب من الجامع الأموي أو قبر صلاح الدين، تشعر حينها بالاختناق، وبالحاجة للهرب من المكان، فتدخل مزار السيدة رقية لتخفِّف من غلواء نفسها. تغسل وجهها من ماء المزار، متناسية أنَّ الماء هنا نفسه في البيت، نفسه في كلِّ الأماكن.. منبعه من الفيجة، ومصبه في دماء سكَّان الشام.

تجولها في دار ميساك لم يطل، ففي الأسابيع الأولى أخذت فكرة عن المدينة العريقة، ثمَّ صعدت إلى قاسيون. هناك من الجبل الشامخ، نظرت إلى المدينة الآمنة، وقرأت أدعيتها، ونفخت أمنياتها في الفضاء الواسع. فتحت ذراعيها لاحتضان الأفق.. وشعرت للحظات وهي تضمهما إلى جسدها، أنَّها خبَّأت روح المدينة في معطفها، وأنَّ لا أحد يمكنه أن يتنفس بعد الآن خارج هذا المعطف! أفاقت من رؤاها على ريح شديدة، أطارت شال الحرير الطبيعي، شال السيدة «أسما» الذي نسجته بيديها على مدى سنوات، وزينت أطرافه بمنمنمات دقيقة رائعة المنظر. حرَّكت الريح خصلات شعرها.. حين لامست الخصلات وجهها. لم تشعر بالاستياء لضياع شالها، قرَّرت التخلي عنه نهائيًا. لمست شعرها بأصابعها، فكَّت الجديلة الطويلة الخشنة.. وقرَّرت أن تتخلَّى عنها أيضًا.. ستذهب إلى صالون تجميل، وتقصها! لم تنتظر حتى الغد، بل قصدت مباشرة صالونًا للتجميل، جلست تنتظر دورها على مضض، كانت تخشى من التقلبات التي تنتابها في اتخاذ قراراتها الخاصة. طال الوقت، فنهضت لتغادر، لمحتها صاحبة الصالون، فطلبت منها الانتظار لدقائق فقط.

حين جلست على الكرسي بين يدي «الحلَّاقة» احتارت في الشكل الذي تريده، فقالت: «قصيه بشكلٍ يناسبني». قالت الفتاة: «أنت تصعِّبين الأمر هكذا، لكن لا بأس، وجهك طويل، يحتاج إلى غرَّة وقصة مدورة للتخفيف من حدَّة طوله، ما رأيك؟». كادت تخلع الفوطة عن رقبتها، وتصفع الفتاة على وجهها، لكنَّها حافظت على رباطة جأشها، وابتلعت

الإهانة التي أوصلتها الفتاة بطريقة لطيفة. «وجهها الطويل»، هل أرادت أن تقول «القبيح»؟ أشارت برأسها بالموافقة من دون كلمة، أغمضت عينيها والمقص يجز شعرها السميك الباهت، كانت ترى هيئة الخراف تحت أجفانها حين يُجز صوفها في الربيع. أمسكت نفسها عن النظر إلى وجهها في المرآة إلى أن قالت الفتاة: «نعيمًا.. انظري كم أصبح جميلًا!». نظرت إلى نفسها في المرآة بدهشة. كانت هناك امرأة أخرى، صحيح أنَّ شكل أنفها وعينيها لم يتغيرا، لكنَّ شعرها أضفى شكلًا جميلًا فعلًا على وجهها. نقدت الفتاة مبلغًا إضافيًّا فوق أجرتها. لم تخفِ استحسانها، وإن أخفت فرحتها!

فوجئ بها عندما دخلت البيت، وكان بانتظارها على الغداء. قال باهتمام: «تأخرتِ»، وأضاف: «لكنَّه تأخير مفيد، تبدين جميلة». إذن لم تكن كذلك قبل الآن؟ لم يرها جميلة من قبل! لماذا ارتبط بها إذن؟ لماذا تزوجها؟ لم تشعر يومًا أنَّه يحبُّها، بل على العكس، حين يقترب منها تحسُّ بذلك البرد الذي يثلج أطرافها، ويفقدها أيَّ متعة. كانت تعلم بقصة ابنة السيِّد «منصور»، تلك التي تركت ندوبًا في قلبها لن تندمل طيلة حياتها. مصيبتها أنَّ «شفق» كانت غريمتها المتجددة، فهي كاللعنة التي لا تزول بزوال السبب. منذ وطئت قدماها القرية، خطفت منها إعجاب الصبية، وأفقدتها كلَّ صديقاتها البنات. صار البيت خاويًا، بعد أن كان فتيان القرية يطلبون ودَّها، والبنات يأتمنَّها على أسرارهن الصغيرة. ثم جاءت قاصمة الظهر حين رآها حبيبها، وكانت تتمشَّى معه

في الكروم! كانت معه حين لمح «شفق» تقترب على حصانها. كانت معه، ترك يدها، ووقف يتأمل «شفق» بذهول.. نسي وجودها تمامًا، نسي كلَّ ما قاله لها، نسي وعده بالزواج، وصار يتهرَّب من لقائها بأعذار واهية. وعندما واجهته، قال لها بكلِّ قسوة، إنَّه لا يفكِّر بالزواج، وحين يفكِّر سيختار فتاة جميلة لا تجد أمُّه سببًا لرفضها! كانت السبب المباشر لإحساسها بالدمامة والقبح، كانت السبب في زواجها من «صخر»، وها هي الآن تقف حاجزًا بينهما حتى في الفراش! اللعنة عليها، تلك الأفعى الملساء، لو طالتها، لن يشفي غليلها أن تخنقها بيديها.. تريد لها ميتة أبشع من الخنق.. تريد أن تراها أشلاء أمامها.. لماذا كُتب عليها أن لا يفارقها طيف «شفق» أينما ذهبت؟ مئات الكيلومترات تفصلهما.. مع هذا تكاد تلمس حضورها بيديها الاثنتين، بل بكلِّ حواسها!

رفعت رأسها عن المائدة، حدَّقت فيه وهو يأكل.. هي أيضًا لم تحبه فلماذا تحقد عليه؟ بالعكس مصلحتها الآن تفرض عليها أن تحبه ولو بالكلام فقط. فآمالها كلها معقودة على مدى نجاحه وترقيته، والمناصب التي سيحصل عليها. لن ترضى بأقل من منصب وزير.. عندها ستنظر إلى «شفق» باستعلاء، نظرة استهزاء، ستراها هكذا من فوق.. وستعرف تلك الحمقاء أنَّها الخاسرة. لم تكن على يقين بعد أن «شفق» ستكون الخاسرة؛ لأنَّها مهما خسرت لن تخسر شيئًا مهمًّا، فهي لم تحبَّ «صخر» أبدًا، فكيف ستشعر بالخسارة؟ هي الخاسرة الوحيدة في اللعبة، خسرت مَن تحب، وسيبقى قلب «صخر» معلَّقًا بـ «شفق».. لن ينساها. أقسمت

في نفسها أنَّها ستُنسيه الحليب الذي رضعه من أمِّه إن لم ينسَ «شفق». لن تخسر معركتها أبدًا، وستسعى بكلِّ قوتها كي تراه في المنصب الذي سيجعله يمتلك أمر البلد وإن كان ذلك على جثة أقرب الناس إليها..

انتبه «صخر» لاستغراقها في أفكارها، قال وهو يبتسم: «مَن أخذ عقلك؟ أين وصلتِ بأفكارك؟ لماذا لا تأكلين؟». اعتذرت منه، ونهضت عن المائدة. دخلت غرفتها، غيَّرت ملابسها، واستلقت على سريرها. أرادت ملاحقة الحلم، وجعله بقوة التركيز رؤيا قابلة للتحقق. تابعت تصوراتها للمستقبل. حلمها في رؤية «شفق» وقد مات والدها، وخسر أمواله بطريقة ما، وجاءت إلى المدينة، والتقتها تتسوَّل في أحد الشوارع. أضحكها الموقف، ضحكت بصوت مسموع، ولم تنتبه لـ «صخر» وهو يفتح الباب، ويسألها: «خير ما بك اليوم؟ أضحكيني معك». قالت وهي تعقد حاجبيها: «التقيت اليوم بغجرية تقرأ الكفَّ وأنا خارجة من صالون الحلاقة. قرأت لي كفِّي.. هل تعرف ماذا قالت لي؟». أبدى اهتمامًا خاصًّا وهو يجلس على طرف السرير، ويمسح شعرها: «ماذا؟». ردَّت هامسة: «قالت لي، إنِّي سأكون زوجة أهم رجل في الدولة».. ضحك بصوتٍ عالٍ: «ستتزوجين؟ تقرأ الكفَّ، ولم تعرف أنَّكِ متزوجة؟». لكزته في كتفه: «بل تعرف، إنَّها تعنيك، قالت لي إنَّك ستملك الدنيا بيديك». تأملها قليلًا: «أنت جادَّة؟ ألهذه الدرجة؟ وصدَّقتِها؟». قالت: «أنا صدَّقت، عليكَ أنت أن تصدِّق». ارتدى ملابسه، واستأذن: «عليَّ أن أغادر الآن، اهتمي بنفسك، ولا تنسي، أغلقي الباب جيدًا بعد ذهاب الخادمة».

قالـت بقلق: «كل يـوم! إلى أين تذهب؟ أشـعر بالملـل والوحدة». قال: «لا أسـتطيع إخبـارك، لكـن لـديَّ اجتماع سـري، ثـم أنتِ التـي اخترتِ الوحـدة، قلـت لكِ أكثر مـن مرَّة اتركـي أمِّي تعيش معنـا، رفضتِ، قلت لـك لتـأتِ عمَّتـي، ليـس لديهـا أولاد، ولـن تزعجـك في شـيء، ولدينا غرفـة إضافيـة.. أيضًا رفضـتِ». قالت باستياء واضـح: «الوحدة أفضل مـن العيش مع أمِّك أو عمتك.. لا أريدهما، لن أشـعر وقتها أنِّي حرَّة في بيتي.. لا أحد يجلب الدب إلى كرمه». على الرغم من استيائه من موقفها وكلامها، إلا أنه لم يعلِّق بشيء، كانت دائمًا تغذِّي لديه الشعور بالنقص، بترديد عبـارات عن أصلها وفصلها وتجارة والدهـا، وأمواله.. حتى إنها لا تكـف عن الحديث أيضًا عن عـدد الراغبين بالزواج منها! كاد أكثر من مرَّة يقول لها، لماذا لم تتزوجي أحدهـم إذن وتريحيني من هذه الورطة.. لكنه يتراجع في آخر لحظة. فهو يعرف جيدًا أهمية وجودها بقربه، وأهمية دعم عائلات القرية له بسبب هذا الزواج.. ليس الآن، سيحتاجهم جميعًا في المستقبل. عمَّته «لمار» درسـت الأمر من كل جوانبه، وأوضحت له حاجته لجدار يسـند عليـه ظهره وقت الحاجة، ولن يجـد خيرًا من أبيها. لن يجد فتاة أخرى ترضى به، وتسنده مثل «أسينة».. عليه إذن أن يتغاضى عن كل عيوبها في سبيل الهدف الذي يسعى إليه.

فـي مواجهة النَّهر كان جالسًـا يتأمل انسـياب المـاء، وصوت خريره الناعـم يخترق أذنيه بصخب، ويتحوَّل إلى ضجيج مزعج يشوِّش إنصاته إلى حديث نفسـه. حاول الانسـلاخ عما حوله والتركيز فـي الفكرة التي

أرَّقته منذ أسابيع طويلة. لم يكن اتخاذ القرار سهلًا، فهو لا يريد أن يظهر أفكاره إلى العلن في هذه المرحلة؛ لأنه لم يستطع معرفة إستراتيجية عدوه بعد، كما لم يكن على يقين من إخلاص مؤيديه!

ضجيج النهر تحوَّل فجأة إلى هدير.. شعر أنه يقود طائرته النفاثة فوق بحر لا نهاية له، وشيء أقوى منه يجذب الطائرة إلى الأسفل! كاد يوقع النادل وهو ينهض من كرسيه كزوبعة، ويتجه صوب باب المقهى هربًا من ضجيج الماء.

حين وصل بيت الجنرال، همس بحذر: «هل زوجتك هنا؟»، هزَّ الجنرال رأسه: «نائمة». قال بنبرة خافتة: «لا توقظها، سأنام هنا الليلة، لا تخبر أحدًا بذلك».

لم يعد تلك الليلة. نامت «أسينة» بعمق، لم تشعر بغيابه إلَّا في الصباح. استيقظت على بكاء طفلتها الصغيرة، كانت تشعر بالانزعاج، والدوَار.. لم تغادر سريرها، بقيت الطفلة تبكي حتى جاءت الخادمة في الساعة الثامنة. أمرتها أن تطعمها، وتقوم بأعمال المنزل، وعادت للنوم.

اتصل بها في الساعة الثانية ظهرًا، واعتذر عن التأخر، وقال إنَّه اختير للسفر في مهمة إلى القاهرة، سيُرسل مَن يصحبها إلى القرية لتبقى هناك عند والدتها ريثما يعود. صرخت على الهاتف: «لا أريد الذهاب إلى القرية، سأرافقك». لم يكن لديه الوقت للجدال، طلب منها بلطف أن تتصرَّف بحكمة، ولا ترهقه أكثر، لكنَّها أصرَّت على السفر! استسلم للأمر الواقع، لم يكن لديه الوقت الكافي لإنهاء إجراءات السفر،

فاضطر للاستعانة بالجنرال للقيام بالمهمة ومرافقة زوجته إلى المطار. قام الجنرال بعمل الإجراءات اللازمة واصطحب «أسينة» وطفلتها إلى القاهرة بعد يومين من سفر «صخر».

***

القاهرة كانت مزدحمة بالناس، والضجيج، والحياة، وكل شيء، لكنها شعرت بانتقالها إلى زنزانة كبيرة، كل ما فيها يوحي بالعزلة والصمت. كانت تنزل إلى الشارع لتتفرَّج على المحلات، وتشتري حاجياتها، لكنها تعود كما نزلت، ثم تتصل بزوجها ليحضر لوازم البيت. لم تستطع تجاوز ذلك الحاجز الذي وضعته بينها وبين الناس، لم تكن تهابهم، على العكس، لمست طيبتهم، لكنَّها تكره الاحتكاك بهم، فقد تضخَّم إحساسها بالهوَّة التي تفصلها عن الناس حولها.

لم تكن تعرف الأسباب الحقيقية وراء اعتقاله، فعلى الرغم من كونها زوجة رجل عسكري، إلا أنها لم تتدخل في شؤون عمله يومًا.. وقد حرص على أن يعزلها عن عالمه السياسي، واحتفظ بسرية مواقفه وتصرفاته. وجدت نفسها فجأة في بلد غريب وحيدة مع طفلتها، وسط تغييرات غير مفهومة أطاحت بزوجها، وتسبَّبت في اعتقاله، وبات مصيره مجهولًا. تمكَّنت من زيارته في السجن، فطلب منها العودة إلى دار ميساك، لم يعد هناك ما يبرر وجودها هنا.

رافقها الجنرال في طريق العودة، وتكفَّل بالعناية بها وبطفلتها فترة غياب زوجها.

قضت حوالي الشهرين تنتظر خروجه من السجن، صرفت الخادمة، اضطرت أن تعتني بالبيت وطفلتها بنفسها. لم تعد تخرج إلى الأماكن العامة.. كانت تشعر أنها في سجن أيضًا.. وحيدة وغريبة، ولا جدار تسند عليه ظهرها! لكنَّ الجنرال أثبت لها وفاءً نادرًا لم تتوقعه، كان حريصًا على جعل زوجته تزورها بانتظام، كما حرص على تأمين احتياجاتها كاملة، والعناية بابنة صديقه.. لم تشعر بالامتنان تجاه الجنرال، كانت تظنُّ أنه يقوم بواجبه الذي يحتمه عليه ردُّ الجميل لصديقه.. ومع أنها لا تعرف يقينًا إن كان زوجها قد قدَّم معروفًا للجنرال، لكنَّها على ثقة تامة أن لا أحد يعمل معروفًا من دون مقابل؛ لذا كانت على قناعة أنَّ الجنرال يقوم بدفع ما عليه من دَين لا أكثر!

حين عاد «صخر» كان قد تغيَّر تمامًا، لم يعد يتحدَّث إليها، افتقدت حتى تلك الكلمات القليلة التي يتبادلها معها حول مائدة الطعام. فقط يوم وصوله تحدَّث طويلًا، لكن كأنما لنفسه، ولم يذكر سبب اعتقاله، ولا ما جرى في السجن، وهي تجاهلت الموضوع، لم تسأله عنه. انتظرت أن يحكي لها في الوقت الذي يراه مناسبًا، لكنَّه صمت نهائيًا. كان يخرج من البيت منذ الصباح الباكر، ولا يعود إلا بعد غياب الشمس. تكتم على أماكن وجوده، لم يعد يتصل بها ليعتذر إن تأخر.. وبعد عودته يكتفي بالتحيَّة. يأكل بصمت، وينام متمنيًا لها ليلة سعيدة!

لم يكن غيابه الطويل عن البيت ما يقلقها، بل ما رافقه من شائعات متضاربة، حملها لها بعض أصدقائه! في البداية لم تقتنع بكل ما قيل،

كانت متأكدة من أمر واحد فقط هو إخلاصه في السعي إلى تحسين وضعه، والحصول على رتبة أعلى، كانت في غاية الفخر حين حصل على رتبة نقيب، وتصوَّرت أنَّ الزمن لن يطول به حتى يصبح عقيدًا، وترى الياقة الحمراء على بزته العسكرية! الصورة الوحيدة التي أحبَّت أن يكون عليها صورة العقيد الشيشكلي التي رأتها في مبنى حكومي. وقتها وقفت مذهولة أمام الصورة، غيَّرت في ملامحها، رسمته بدقة مكانها.. البزة والياقة الحمراء.. ولم تهتم بعد ذلك بالفوارق الأخرى! كانت على يقين أنَّ مكانه سيكون هنا على الجدار نفسه في يومٍ ما. ولن ترضى بصورة أقلَّ من هذه بهاءً!

انتبهت إلى أنه لم يعد يرتدي بزته العسكرية. لم تسأله، بل انتظرت خروجه من البيت. ومرَّت بـ «منوّر خانم»، وضعت ابنتها عندها، وذهبت إلى مكان عمله. لم تتورَّط في الدخول، بل سألت الجندي الواقف على الباب عنه، فأخبرها أنَّهم قد أقالوه، وهو الآن موظف عادي في وزارة الصحة! كاد قلبها يتوقف من الغضب، شعرت بدوار، استندت إلى جدار قريب بضع دقائق، وعادت إلى البيت.

***

مرَّة أخرى كان في مواجهة النهر، في المقهى ذاته.. الأطفال ينصبون أراجيحهم في الأشجار الكثيفة قرب الماء، يخوضون بأقدامهم الصغيرة بماء الضفة.. يتراشقون بما تحمله أكفُّهم الصغيرة.. فجأة اصطدمت به كرتهم الملونة.. بلَّلت ثيابه، وتركت بقعة بنية على سرواله الأبيض..

حدَّق بهم بانزعاج، ورمى الكرة إلى النهر! نظراتهم الحزينة زادته ضيقًا، تمتم أحدهم بشتيمة ما، والكرة تسبح مع التيار. حين اختفت عن ناظريه، شعر بالارتياح. جاءه النادل بكأس الشاي. لم يمد يده إليه، كانت أفكاره تتلاطم في رأسه، وصخب النَّهر يرتفع، إلى درجة شعر معها أنه يقبض على عنقه، ويجرُّه إلى القاع. نهض مغادرًا ومصممًا ألا يعود إلى هذا المكان. كانت المياه الجارية في النَّهر الرائق تثير حنقه واستغرابه من الألفة العجيبة بينه وبين الناس!

عندما عاد في المساء لم تذكر أمامه شيئًا عن خروجها من البيت، بل سألته: «لماذا لم تعد ترتدي بزتك العسكرية؟ هل أقالوك؟». فاجأه السؤال بمقدار ما أزعجه، لكنَّه لم يجد بدًّا من الجواب، شرح لها باختصار أنَّهم استغنوا عنه بسبب موقفه من الوحدة.

لم تعلِّق، لكنَّها احتفظت في داخلها بسبب إضافي لكراهيته. لقد حطَّم الحلم الذي رضيت بالعيش معه لأجله.. والآن صار عليها أن ترضى بالعيش مع موظف عادي، في بيت عادي، تنجب له الأطفال، وتعيش كأيِّ زوجة من دون طموح! انصبَّت نقمتها على الجنين الذي بدأ يتحرَّك في أحشائها.. صارت تكره كل شيء ينتمي إليه، وتعلَّل ذلك بأعراض الحمل الغريبة! دخلت غرفتها، وأغلقت الباب بعنف. أنزلت صورته المعلَّقة على الجدار، نظرت إليها مليًّا.. لأوَّل مرة تكتشف أنَّ وجهه منفر، وملامحه غير متناسقة، لم تنتبه قبل الآن لأذنيه الضخمتين، ولا لجبينه العريض، ولا لعينيه الضيقتين، ولا لفمه.. ما هذا؟ سألت

نفسـها باستغراب.. هل يُعقل أن يكون هذا الشخص المشوه في الصورة هو زوجها الذي علَّقت عليه أحلامها؟ همست بحقد: «كم يستطيع الحلم تجميل الأشـياء من حولنا!». حطَّمت إطار الصـورة، مزَّقتها، ورمتها في سلة المهملات.

لـم يؤثر عليه غضبها من قريب أو بعيد، كان يقضي أوقاته خارج البيت فـي العمل، في المقهى، مع أصدقائـه، يجتمعون في بيوتهم.. لا يهم أين يقضـي الوقت، المهم ألا يمنحها فرصة لجعله هدفًا لنقمتها. كان يشـعر بالتقصيـر تجاههـا، فبعد أن اتَّسـعت الأحـلام أمامهـا، وتضخَّمت أناها بسـبب تلك الرؤيا الغريبة التي قرأتها غجريـة في كفِّها.. صار عاجزًا عن تأمين أبسـط أحلامها.. أكثر ما كان يخشـاه أن تطلب مساعدة أهلها؛ كي تشـعره بتقصيره أكثر! ولـم يكن يملك سـوى عجزه الذي يداريه بالهرب من الصدام معها.

مـن ناحيتهـا لم تُبـدِ «أسـينة» أيَّ رغبة فـي التواصل معـه، بل تركت الهـوة الباردة بينهما تتسـع، وتتعمَّق، بتجاهلها وجـوده تمامًا. تبقى نائمة حتى يغادر المنزل، وتتناول غداءها قبل وصوله، وحين يعود في المسـاء يجدهـا فـي زيارة جارتها! تلـك التصرفات لم تزعجه، بـل هيَّأت له جوًّا مناسـبًا للانفراد بنفسـه، وإبقاء أسـراره بعيدًا عن عينيها. لم يعرف أنَّ كلَّ مـا تقوم به في الظاهـر لا علاقة حقيقية تربطه بما تقوم بـه بعيدًا عنه. فقد سـعت لصنع حياتها الخاصة بها بمسـاعدة جاراتها، فصرن يدعونها إلى

اسـتقبالاتهن، ويتبادلن معها الدسائس، وعلَّمنها صناعة الحلوى الشامية في الأعيـاد، ونبهنها إلى الكثيـر من الأخطـاء التـي ترتكبها فـي زينتها وملابسها. شعر هو بكل تلك التغيُّرات وقابلها بالتجاهل والصمت!

***

دمشق - المخابرات الجوية في حرستا، كانون الثاني 2013

دولاب العيد!

عندما كان في الخامسة من عمره أخذته أُمُّه في العيد إلى الساحة حيث يحتفل الناس بركوب الأراجيح. كان يقف بعيدًا وهو يراقب الأولاد كيف يصلون إلى أعلى نقطة، ويصرخون بمرح ممزوج بالخوف عندما تتوقف «القلَّابة» للحظات، ثم تهبط بسرعة ومفاصلها الخشبية تصدر صوتًا يشبه صوت عظام تتكسَّر! عندما رأت أُمُّه خوفه ورفضه لم تجبره على الركوب، بل خيَّرته بين «الدويخة» التي تشبه دولاب الهواء الذي برع في تصميمه من الورق والخشب وهو طفل، وبين الأرجوحة. فاختار الدولاب لأنه يحبُّ شكله. لم تكن تجربته العملية جميلة، فقد تسببت له بدوار جعله يتقيَّأ، واصفرَّ لونه، ولزم الفراش يومًا كاملًا، راحت خلاله فرحة العيد، واحتفظ بالذكرى السيئة التي رافقته طيلة فترة الطفولة والصبا، فلم يعد بعدها إلى ساحة العيد إلا متفرِّجًا من بعيد!

الجلَّاد الذي استقبله في القبو، مازحه وهو يضربه بكبل حديدي: «ما رأيك أن تختار وسيلة التعذيب اليوم؟ الدولاب أو الشبح؟». وجد نفسه

على الرغم من تجربة الشبح القاسية في الأيام السابقة يتراجع إلى الخلف خطوة، وهو يقول: «لا، أريد الدولاب!»، ضحك الجلَّاد، قهقه طويلًا، وأمر بوضعه في الدولاب. حتى الرقم عشرين الذي سمعه من الجلَّاد كان الألم واضحًا ويستطيع تحديد مصدره، ونوع الأداة التي يُضرب بها! فقد سمع النغمات التجريبية التي أجراها جلَّاده على الأرض لكبل الحديد، والسوط، والعصا.. كأنه يجهز نفسه لحفل موسيقي! لم يكن مخطئًا، فالجلَّاد بدأ يغني، ويشتم على إيقاع الضرب وصراخه! يساعده أشخاص آخرون، يضربون بكلِّ قواهم.. ثم توقف العدُّ، وتلاشت الأصوات تدريجيًّا..

عند الرقم عشرين توقف كل شيء خارجي بالنسبة له، فقد لفَّ الدولاب، دار كل شيء في رأسه، وانسحب إلى العدم! الحياة في الخارج، الحياة التي عاشها بكلِّ مرارتها، والحياة داخل الزنازين والعتمة، تفاصيل كثيرة كانت تتمزَّق أمام عينيه، وتتلاشى..

رموه على أرض الزنزانة، ودلقوا فوق رأسه سطل ماء ليستعيد وعيه. الجلَّاد كان يشتم الله والدُّنيا والأديان والمعتقلين وكل شيء في الوجود. سمع كل ذلك، لكنَّه ظنَّ أنه يسمعه من عالم لا وجود له فيه، قبل أن يبدأ باسترجاع إحساسه بالألم، ويستوعب بقاءه حيًّا! لم يكن قادرًا على الوقوف، لم يكن قادرًا على فهم ما يجري حوله. جرُّوه من قدميه عبر الممرات، وعندما وصل إلى الدرج، ساعده السجَّان على الوقوف، كانت أوَّل مرَّة يشعر أنَّ السجان من لحم ودم، أحسَّ بحرارة يده التي

تسنده! لكنَّه لم يتأكد من بشريته، حتَّى بعد وصوله إلى الزنزانة، وجلوسه بين زملائه البشـر، تساءل عن إمكانية أن يكون هؤلاء في الخارج ينتمون إلى الجنس نفسه الذي خلقه الله منه!

استلقى في فسحة تكفي جسده المنهك، أحاط به زملاؤه المعتقلون، شعر أنَّ الأيدي الحانية التي تلامس جسده، تحوَّلت إلى وعاء ماء ساخن، غمر جسده، خضَّه قليلًا، هدهده، وغيَّبه هدوء عجيب.. وصله صوت أمِّه يغني هامسًا، وابتسامتها تملأ الفضاء من حوله. عندما استيقظ من غفوة لم يعرف كم دامت، وجد رأسه مستندًا على ساق الأستاذ، وهو نائم بوضعية الجلوس! هزَّه برفق، وهمس: «آسف، لم أكن في وعيي». ردَّ الأستاذ من دون أن يفتح عينيه: «لا تهتم، الدنيا قرض ودين!». قال والحسرة تحرق جوفه: «ليتها كذلك يا أستاذ.. ليتها كذلك، ربَّما يتحقَّق العدل وقتها»!

***

تل الجرب، 1962

تناهـى إلى سـمعها الخبـر كما وصل إلى باقي نسـاء القرية! شـعرت «لمـار» بحقد دفيـن يحفزها لاقتراف حماقة لن تندم عليها؛ لأنَّها سـتبرِّد قليـلًا مـن نـار قلبهـا. أوَّل ردٍّ فعل غيـر مـدروس كان تحريض شـقيقها «علـي» على إثبات وجـوده، وفرض إرادته على كِنَّتـه. وثاني فعل قامت به، جلسـت إلى زوجة شقيقها، ونفثت في قلبها كراهية عمياء تجاه الكنَّة التي عادت بعد غياب سـنتين في العاصمـة، ونزلت عند أهلها؛ لأنَّ بيت أهـل زوجها لا يناسـب مقامهـا! ولأنَّها لا تريد أن يرى الرعـاع ابنتها، أو يلمسـوها! وعلى الرغم من الكراهية المتبادلة بين «لمار» وزوجة أخيها، فقـد اتفقت المرأتان على موقف واحد، اتخذتاه من الكنة «النشـاز» التي خرجت عن مسار القطيع الذي تقوده «لمار» في بيت العائلة.

عـاد «علي» فـي عصر ذلك اليـوم والصمت يجلِّله، لم يشـأ أن يكلِّم أحـدًا، ورفض الطعـام الذي قدَّمته زوجتـه الأولى أم «صخـر».. ونادى علـى ابنته من زوجتـه الثانية لتُحضر لـه الطعام. جاءت «لمار» مسـرعة، لكزتـه في كتفه: «هل كبرت إلى الحد الـذي تتجاهلني فيه؟ ماذا حدث؟ إن كانـت هـؤلاء النسـوة يضايقنك فأنا لا أنتمـي إليهن! تعـالَ..»، جرَّته

من يده، وأدخلته غرفتها وهي تعاتبه بلطف على غير عادتها. استمع إليها طويلًا، ثم قال بهدوء: «ماذا تريدينني أن أقول؟ ذهبت إليهم كما اقترحت حضرتكِ، وقلت لهم إنَّه لا يجوز أن تبقى كنَّتي وابنتها هناك وبيتي موجود. ماذا ردَّت أمُّها؟ تصوري.. قالت لي: أنتَ على العين والرأس، لكن ابنتي حامل، وعلى وشك أن تلد، وتحتاج إلى جوٍّ نظيف وصحي. لا تؤاخذني بيتكم لا يناسبها، يعني أقصد كثرة الأولاد والنساء والضجيج.. وأنت سيد العارفين، رائحة النفايات في بيتكم لا تحتمل.. بصراحة أنا أخشى عليها من العين! تصوَّري.. تخشى أن نصيب ابنتها بالعين. مع أنَّها لا تشبه النساء في شيء، لا أعرف على ماذا شوفة الحال والتكبر؟»، أنصتت «لمار» من دون تعليق لكل كلمة وحرف.. نفثت بقوة بركان صدرها أنفاسًا حارَّة، لفحت وجه أخيها «علي». نظر إليها باستغراب متسائلًا عمَّا بها. سألته هامسة: «اصدُقني القول يا علي، أهذا بالضبط كل ما قالته جنَّات؟ أم أنَّك أكلت نصف الحديث كعادتك؟». ارتبك «علي»، وكاد يقسم أنه قال كل شيء، إلا أنَّ «لمار» وضعت كفَّها فوق فمه، ومنعته: «لا تقسم، أنا أعرف جنَّات جيدًا، هي لا تريد أن تحتك ابنتها بي شخصيًّا، أليس هذا ما قالته؟». فتح «علي» فمه، وتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم قال: «أنتن نساء، وتعرفن كيف تتفاهمن، لماذا لا تذهبين أنتِ إليها؟». تردَّد «علي» في إخبار أخته بما قالته «جنَّات»، يريد أن يعرف حقيقة الأمر، لكن مَن يستطيع مواجهة «لمار»؟ هي أيضًا أيقنت أنَّ «علي» أخفى عنها الجزء الأهم من حديث «جنَّات»، كما يخفيه كل مَن حولها. فمنذ ذلك اليوم المشؤوم الذي التقت فيه والد «أسينة» بعد

عرسـها بأيام، وهي تشـعر بالهمس يكبر حولها، وتتسـع دائرته، ويتحوَّل إلـى ريح تُلقح أفواه الطبيعة، فيهمس كل ما في الكون حولها متهمًا إياها باقتراف جرم لم يحدث!

في ذلك اليوم وهي عائدة من المدينة، تصادف وجوده في «الكراج»، سـلَّم عليها، ودعاها للجلوس على كرسـي أمام دكان قريب ريثما تنطلق الحافلـة. ركبا معًا، وأصرَّ على دفع الأجرة. فـي الطريق كان يحدِّثها عن تجارته الخاسرة، عن أولاده الذين لا يجيدون عملًا، ولا يرى فيهم سندًا علـى الرغـم من كثرتهم، ثـم حدَّثها عـن «جنَّـات»، كان يخفض صوته، ويقرِّب رأسـه منهـا، ويُفضي إليها بأسـراره. أهل القرية المتشـوقون إلى حـدث يلهب مخيلتهـم، لم يصبروا لحظة على الخبـر المذهل. أوصلوه إلـى «جنَّات» قبل وصول زوجها إلى البيت! لـم تهتم «لمار» في البداية، فقـد اعتبرت الأمـر أقلَّ من عـادي، لكنَّها فوجئت بجنـوح الحكاية التي بـدأت بلقـاء فـي المدينة، إلى اتخاذ شـكل حقيقـة واقعـة! والقصة التي تداولتها النسـوة فـي القرية، أنَّ العرَّافة سـحرت الرجـل، فذهب وراءها إلـى المدينـة، وأنَّهما علـى علاقة غراميـة، لكن لا أحد يعـرف إن كانت قـد انتهت بالزواج! البعـض كان يحلو له أن ينهيها بالزواج ليكسـر قلب «جنَّـات»، والبعـض كان يحلو لـه أن يعطيها صفة غير شـرعية انتقامًا من «لمار» وتقليلًا من شـأنها. وعلى الرغم من معرفتها لأسـرار نساء القرية، إلا أنَّ بعضهـن جازفـن باتهامهـا؛ لأنَّ بينهنَّ اتفاقًـا مبهمًـا وموحدًا على كراهيتها!

«جنَّات» من ناحيتها وقعت بين نارين، نار الإشاعة التي لا تريد تصديقها؛ لأنَّ «لمار» تقبض بأصابعها الجهنمية على رقبة ابنتها ورقبتها، ونار زوجها الذي تغيَّرت معاملته لها منذ ذلك اليوم تحديدًا، فأوقعها في الشكِّ. كانت تتساءل بينها وبين نفسها عن القوة التي تمتلكها تلك الأفعى حتَّى تستطيع التأثير على الرجال على الرغم من قبحها، لكنَّها لم تجد جوابًا شافيًا. أخيرًا قرَّرت مواجهة زوجها بالخبر. حين سمع ما قالته، حدَّق فيها بدهشة، ونفض كفيه، وقال: «لمار! لا حول ولا قوة إلا بالله.. لكن.. لمَ لا؟ والله فكرة». أدار ظهره، وخرج من البيت تاركًا زوجته وهي في حالة غضب يقود إلى الجنون. ضربت الجدران بقبضتيها، وعلا صراخها، ووصل أسماع الجيران. ضربت الأطفال من دون سبب، وبكت.. ثمَّ هدأت. حاولت أن تفكِّر بما قاله.. هل يعني ذلك أنَّها بغبائها نبَّهت زوجها إلى أمر لم يحدث، فأعجبه؟ هل يمكن أن يذهب إلى «لمار» بعد أن..

لم تخطئ «جنَّات» في توقعاتها. فقد ذهب زوجها إلى بيت «سليمان» مباشرة.. جلس معه أمام البيت على المصطبة الترابية، تناولا معًا بعض القهوة المرة، وتحدثا في شؤون كثيرة، ثمَّ فجأة سأله: «ماذا عن لمار؟ هل ستبقى من دون زواج طيلة حياتها؟». دهش «سليمان» لما سمعه، وقال بغصة: «أمر لمار بيدها، وهي لا تفكِّر بالزواج بعد التجربتين الفاشلتين في حياتها.. أنت تعلم أنَّها لا تنجب، كما أنَّها لا تريد أن تكون تحت سلطة رجل». قال «أبو صقر»: «دعني أتحدَّث معها». على الرغم من أنَّ

الطلب كان مفاجئًا وغير مسبوق، إلا أنَّ «سليمان» لم يعترض، بل نادى أحد الأولاد ليخبر عمته أنَّ لديها زائرًا!

اضطر «أبو صقر» ذو القامة الضخمة إلى الانحناء، للمرور إلى الغرفة المظلمة التي يتسرب إليها ضوءٌ خافت من النافذة المحجوبة بالستارة. كان أمرًا غريبًا بالنسبة لـ«لمار» التي لم تستقبل قبل الآن رجلًا في غرفتها المخصصة للنساء. ابتسم الزائر وهو يقول: «إذن هذا هو الجحر الذي تختفي فيه أسرار نساء القرية وفتياتها!». لم تردَّ «لمار»، كانت تُلملم أفكارها، وتستحضر قوتها، وتخمِّن سبب الزيارة الغريبة. من جهته دخل «أبو صقر» مباشرة في الموضوع: «يقولون، والقول وصل جنَّات، إنِّي طلبت يدك، وإنَّك وافقت.. فما رأيك؟». فاجأتها اللهجة الفجَّة المباشرة، والطرح الغريب. لكنَّها قالت بثبات: «لم أسمع بهذا من قبل، ولم أوافق عليه، وأظنُّ الردَّ عند سليمان». قال مستبشرًا: «سليمان ترك لكِ الخيار، لقد سألته». قالت: «لا أفكِّر بالزواج خاصة منك أنت، فبيننا أسينة، لا أريد لعلاقتنا الأسرية أن تأخذ طابعًا ثأريًّا». «أبو صقر» علَّق بجملة رنَّت في أذن «لمار» طويلًا: «حسنًا يبدو أنَّكِ تستطيبين رائحة المكان». أخذت «لمار» نفسًا عميقًا.. لم تشمَّ شيئًا سوى رائحة البخور!

لم تكن «لمار» مخطئة، ومع أنَّها رفضت الزواج، إلا أنَّ طابع العلاقة تغير منذ اللحظة التي التقت فيها بـأبي «صقر» في المدينة.. هي تعرف جيدًا أنَّ الرجل ليس بحاجة لزوجة، وأنه لم يقصدها لأنه رغب فيها أو أحبَّها.. تدرك جيدًا أنَّ هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، لكنَّ الرجل يحتاج

مَن يفهمه، ويدعمـه معنويًّا ليتجاوز أزمته المادية التي لا تعرف «جنَّات» عنها شيئًا!

لـم يكـن هينًا على «لمـار» أن تتخذ قـرارًا بالمواجهـة؛ لأنَّها لم تكن تنوي أن تكشف أوراقها أمام أحد.. لكنَّ غيظها من «أسينة» أطار صوابها، وتمنَّـت فـي تلك اللحظـة لو أنَّهـا كانت أكثـر حمقًا وتهـورًا، وتزوجت أبـا «صقـر»، وحرقت قلـب «جنَّات» وابنتهـا. لم يعد النـدم على ما فات يفيدهـا الآن، وإن كانت على يقين أنَّها ما تزال قادرة على تحريك خيوط اللعبة كما تشـاء. لم ولـن تفقد ثقتها بقدراتها الاسـتثنائية في التأثير على البشـر من حولها. طرقت البـاب بقوة، ولم تنتظر حتى يـردَّ أهل المنزل، بـل دخلت كعاصفة هوجاء، أرادت اجتياح كل شـيء أمامها. خفق قلب «جنَّـات» بعنف، واحمرَّ وجهها، فهي تعرف السـبب الذي أتى بـ «لمار» على وجه السرعة، وجعلها تدخل بهذه الطريقة من دون أن ترمي السلام على أصحاب البيت. قالت مدارية مشـاعرها: «أهلًا وسـهلًا.. من زمان لم تزورينا». تجاوزت «لمار» عبارة الترحيب، وكأنَّها لم تسمعها، وقالت باسـتياء: «إن كانت ابنتك لا ترغب في زيارتنـا فهي حرَّة، اتركيها عندك، لكـن ابنـة صخر يجب أن تبقـى بين أهلها، في بيت جدهـا، هل فهمتِ». أرادت «جنَّـات» تلطيف الجوِّ والتقليل من شـأن الأمر بقولها: «أكيد هي ابنتكـم، لا أحـد ينكر، لكن ألا تريـن أنَّ البيت ضيِّق عليكـم، يعني نحن لا نريد أن ترتبكوا أكثر بوجود ضيوف في البيت». قالت «لمار»: «ليسـوا ضيوفًـا هم من أهل البيت، وسيعيشـون فيه كما نعيش». في تلك اللحظة

دخلت «أسـينة» تسحب سـاقيها بصعوبة، وابنتها تتشبث بثوبها القصير.. نظرت «لمار» بدهشة إلى هيئتها، الثوب ذي الوردة القماشية على الياقة.. قصـة الشـعر.. الأصبـاغ علـى وجهها وأظافرهـا.. الحـذاء ذي الكعب العالي! تغلَّبت دهشتها على الغضب، وانشغلت في رصد التغيُّرات، هل هذه «أسينة» الهزيلة المنكسرة صاحبة النظرات القلقة، التي..

نظـرت «أسـينة» من بعيـد إلى «لمـار».. حيَّتهـا مـن دون أن تقترب. وقالـت لأمِّها: «خذي مي، وأطعميها مـن الطعام الخاص الذي أحضرته لهـا.. أمِّـي، إياكِ أن تطعمي الطفلة شـيئًا آخر كي لا تمـرض.. أف.. كلُّ شـيء في هذه القرية يوحي بالقذارة». التفتت ثانيـة إلى «لمار»، وقالت: «عن إذنك، أنت صاحبة البيت، أريد أن أرتاح».

قبـل أن تضع قدمهـا على العتبة، سـمعت «لمار» تقـول: «الله يرحم أيام الجلَّة، الظاهر العاصمة جعلتك تعتقدين أنَّك لـم تعيشـي في حواري القريـة، والحـذاء العالي الـذي تنتعلين أنسـاكِ أيـام المشـي حافية». لم تلتفـت «أسـينة»، ردَّت بصوتٍ أعلـى من اللزوم: «الجلَّـة تعرف الأيدي التي جمعتهـا، وقرَّصتها، وتدفأت عليها.. اسـألي يديكِ». للمرَّة الأولى تستسـلم «لمـار» لاندفاعهـا مـن دون حسـاب للنتائـج، هجمـت علـى «أسينة»، وأمسـكتها من كتفيها، وأدارتها صوبها بقوة، وقالت: «الأفضل لكِ أن تبتلعي لسانك، وأن تأتي إلى بيت حماك، والطفلة سآخذها معي، وسـتأكل من طعامنا.. إن كنتِ نسـيتِ، ها أنا أذكِّرك، مـا تزال رقبتك في يـدي، وأسـتطيع تعليقها على المشـنقة فـي لحظة». «أسـينة» كانت أكثر

هياجًا، ردَّت الصفعة بأشـد منها بمنتهى البرود: «يدك وما تعطي.. صخر في إصبعي كهذا الخاتم.. وقبل أن تلفي المشنقة حول عنقي، فكِّي الحبل عن عنقك يا عاهرة.. نساء القرية كلهن يعرفن قصصك، ويلُكن سيرتك، ومع هذا تتجرئين على اتهام غيرك بقلة الشرف!»

لم تتوقع «لمار» ردَّة الفعل تلك، صدمها ما سمعته من «أسينة»، صدمها ذلك البرود والتحدي ونظرة الاستعلاء، أطار صوابها أكثر نظرة الاحتقار في عيني أسينة! منذ متى؟ وكيف؟ كانت الأرض تهتز بـ «لمار» وهي تهزُّ «أسينة» بعنف من كتفيها، و«جنَّات» تحاول تخليصها من يديها. لم تكن تعي جيدًا ما يحدث.. كان كل شيء في تلك اللحظة يخضع لرغبتها العنيفة بالانتقام ممَّن أهانتها. أخيرًا انتبهت إلى بكاء الطفلة، سحبتها من يدها، وحملتها، وخرجت وسط صراخ «أسينة»، وحيرة «جنَّات». لم تستطع «جنَّات» أن تلحق بها، فقد كانت ابنتها تصرخ: «الحقيني، أكاد ألد». صاحت للأولاد، طلبت إحضار الداية، هيَّأت الفراش لابنتها، كانت تركض هنا وهناك، وتقوم بأعمال آلية وفكرها عند الطفلة التي اختطفتها «لمار»، وذهبت بها.

انتصف الليل و«أسينة» ما زالت تحت وطأة ألم الولادة.. «الداية» كادت تعلن أنَّها لن تستطيع قلب الطفل الذي يدفع قدمه خارج الرحم، فتدفعها كي تحصل على الاثنتين من دون جدوى!

قبل الفجر بقليل استطاعت الداية أن تسحب الجنين بمعجزة.. زغردت «جنَّات»، فاجتمع أهل البيت الذين لم يغمض لهم جفن في

تلك الليلة، وطار خبر مجيء الحفيد الأول لـ «علي» الذي سيحمل اسم الجد «سليمان»! هذا ما نذره «صخر» حين علم بحمل زوجته، إن جاء ذكرًا سيسميه على اسم جده «سليمان» لعلَّه يكون قويًّا وحكيمًا مثله. «أسينة» التي امتعضت من النذر لم تنبس بكلمة في ذلك الوقت، فقد قرَّرت أن تختار اسمه بنفسها من دون الرجوع لأبيه، وقد واتتها الفرصة الآن، والده ليس هنا، ولن يستطيع أحد أن يفرض عليها اسمًا لا تحبُّه.. لم يستطع «صخر» أن يفرض عليها قبل ذلك أن تسمي طفلتهما «لمار» على اسم عمَّته كما وعدها.. وكان يتمنّى لو جاءت طفلته بنباهة عمته وَفطنتها. لكنّ «أسينة» لم تخضع لرغبته بل بحثت وراء الاسم، وعادت لتقول له إنَّها لن ترضى بتسمية ابنتها «كلبة». دهش حين سمع ذلك، لم يكن سابقًا يعرف معنًى للاسم سوى أنَّه اسم جدَّة أبيه الفارسية!

«لمار» التي سمعت بقدوم المولودة، ولم ترها، وسمعت بنذر ابن أخيها الذي لم يتحقَّق، لم تلبث أن سمعت أيضًا أن«أسينة» قد أطلقت عليها لقب «كلبة»، وادَّعت أنَّه معنى اسمها! كتمت كلَّ ذلك، ولم تتفوَّه بكلمة لابن أخيها الذي كان يأتي في زيارات خاطفة للقرية من دون أن يصطحب زوجته أو طفلته. الآن بات كل شيء واضحًا وجليًّا..تطلعات «أسينة» باتت واضحة لعيني أيِّ شخص يعرفها. كان واضحًا أنَّها تريد إقصاء أهل زوجها عن حياتها، وتكتفي بعائلتها فقط؛ كي لا يشعر أولادها بنقص بسبب نسب أبيهم المقطوع عند جده «سليمان»!

سمع كلُّ مَن في القرية بمجيء المولود.. أوَّل مَن أسرع إلى منزل أبي «صقر» كان «سليمان».. حمل عصاه، وسار بقامته الضخمة التي

لـم يحنهـا الزمن، وخطوته الخفيفة التي لم يثقلهـا عمر ولا مرض.. قرع البـاب، وتنحنح قبل الدخول. كانت النسـوة في فسـحة الدار يتضاحكن لسـبب غير معروف.. حين رأين «سليمان» تلاشت أصواتهن، وكأنَّ بهنَّ حرجًا من أمرٍ ما. لم يعبأ «سليمان» بالأمر، بل دخل غرفة الضيوف مناديًا على أبي «صقر». جاءت «جنَّات» مسـرعة ومرتبكة. رحَّبت به، وأخبرته أنَّ أبـا «صقر» ليس في البيت، ويسـتطيع أن يجده فـي الحقول. نظر إليها مشـكِّكًا، وقال من دون اسـتياء: «منذ متى يخرج أبـو صقر إلى الحقول! ثـم لمـاذا أنـت واقفـة بارتباك هكـذا؟ ألـن تأتينـي بسـليمان الصغير؟». فوجئـت «جنَّـات»، وزاد ارتباكهـا. غادرت الغرفة مسـرعة، وعادت بعد وقـت قصيـر تحمل الرضيـع النائـم، ناولته لـ «سـليمان». نظـر في وجه الرضيع مليًّا، وقال: «هو هزيل جدًّا، أليس كذلك؟ كما أنه لا يشبهني!». التقطـت «جنَّات» الكلمة الأخيرة، وقالـت بعفوية تنبئ عن غبائها: «لهذا لم ترضَ أسينة بأن يحمل اسـمك، قالت إنَّها ستسـميه مجيبًـا، لا تريده أن يحمل اسـمًا لا يناسـبه». قال «سـليمان» بقسـوة وجفاء: «نعم، دعيها تسـمِّه اسـمًا يليق به وبأمِّه، كما يليق بها اسـمها! فعلًا كما يقولون، لكلِّ امرئ من اسمه نصيب، لكن لا تنسي أن تقولي لها إنَّ الأسماء أحيانًا تنبئ بمصير أصحابها». لم يناول «سـليمان» الرضيع لجدته، بل وضعه بجانبه علـى الأرض، ونهـض مغادرًا البيت، لم يرد على رجاء «جنَّات» بشـرب القهوة.. ولم ينظر خلفه أبدًا.

ارتجـف قلـب «جنَّات» ذعـرًا، قالـت لابنتهـا: «سـليمان على حق، أخشـى أن يكون كلامه نبوءة». سـخرت «أسينة» من الأمر وقالت لأمِّها:

«أتصدِّقيـن الخرافات؟ ومنذ متى كان جـد زوجي صاحب نبوءات؟ هل تصدِّقين أنه رجلٌ مكشوف عنه الحجاب؟ مجيب ابن الرب، وإن أعدمته المخابرات، وسـيبقى ذكره مؤبدًا على ذبائحنـا، أم أنك تكفرين به؟ ابني أيضًا سـيكون إلهًا، وسترين». ردَّت أمُّها هازئة: «ابنك ابن صخر، وليس ابن الرب!».

***

جلس«سـليمان» على المصطبة الحجرية أمـام البيت. التغيير الوحيد الـذي حصـل منـذ انتقلـوا من بيـت الحسـنة إلى هـذا البيت فـي القرية، أنَّهـم أزالوا مصطبة التراب، واسـتعاضوا عنها بالحجـر، وأضافوا بعض الأسـمنت لأرضية البيت، وصاروا يستطيعون شطف الأرضية في الأيام الحارَّة لتمنح البيت بعض البرودة! تزامن ذلك مع ارتفاع مكب النفايات، وتحولـه إلـى تـل صغير! كانـت «لمـار» تدرِّب «مـي» على نطق أسـماء الأشـياء الغريبة في غرفتها، عندما سمعت نحنحة أبيها.. شعرت بالحزن العميق الذي أحاط به.. لـم تعرف السـبب المباشـر له، لكنَّها حدست أنَّ الأمر يتعلَّق بابن «صخر»، خاصة وأنَّها عرفت بالاسـم الذي أطلقته عليه «أسـينة». خرجت إليه، جلسـت قربه، حاولت أن تقول شـيئًا تواسـيه به. نظـر في عينيها، فسـكتت. لـم تكن تجرؤ على قول شـيء حين ينظر إليها هكـذا طالبًا منها الصمت أو مغادرة المكان. جميع مَن في البيت يعرفون طبعـه، وفـي هذه الحالة يمتنع عـن الطعام.. ويرفـض الحديث مع أحد، وأحيانًـا ينزوي فـي ركن من البيـت، ويتدثَّر بأغطية كثيـرة حتى وإن كان

الجـوُّ حـارًّا.. الكل يعـرف مقولته: «ما يـردُّ البرد يردُّ الحـرَّ!»، لكن هذه المرَّة لم ينتبذ زاوية من البيت، بل حمل عصاه، وصعد التل! منذ سـكنوا فـي القرية، لم يذهب «سـليمان» إلى التـل أبدًا، ولـم يذكـره في أحاديثه، وكأنه لم يكن!

استطاعت «لمار» أن تفهم رغبته تلك في الابتعاد عن البيت، والأولاد، والضجيـج، خاصة وأنَّه لكثرة العدد، لـم يعد يسـتطيع النوم لحظة واحدة في النهار. تأخر الوقت ولـم يعد! تركت «لمار» الطفلة الصغيرة في عهدة زوجة أخيها، وصعدت التل. رأته من بعيد تحت شـجرة الخروب، متكئًا على عصاه وهو في وضعية السـجود.. لم تكـن تعلم أنَّ أباها يصلي! لم تـره يفعل ذلك طيلـة حياته. اقتربـت أكثر.. وقفت قريبًـا منه، تنحنحت، لم يتحرَّك! انحنت، ولمسـته.. سقط جسده فجأة على جنبه.. كان وجهه المزرق ينبئ أنَّه مات منذ ساعات طويلة. ربَّما في الوقت الذي وصل فيه إلى الشجرة!

انشـغل الجميـع بإحضار الميـت من التل، وتشـييعه، ولـم ينتبه أحد للطفلـة الصغيـرة التي بقيت جالسـة لسـاعات على المصطبـة الحجرية أمـام البيت. حيـن عاد الجميع مـن الدفن.. كانـت «لمـار» أوَّل مَن انتبه إلـى غياب الطفلة. سـألت زوجـة أخيها، فقالت لهـا: «بالتأكيد نامت مع الأولاد، لا تحملـي همهـا، اذهبي ونامي». مع أنها لـم تقتنع كثيرًا بفكرة النـوم، إلا أنَّ التعـب الذي نال منهـا في هذا اليوم الاسـتثنائي، والخوف والقلـق، والحـزن، كل ذلك جعلهـا تدخل غرفتها، وتغلـق الباب، وتنام

وهي جالسة أمام الطاولة الصغيرة التي اشترتها مؤخرًا من المدينة لتضع منقل البخور فوقها، وترصف عليها أشياءها الغريبة.

استيقظت في الصباح على طرقات متلاحقة على بابها. حين فتحته وهي شبه نائمة، وجدت زوجة أخيها وقد انتابها الذعر، تقول بتلعثم: «لم أجد مي.. لم تكن نائمة مع الأولاد». صفعتها الكلمات، فصَحَت، وانتبهت بكلِّ حواسها، أغلقت فم زوجة أخيها بيدها، وأدخلتها إلى الغرفة، وهمست بغيظ: «إياكِ أن تخبري أحدًا بالأمر، أرسلي في طلب ابنك هرَّاس، قولي له: عمتك تريدك، ولا تخبري أحدًا بشيء وإلا..».

حضر «هرَّاس» منزعجًا، قال لعمَّته بتبرم: «ماذا تريدين مني؟ ألا تستطيعين الانتظار حتى أنتهي من لعبة الطاولة». نظرت إليه بغيظ: «أريدك في مهمة، اذهب واستقصِ حول بيت أهل زوجة أخيك، أريد أن أعرف إن كانت مي هناك، خلال أقل من ساعة عليك أن تعود بالخبر اليقين». ابتسم «هرَّاس» بخبث: «ماذا ستعطينني مقابل ذلك؟». قالت باستياء: «اللعنة عليك ألا تعمل شيئًا من دون مقابل؟ اجعله معروفًا لأجل أخيك». ضحك «هرَّاس»: «معروف! معقول يا عمتي؟ ألا تعرفين أنه مات من زمان!». قالت «لمار» باستسلام: «حسنًا، أعرف أنك لا تفعل خيرًا لأحد.. لكن هذه المرة لأجل صخر، وسيحملها لك في المستقبل، لا تنسَ أنَّ مستقبلك معلَّق به». قال «هرَّاس»: «حسنًا يا عمتي سأعمل خيرًا لأجله هذه المرَّة فقط، وسأرى إن كنت سأحصد نتائجه في المستقبل. لا تهتمي كثيرًا. تعرفين أنَّ الأخبار كلَّها عندي. زوجة أخي سافرت

بصحبـة ولديها منذ سـاعة.. يعنـي ابنة صخر بأمـان.. لا تحملي همها».

«سـافرت». ردَّدت «لمار» العبارة كثيرًا، لم تنتبه لانسـحاب «هرَّاس» من الغرفـة، لـم تنتبه لأيِّ شـيء حولها. كانت فقط تتحسـس رقبتهـا، وتردِّد العبـارة، وكأنها تلقَّت حكمًا بالإعدام! لقد انتصرت عليها «أسـينة».. لن تسكت على ما حدث أبدًا. حفرت على جدار غرفتها بأظافرها تاريخ هذا اليوم الذي غادرت فيه «أسـينة» البلدة، وتاريخ اليوم الذي سـبقه، تاريخ موت «سـليمان»، وتاريـخ ولادة «مجيب»، هـذه التواريـخ التي جعلتها تضع بمنتهى الدقة خطة جهنمية لاستدراج والد «أسينة» للسفر معها إلى العاصمـة، تاركة وراءها العائلة التي لـم تعد تنتمي إليها، والغرفة البائسـة بمحتوياتها الغريبة.

كانـت الحافلـة تبتعد عـن القريـة مخلِّفة وراءهـا تل الجـرب.. وتل النفايات!

***

حرستا - المخابرات الجوية، كانون الثاني 2013

الفلقة

استُدعي الأستاذ للتحقيق في صباح اليوم العاشر لوجوده في فرع جوية حرستا، وبقي «يونس» في الزنزانة في حالة ترقب وانتظار! حين أمر المحقِّق السجَّان برفع «العصابة» عن عينيه، فاجأه الضوء الحاد المنبعث من «براجكتور» سُلِّط على وجهه مباشرة، فلم يستطع رؤية وجوه الأشخاص المتواجدين في المكان. قال المحقِّق بسخرية: «أزعجك الضوء أستاذ؟ لا تؤاخذنا لا يوجد عندنا حلّ وسط». حاول الأستاذ أن يفهم ما يرمي إليه المحقِّق ليعرف كيف يرد، لكنَّه آثر الصمت، فقد تعلَّم من تجارب المعتقلين الآخرين ألا يستفز المحقِّق بجواب قد لا يكون على هواه. قال المحقِّق هازئًا: «هل أكل القط لسانك أستاذ؟ لماذا لا ترد؟ حسنًا.. قل لي، كيف كنت تعاقب تلاميذك الذين لم يحفظوا الدرس؟ أنت الآن تلميذي، ولم تحفظ درسك، ما رأيك بالفلقة؟». وكأنه ألقى نكتة، ضحك جميع مَن بالغرفة، وكاد المساعد

يَشْرَقُ بالمتة[1] التي شفطها في تلك اللحظة، مما زاد في ضحكهم، واحتقن وجهه غضبًا، صرخ بهم: «اخرس يا حيوان أنت وهو، ارفع رجليه بسرعة، قيِّده». يد الجلَّاد كانت أسرع من الأمر الذي أطلقه المساعد مع شتائم طالت أُمَّهاتهم جميعًا. دفعه على الأرض، رفع رجليه بسرعة، وعلَّقهما بالفلقة!

في طفولته أصرَّت أمُّه أن تأخذه إلى كُتَّاب الشيخ «عجورة» كي يتعلَّم جزء عمَّ، لكنَّه منذ أوَّل يوم في الكتَّاب كره الشيخ، وعصاه وفلقته، وهرب بعد أوَّل فلقة إلى البساتين، ولم يعد إليه أبدًا. في المدرسة كانت له تجربة أخرى مع أستاذ الرياضيات الذي كرهه كراهية عمياء، فقد ربَّاه بضربه عشرين عصا على رجليه، لم يستطع بعدها الوقوف، واضطر رفاقه إلى سنده طوال الطريق حتى البيت. ومن يومها هرب من المدرسة، ولم يعد، حتى نقلته أمُّه إلى صفٍّ آخر!

المساعد اقترب من رأسه، ركله بقدمه، وقال بحقد: «عليك أن تعدَّ معي بصوت مسموع، عدَّ يا حيوان». وبدأ بالضرب.. عصا الشيخ

(1) المتة: هي مشروب ساخن من فئة المنبهات. الكلمة إسبانية وفي بارغواي تعني قرعة، أو جوزة، أي الكاس الذي تشرب به. يسمى في أوربا شاي البارغواي. تم استقدام المتة إلى الوطن العربي مع مطلع القرن العشرين عندما كان العديد من سكان بلاد الشام تحديدًا يهاجرون إلى أمريكا الجنوبية سعي الكسب الرزق. حيث جلبوا هذا المشروب معهم وبدأ ينتشر في العديد من مناطق بلاد الشام وتحديدًا سوريا ولبنان.

«عجورة» كانت قضيب رمَّان، وعصا أستاذ الرياضيات كانت من خشب الزَّان أهداه إياها ابن مدير المنطقة! عصا المساعد كانت كبلًا من الحديد، مزَّق جلد قدميه بعد عدَّة ضربات، ونفر الدم منهما.. حاول أن يعدَّ، لكنَّه لم يستطع. كلَّما توقف، يصرخ المساعد: «سنبدأ العدَّ من جديد، أنا نسيت الرقم». شعر بدوار شديد وصداع كاد يفتت رأسه، صرخ متألمًا، لم يستطع في تلك اللحظات أن يلتزم بنصائح المعتقلين الذين قالوا له: «كلَّما زاد صراخ المعتقل، كلَّما انتشى الجلَّاد، وزاد عنفه». حاول أن يكتم صراخه، كزَّ على شفتيه بأسنانه حتَّى أحسَّ بطعم الدم في فمه. ركلة أخرى على خاصرته هذه المرَّة، وسمع المساعد يقول: «فكّ ها الحيوان، وخذه من أمامي».

لم يصدِّق عينيه حين أُغلق باب الزنزانة، وأحاط به المعتقلون.. وجه «يونس» تراءى له ضبابيًّا، صوت «يوسف» وصله مقطَّعًا.. ثم لامسته يد «يونس»: «تماسك يا أستاذ.. لأجلي.. لأجل مشروعنا معًا.. يجب أن تتماسك، وتخرج من هنا».

***

دار ميساك، 1963

الضحكات الساخرة ترن في أذنها، لا يمكن أن تخطئها، ليس صعبًا أن تحدِّد مصدرها، لكنَّها لا تريد الالتفات إلى الخلف.. تدرك جيدًا أنها لم تتخلَّص بعد من ملامح شخصيتها القروية، والتي تحاول جاهدة حجبها عن العيون الفضولية؛ كي لا تبدو نشازًا في مجتمع سيداته من الطبقة الراقية. مع هذا لاحظت العيون التي تختلس إليها النظرات بعد جلوسها في مقعدها. أمسكت بذراع زوجة الجنرال بقوة، وقرَّبت رأسها منها: «أشعر بضيق، لا أحبُّ مثل هذه الحفلات». همست «نازك خانم»: «عليكِ أن تتعوَّدي، كيف ستصبحين سيدة مجتمع إذن؟». تمتمت بغيظ: «اللعنة على...».

أخيرًا رُفعت الستارة، وظهرت «مها الجابري»، وهي ترتدي ثوبًا أسود طويلًا من دون أكمام، وقد رفعت شعرها، وتركت بعض الخصل الحرَّة. حدَّثت نفسها: «ليست جميلة، وإن كانت من عائلة كبيرة، وإن كان...»، انتبهت إلى نظرات سيدة تتفحَّصها، فانكمشت على نفسها، هل يعقل أنَّ الأفكار تنتقل عبر الأثير، هل لأفكارها صوت؟ لماذا تنظر إليها تلك السيدة باستغراب؟ تجرَّأت على سؤال «نازك» عن تلك التي

تنظر إليها. ردَّت باختصار: «هي قريبتي من حلب وقريبة مها، لكننا متخاصمتان». صمتت وهي تستمع إلى صوت «مها» الآسر، وقد انطلق عاليًا في أغنية أم كلثوم «قصة الأمس». لم تستطع أن تنكر إعجابها بالصوت، بل لقد صفَّقت بحماس عندما كانت «مها» تعيد «إنَّها قصَّة حبِّي»، ونسيت خلال دقائق نظرات الأخريات، بل نسيت وجودهن بشكل كامل. كانت السيدات في الصفِّ الأوَّل مندمجات مع الأغنية، يترنحن، ويُملن رؤوسهن يمينًا وشمالًا، ويلوِّحن بأيديهن، ويمسحن دموعهن! لم تكن تتخيَّل أنَّ أغنية يمكنها أن تحرِّك المشاعر هكذا. كانت تسمع النساء في قريتها، وهنَّ يغنين العتابا[1] في الكروم، وينصبن الدبكة في الأعراس، يهنهنَّ، ويقلن بعض الزجل.. أوَّل مرَّة في حياتها تسمع مثل هذا الشعر، يُغنى بهذه الطريقة، ويترك وراءه تلك البراكين الفائرة في صدور النساء، والتي تتفجَّر من عيونهن دموعًا، ومن صدورهنَّ آهات. حاولت أن تُكسب وجهها مسحة من الحزن، لم تعرف إن كانت قد نجحت أم لا، فليس أمامها مرآة لتنظر إلى نفسها فيها. فكَّرت بأنَّها ستتدرَّب في البيت على مثل هذه المشاعر، سترى كيف يمكن للمرء أن يبدو حزينًا، أو متألمًا، أو... استغربت من نفسها، كيف لم يخطر لها قبل الآن أن تتساءل عن شكل وجهها عندما تعبره تلك المشاعر؟ قبل أن

(1) هي من أنواع الزجل، أي الشعرالغنائي التراثي الشعبي، لها مكانة مرموقة في الغناء الشعبي اللبناني على وجه الخصوص والغناء الشعبي الشامي وفي المنطقة الغربية للعراق أيضا. ويرددها العامة في كل مناسبة مثل الفرح والسمر والأنس.

تجد الجواب كانت الأيدي تلتهب من التصفيق، و«مها» تكرِّر بصوت شرخه الحنين «فإذا دعوت اليوم قلبي للتصافي ... لا، لا، لن يلبي»..
لكن ما حدث بعد ذلك كان صاعقًا.. فجأة توقفت الفرقة الموسيقية عن إعادة الكوبليه.. وصمتت الصالة تمامًا، والتفتت الأعناق إلى الخلف تراقب خطوات ثلاث سيدات آتيات من كوكب آخر، يرفلن بأثواب سهرة ومجوهرات، ويحطن أعناقهن بالفرو الطبيعي النفيس.. رافقتهن الآهات حتى وصلن إلى مقصورة في الصفِّ الأوَّل.. جاهدت كي لا تلتفت، لكن عندما أصبحن أمامها لم تستطع منع نفسها من النظر..
زوجة الجنرال ضغطت يدها بقوة، وهي تتأمل السيدة التي جلست إلى يمين زوجة الرئيس، وهمست بإعجاب: «واسطة العقد، ما أجملها! وما أجمل طقم الألماس الذي تلبسه!». كادت تصرخ من المفاجأة، لكنَّها كتمت صرختها، وكتمت غيظها وهي ترى غريمتها «شفق» تبتسم لزوجة الجنرال التي نهضت من مكانها، وسلَّمت عليها وعلى زوجة الرئيس وعلى السيِّدة الثالثة التي تهيَّأ لها أنَّها أمُّها الفرنسية!

كانت في مزاج سيئ حين وصلت البيت بعد تلك الأمسية. قبل أن تصعد مع «نازك خانم» إلى السيارة الخاصة التي أرسلها الجنرال لتأتي بهما، تمشَّتا على طول مدينة المعرض قرب بردى، تنفَّستا معًا هواء أيلول الدافئ في تلك الأمسية، واختزنتا في ضلوعهما طراوة نسمات بردى. لم تشعر بالامتنان لـ «نازك خانم»، بل احتفظت في نفسها بغيظ مضاعف منها ومن «صخر» الذي وأد أحلامها في السلطة بتصرفاته الحمقاء..

ما الدَّاعي ليُعارض الوحدة؟ ما الذي يضره فيها؟ هي التي تضرَّرت مع أهلها وكلِّ مَن يملكون إقطاعات ومصانع. هو لا يملك سوى راتبه ومكانته التي يستمد منها القوة.. فكيف يضحي بهما؟ لم تشأ أن تناقشه في الأمر، كانت حريصة على ألا تظهر مشاعرها أمامه، وأن تنفِّذ ما تراه مناسبًا من دون مشورته.

لم تكن على استعداد لافتعال مشاجرة تعكِّر صفوها.. تعرف أنه سيبدأ الآن بمعاتبتها على تركها الطفلين وحدهما في البيت، وسيتطور العتاب إلى لهجة تأنيب ستضطر معها إلى رفع صوتها، وتغيير دفة الحديث، والعزف على وتر الوحدة والغربة والاختناق الذي تشعر به وحدها طيلة النهار من العمل في البيت والعناية بالطفلين. وسيقول لها، لماذا لا تبيعين نصيبك من أرض والدك، وتسكنين في بيت أفضل، وتأتين بمَن يخدمك؟ لو كانت تلك الفكرة غير صادرة عنه، لوافقت عليها.. لكنَّ صدمتها به كانت كبيرة حين ذكَّرها بما تملكه في المرة الماضية. والدها لم يكتب لها قطعة الأرض إلا مرغمًا؛ كي لا يطاله التأميم. وهي لم تكن لتحصل عليها لو أنَّ والدها توفي قبل التأميم، فورثته الذكور لن يعطوها شيئًا. وهذا ما تحمده لعهد الوحدة!

دخلت مباشرة إلى غرفتها، الواقعة يمين المدخل، فقد غيَّرت نظام البيت منذ أصبح موظفًا عاديًا، أزالت غرفة الضيوف من الوجود، ووضعت مكانها غرفة نوم خاصة بها، وضعت فيها سريرين للطفلين، وسريرًا لها. وحجتها عدم إزعاجه ببكائهما ليلًا.. لم تكن صادقة في

حجتهـا، فهـو أيضًا يعرف أنَّ نومها ثقيل لدرجة لا تسـمع فيه بكاء طفل، ولا تستيقظ لإطعامه أو تلبية حاجة من حاجاته.

قبـل أن ترمـي حذاءهـا مـن قدميهـا، انتبهـت لوجـود شـخص فـي سـريرها. طفلاهـا نائمان بهدوء.. وشـخص ما نام مكانها! إذن اسـتيقظا في غيابها، واضطر للعناية بهما والنوم قربهما. لكنَّها متأكدة أنَّها سـقتهما «الخشـخاش» قبـل أن تذهب؛ كي يبقيا نائمين حتـى الصباح.. فما الذي حدث؟ أحدثت ضجة وهي تخلع حذاءها، وترمي معطفها على السرير.. رُفع الغطاء فجأة، وظهر لها شـبح مرعب.. لم تسـتوعب مباشرة معنى ما يحدث، خفق قلبها بشدَّة، وخافت أن يكون الأمر متعلِّقًا بكابوس، انتقل من أحلامهـا إلى يقظتها. لكنَّ «لمار» ابتسـمت بخبث، وقالت: «الحمد لله على سلامتك.. يبدو أنَّ الحفلة كانت ممتعة!». لم تستطع أن ترد، لم تجد كلمات ترد بها. خرجت إلى الصالة وهي تصرخ: «صخر». لكن قبل أن يـرد «صخـر» الجالس في صدر الغرفة يقرأ فـي جريدة، وقعت عيناها علـى وجه أبيها الجالس قربـه. مفاجأة ثانية كانت فـوق طاقتها. حاولت ضبط نفسـها، اقتربت، ورحَّبت بوالدها، وسـألته فقـط لتتأكد أنَّ صوتها موجود: «متى وصلتم؟». قال والدها: «منذ سـاعات، لا أعرف بالضبط، لكـن قبل المسـاء. وأنتِ خارج البيت لوحدك طيلـة هذه المدة؟». قالت نافية التهمة الموجهة على شـكل سـؤال: «لسـت لوحـدي كنت بصحبة زوجـة الجنرال، صديق زوجي وهـو على علم بذلـك. والدنيا أمان هنا، لا تحمل همًّا». قال والدها باسـتغراب: «أمان! آه.. نعم أمان، الظاهر أنَّ

القريـة خرجت منك نهائيًّـا.. صرت ابنة مدينة!». قالت معقبة بابتسـامة: «وهـل هذا سـيئ؟ يجـب أن أكون مثـل النـاس الذين أعيـش بينهم، كي لا ينظـروا إلـيَّ باحتقار». هزَّ والدها رأسـه موافقًا، وقال: «ألن نتعشـى؟ سـفرنا طويل، ولم نأكل شـيئًا. نظرت إلى «صخـر»، فتبعها إلى المطبخ، قالت هامسة: «ماذا سأطعمهم؟ لا يوجد لدينا شيء، حتَّى النملية فارغة! ثـم لماذا أتـت عمتك لزيارتنا؟ مـاذا لديها في دار ميسـاك؟». قال بهدوء صعقهـا: «عمَّتي ليسـت ضيفـة إنَّها من أهـل البيت مثل أبيـك، والطعام موجود عندك، جلبوا معهـم طعامهم، لن تتعبي في تحضيره، فقط ضعيه في أطباق، وهاتِه». ردَّدت بسخرية: «في أطباق! منذ متى تأكل لمار خانم في طبق؟ كل عمرها تأكل من الحلة». فهم أنها تعني «كل عمركم تأكلون مـن الحلـة». لـم يشـأ أن يذكِّرهـا أنها هـي أيضًا كانـت تأكل مـن الحلة، ولا تعرف الأطباق.. وأنها في صغرها مشت حافية في طين القرية، وأنها عاشـت الطقوس نفسـها التي عاشـها هو وعائلتـه.. لـم يشـأ أن يقول لها شيئًا، لكنَّ نظرته، التي أرعشت قلبها، قالت كلَّ شيء.

كلاهمـا لـم يعرف أنَّ «لمار» جاءت لتبقى، لقد اتَّخذت قرارها بالبقاء بجانب ابن أخيها في محنته. كما قرَّرت أن تربي أولاده، وتحدِّد انتماءهم إلى أبيهم بعد أن خطفت «أسـينة» ابنتها مـن بيت جدها، وعادت بها إلى العاصمة.

فـي الأسـبوع الأوَّل لـم تسـتطع «أسـينة» أن تُبدي ضيقهـا من وجود «لمـار»، أو توجِّـه لها أيَّ كلمة! أكثر شـيء كان يزعجها اسـتيلاء «لمار»

علـى الغرفة التي تنـام فيها، واضطرارها للنوم مـع «صخر» في غرفتهما. وجـود والدهـا كان يكبح غضبهـا، ويخفِّف من صراخهـا. كل الأطراف شـعرت بالراحـة، لكـنَّ الجميع كانوا يجلسـون علـى فوهة بـركان قابل للانفجـار في أيِّ لحظة! مـن ناحيتها كانت «لمار» أكثرهـم ارتياحًا، فقد كانت تنفرد بالطفلين في غرفتها أطول مدَّة ممكنة، وقد تولت العناية بهما بالكامل، وهذا أزال عن كاهل «أسينة» همًّـا.. وصارت فترات خروجها من البيت أطول.

كانت جاهزة دائمًا للقيـام بالزيارات والذهاب إلى الحفلات بصحبة جاراتهـا وفكرهـا مرتـاح.. تدريجيًّا صـارت تتـرك أعمال البيـت أيضًا، تهمل كل شـيء، مما يضطر «لمار» للقيام بتلك الأعمال! «لمار» لم تكن متضايقة من القيام بالعمل طالما أنَّ ذلك يعزِّز وجودها في البيت، ويثبِّت أقدامها أكثر، ويؤسِّس لسيطرتها المستقبلية على كل مَن في البيت. خطة وضعتها «أسـينة»، وبدأت بتنفيذها في غفلة منها.. لم تدرك مباشـرة أنَّها تساعد «لمار» في بسط سيطرتها على البيت، وسكَّانه!

فوجئـت ذات يـوم أنَّ «أسـينة» قد دعـت جاراتها إلـى «عصرية» في بيتها، وعرفت يومها أنَّ ذلك النشـاط أحد العادات التي تتمسك بها نساء المـدن، فهـنَّ يلتقين بشـكل دوري، كل أسـبوع في بيت واحـدة منهن.. لـم يكن في ذهـن «لمار» أي فكرة عـن اجتماعات النسـاء، كانت تعرف زيارات القرية، واجتماع النسـوة في المناسبات، الحزن والفرح، والعمل فـي الكروم، لكن طابع هذا الاجتماع لم تفهمه! مع هذا لم يكن بيدها أن

تفرض رأيها في هذا الأمر، وتمنع حصوله. لاحظت كيف بدأت «أسينة» الاستعداد منذ الصباح الباكر، بصنع أنواع من الحلوى في المنزل لم تكن تعرفها من قبل! واستغربت ما الدَّاعي لكلِّ هذا! ألا يكفي أن يشربن قهوة! أكثر شيء صعقها، أنَّ «أسينة» بعد تحضيرها للشراب والحلو والمكسرات، وتوزيعها في أطباق، ووضع الكؤوس البلورية الشفافة في صواني و... غادرت البيت! وعادت بعد ساعتين وقد ارتفع شعرها على شكل كعكة، نفرت منها خصل شعر على شكل حلزون! أذهلها المنظر، كما أذهلها الثوب الذي ارتدته «أسينة» من دون أكمام وقد كشف عن ظهرها وصدرها و... الأصباغ التي زيَّنت بها وجهها.. كانت تتفرَّس فيها وهي ذاهلة عن الوجود!

بدأت الجارات بالتوافد، كلهنَّ كنَّ يرتدين ملابس تشبه ملابس «أسينة» تحت معاطفهن! في البداية التزمت غرفتها، أطعمت الطفلين، ووضعتهما في السرير.. ثم أنصتت لأصوات النسوة، ضحكاتهن، أحاديثهن. كانت الأصوات تنخفض فجأة، ثم تعلو الضحكات، فتعرف أنَّهن يحكين شيئًا خاصًّا، نكتة مثلًا! وربَّما يتحدَّثن عن واحدة غير موجودة بينهن. اضطرت إلى مواربة الباب كي تستطيع سماع الأحاديث. سمعتهن يشجعن إحداهن: «يا ألله يا أم عبدو.. ريته ما يبلى ها القوام، ريته يقبرني ها الصوت، ريتك تشكلي آسي[1]». وسمعتْ صوتًا غريبًا، أنهضها من مكانها، شدَّها إلى فرجة الباب. مدَّت رأسها لتختلس نظرة،

(1) يوضع الآس على القبور، ويغرس أيضًا.

لم تستطع رؤية الصالة كاملة. خطت بضع خطوات حتّى أصبحت في مواجهة باب الصالة. رأت تلك الآلة العجيبة التي تصدر النغمات العذبة، لم ترَ في حياتها آلة موسيقية غير الناي قبل هذا اليوم. «أم عبدو» التي كانت تهز رأسها على أنغام العود، والسيدات اللواتي في حالة نشوة، يصدرن الآهات من أحشائهن. لم يمنعهن ذلك كله من ملاحظة وجودها! توقفت «أم عبدو» عن العزف وهي تحدِّق بها، قالت ضاحكة: «ما هذه المفاجأة؟ هل أحضرتِ خادمة من وراءنا يا ست أسينة؟ يا لكِ من داهية!». بلعت «أسينة» ريقها بصعوبة، وهي تداري حرجها، لقد نبَّهت «لمار» أن لا تظهر أمام الضيوف كي لا تحرجها. لم تجد ما تقوله. لكنَّ «لمار» كانت أسرع منها، قالت متجاهلة ملاحظة «أم عبدو»: «عزفك رائع، وصوتك أجمل صوت سمعته في حياتي». والتفتت إلى «أسينة» قائلة: «أحسنتِ اختيار الصحبة يا كنتنا». حين سمعت «أم عبدو» تلك العبارة، سقط العود من يدها.. أسرعت «لمار» إليه، حملته، وناولتها إياه، ووجهها يكتسي بابتسامة مشجعة، وقالت: «أسمعيني شيئًا لمحمد عبد الكريم أمير البزق». دهشت السيدات لسماعهن قولها، ظهرت على شفاههن ابتسامة متواطئة، قالت «أم عبدو»: «تكرم عينك، من عيوني». جلست «لمار» على كرسي من الخيزران قرب الباب تستمع إلى اللحن الرائع، وهي تحدِّق في وجوه النسوة، وتحاول كشف دواخلهن وعواطفهن من خلال ردَّة فعل كل واحدة على اللحن. كانت «أسينة» في تلك اللحظات تحاول لملمة حرجها، وإخفاء شعورها بالإهانة. لم تنتبه إلى الجوِّ الذي انقلب فجأة من المرح والطرافة إلى الحزن، واستدرار الدموع، عندما

بدأت «أم عبدو» بغناء «سليمى»، لم تفهم كيف عرفت «لمار» اسم أمير البزق، ومن أين حفظت اسم المقطوعة الموسيقية؟ في غمرة انفعالها وضيقها، نسيت أنَّ «لمار» نقلت المذياع إلى غرفتها منذ زمن، وأنَّها تسهر الليالي تستمع إليه.. نسيت أنَّها لم تعد تشاهدها في الصالة إلا نادرًا! كان ذلك مريحًا لها، المهم فقط أن تبتعد عن عينيها.. لكن الآن أصبح الأمر في منتهى الإزعاج.

«لمار» صفَّقت لـ «أم عبدو» بحماس، وهي تهمس: «آه، آه»، وتمسح دمعة وهمية لم تنزل من عينها. وتنهض بطريقة مؤثرة لتنحني قليلًا، وتذهب إلى المطبخ! عادت بعد قليل، وقد حملت فناجين القهوة، ضيَّفت السيدات، وجلست قربهن، الأحاديث الحميمة حول القهوة، تناولت تخمينات حول مشاكل كل واحدة منهن، ومستقبلها.. اكتشفن حينها أنَّهن أمام عرَّافة، تقرأ الكفَّ، والفنجان، وتعرف من قادم الأيام ما جعلهن مشدودات إليها، ذاهلات عمَّا حولهن.

طالت السهرة، ولم تفطن السيِّدات إلى الوقت، حتَّى سمعن تنحنح «صخر» وهو يدخل إلى الصالة! عندها قمن على عجل، لملمن أشياءهن، وخرجن، وهنَّ يؤكدن على «أسينة» أن تصطحب «لمار» لزيارتهن في المرات القادمة! عندها شعرت «أسينة» أنَّ البساط يُسحب من تحت قدميها نهائيًّا. فقد فرضت «لمار» وجودها فيما تعتبره من خصوصياتها!

كلُّ ما اعتمل في صدرها تلك الأمسية من ضيق وحقد وغضب، صبَّته فوق رأس «صخر»: «لن يحتملنا البيت معًا، اطلب من عمتك أن

تعـود إلى القريـة». كان قراراها حازمًا لا يقبل نقاشًـا، لكنَّها فوجئت بردِّ «صخـر» البارد: «البيت لعمتي، ونحن ضيوف عندها، وهي التي تقرِّر إن كانت ستسـافر إلى القرية، أم ستبقى». تجمَّدت يد «أسينة» فوق تسريحة شـعرها، رمت الدبابيس بحنـق، والتفتت إليه: «لم أسـمعك جيدًا.. ماذا قلت؟». قال بالبرود نفسه: «بل سمعتِ، عمتي لن تترك البيت، لقد باعت كلَّ ما لديها في القرية، وجاءت لتعيش هنا، واشترت هذا البيت من مالها، وليكن بعلمك أيضًا، البيت ستتركه لابنتك بعد عمرٍ طويل».

لـم تعجبها فكرة أن تبقى «لمـار» معها وإن كان البيت لها، فهي قادرة أيضًا على بيع ما تملك وشـراء بيت يماثله، كادت تصرخ به: «لن تبقى»، لكنَّ شـيئًا في أعماقها أوقفها.. ليكن، سـتتركها هنا، ستخدمها، وستترك البيـت لها بعـد عمر لن يطول! فكَّـرت مليًّا، ما الـذي يضيرها من وجود «لمار»؟ لقد وفَّرت عليها الكثير من المصاريف، تعمل في البيت، تنسـج الصوف للأولاد، تتسوَّق حاجيات البيت، وهي لا تكاد تعمل شيئًا سوى الاعتنـاء بنفسـها، والترفيه عنها. لم تُظهر ذلك الرضـا المفاجئ لزوجها، تركتـه يعتقـد أنَّهـا مـا تـزال غاضبـة. أدارت ظهرها لـه، وغطَّـت في نوم عميق.

***

وكأنَّ صاعقـة نزلـت فـوق رأسـها، شـعرت بزلزلـة تحـت قدميهـا، وتصاعد الدم إلى رأسـها، أمسـكت بيد جارتها «منور خانـم» لتتأكد أنَّها مـا تزال واقفة علـى الأرض. «منوّر خانم» بادرت إلى التوقف، وسـألتها

بقلـق: «ماذا بكِ؟ هـل نذهب إلى الطبيب». ردَّت بصوتٍ خشـن جاف: «دُوَار بسـيط، الأمـر لا يسـتحق». أدركـت «منوّر» خلال دقيقـة أنَّ الأمر لا يتعلَّـق بـدوَار، ولا بمـرض مفاجـئ، فقـد لاحظـت بفطنتهـا نظـرات الضابـط الواقـف مـع رفاقـه أمام نـادي الضبـاط.. وفهمت أنَّ شـيئًا غير عادي يحدث. ضغطت على يد «أسينة» بقوة، وقالت غامزة صوبه: «إذن الطبيـب موجود!»، لم تنبس «أسـينة» بكلمة، في تلـك اللحظة كانت في مزاج سيئ، أبعد ما يكون عن تقبُّل أيِّ نوع من المزاح. كانت غارقة تمامًا فـي محاولة السـيطرة على مشـاعرها، بعـد أن رأت كيف توقـف، ونظر إليها بدهشـة، كيف صار يتشاغل عن الحديث، ويختلس النظرات بقلق. أخرجت نفسـها عنـوة من حالة الارتباك، وقالت لـ «منور»: «الفيلم كان جميلًا، لكن لن نأتي مرَّة أخرى إلى سينما الزهراء.. لم تعجبني الصالة». أدركـت «منوّر» ما يحصـل مع صديقتها، لهذا لـم تعلِّق على كلامها، فهي التـي اختارت أن تذهبا إلى سـينما الزهراء، وهي التـي اقترحت أن تزورا الحميدية بعد مشاهدة الفيلم لتأكلا بوظة من عند بكداش!

المصادفة الغريبة التي أثارت اسـتغرابها في البداية، تحوَّلت إلى لقاء متعمَّـد تـرك في نفسـها ضيقًا.. فمـا كادت تجلس في المحـل مع «منوّر خانـم»، حتَّـى رأته وقـد احتلَّ الطاولـة المقابلة لهـا! لم يبدُ الأمـر عاديًّا لعينيهـا، مع أنَّهـا ما زالت تعاني مـن عمق الجرح الذي خلَّفه في نفسـها حيـن تركها لأجل ابنة السـيِّد «منصور». «شـفق».. اللعنة التي تحاصرها فـي كلِّ زمـان ومـكان. كانـت نظراتـه الصريحـة المحدِّقة فيهـا واضحة

الهدف بشكلٍ فج. لم تتوقع أن ينهض من مكانه، ويقترب من طاولتها، ويلقي التحية: «كيف حالك أسينة؟ مضى زمن طويل لم أركِ فيه.. متى جئتِ إلى دار ميساك؟». تمتمت بجواب مبهم. التقطت «منوّر» الحديث، ودعته للجلوس، اعتذر بأنه لا يملك الوقت الكافي، وسيعوض ذلك في مرَّة قادمة! ومضى.

في طريق العودة بقيت صامتة، لم تهتم لثرثرة «منوّر» وحديثها عن روعة الفيلم، والنهاية المأساوية، وطعم البوظة.. لم يكن ذلك يعنيها في شيء.. كانت تبحث عن معنى ظهوره في حياتها، بعد أن كادت تبعده نهائيًّا عن مخيلتها، وتتأقلم مع وضعها كزوجة لموظف عادي. لمعت في ذهنها فكرة مفاجئة، لقد اتَّضحت الرؤيا أمامها.. لن ترفض لقاءه القادم، بل ستسعى إليه، إن كان قد قضى على مستقبلها في السابق، فبيده الآن أن يعوِّضها عن خسائرها بشكل جزئي!

في البيت كانت بحاجة لجوٍّ خاص، بعيدًا عن الضجيج، لتفكر بهدوء في الخطوة القادمة. لم تكن بحاجة للحديث المطول معه لتعرف المكانة التي وصل إليها، كان ذلك واضحًا من النجوم على كتفيه! النجوم التي طالما لعبت بأحلامها، وجعلتها تنظر دائمًا إلى الأعلى. ليس من السهل أن تتراجع عن حلمها، ستصل فوق، ستتربع فوق النجوم، وستنظر إلى باقي البشر من مكانها، عندها سيعرف كل هؤلاء قدْرها، وستجعلهم يعرفون قدْرهم جيدًا. أوَّلهم تلك الأفعى التي احتلت غرفتها منذ حوالي سنة!

***

«لمار» لم تكن غافلة عن التبدلات التي طرأت على «أسينة» وتصرفاتها. رصدت تلك التبدلات، وسعت لمعرفة السبب الحقيقي وراءها. استدرجت «منوّر خانم» لتشرب معها القهوة في غياب «أسينة» عصر اليوم التالي. قرأت لها الفنجان، وأخبرتها أنَّ في فنجانها أفعى ستلدغها في غفلة منها، وأنَّ الأفعى صديقة حميمة، وجهها ينضح طيبة وتسامحًا، لكنَّها تملك من الخبث ما يجعلها تحافظ على ذلك المظهر دائمًا. أرتها داخل الفنجان، وقالت لها: «انظري إلى المرايا الكثيرة، في كلِّ واحدة وجه لتلك الأفعى، هل تلاحظين اختلافًا؟». فتحت «منوّر خانم» فمها دهشة، فقد تهيَّأ لها أنَّ هناك الكثير من المرايا، وأنَّ فيها وجهًا واحدًا يحمل الابتسامة نفسها ونظرة العينين التي لا تتغير. هزَّت رأسها موافقة على قول «لمار»، التي استغلت الإشارة، ووضعت الفنجان أمامها وهي تقول: «الأفعى التي تجيد الحفاظ على شكل وجهها في الحزن والفرح وكلِّ المناسبات، ولا تحمل سوى تعبير واحد طيب ومسالم.. تلدغ من دون أن تترك أثرًا». قالت ذلك، وانتقلت مباشرة إلى حديث آخر من دون مقدمات. سألتها: «هل كان الفيلم ممتعًا؟ أنا عاتبة عليكِ.. لماذا لم تخبريني؟ أنا أيضًا أحبُّ الأفلام العاطفية». قالت «منور» وهي تداري حرجها: «أنا ظننت أنك لا تحبينها، أسينة قالت لي إنكِ تفضلين البقاء في البيت، وأيضًا لا تستطيعين المشي، فقد تمشينا حتى الحميدية، وأكلنا بوظة عند بكداش، والتقينا هناك ضابطًا من قريتكم...». أرادت «منوّر» أن تتراجع عمَّا قالته، لكنَّ الوقت قد فات.. فقد شعرت بنظرة حارقة في عيني «لمار»، وكأنَّها لمعة انتصار.. قالت لتصحح خطأها:

«كان الأمـر مصادفـة بحتة، يعني نحـن لمحناه في مدخل نـادي الضباط حيـن خروجنـا مـن السـينما.. فقط، سـلَّم، ومشـى». لم تصـدِّق «لمار» التصويب الذي سـعت «منـوّر» إليه، كانت الصورة شـديدة الوضوح في مخيلتها. «أسـينة» ذهبت إلى الحميدية، وتبعها إلى هناك، وجلسـا معًا.. هكـذا الصورة صحيحة. أمَّا ما حاولت «منوّر» إثباته بعد أن استدرجتها في الحديث فلا يعنيها في شيء.

لـم يخطـر في بـال «أسـينة» أنَّ خروجها ذلـك اليوم عصـرًا لوحدها بحجة التسـوق، وذهابها إلى الصالحية، سيكون فرصة «لمار» لمعرفة ما تحاول إخفاءه. تمشَّـت في الشـوارع مدَّة سـاعتين حتَّى شـعرت بالتعب والغيـظ.. مرَّت أمام النادي عدَّة مرَّات، لكنَّها لم تلمحه! عادت أدراجها إلـى موقف الباص، وانتظـرت هناك. كانت قد وصلت إلى مرحلة اليأس من رؤيته حين توقفت أمامها سيارة عسكرية، أنزل سائقها زجاجَ النافذة، وقال: «تفضلي لأوصلك». في عينيه نداء لا يقاوم! اقتربت من السـيارة، ووقفت محتارة، نزل من مكانه، فتح لها الباب الأمامي، وأشار لها بيده.. ثم عاد إلى مقعده. «أين تسكنين؟». سألها. لم تجب، بقيت صامتة، قال: «أنـا قليل الذوق حقًّـا، يجب أن أدعوكِ إلى فنجان قهـوة.. على الأقل». توقف في سـاحة المرجة.. نزل بسـرعة، وفتح لها باب السيارة، وجعلها تسير أمامه. أربكها الإتيكيت، فهي لم تعتد الدخول إلى المطاعم، وحتى إن صدف وفعلت، فهي تمشي وراء زوجها، تستدل الطريق من خطواته، وتجلـس حيـث يختار! كان عليهـا الآن ألا تلتفت إلـى الخلف، أن تنظر

أمامهـا، لتختـار الطاولـة بنفسـها، وأن تترك لـه معطفهـا، وأن تنتظر كي يسـحب لها الكرسـي، وتجلس.أن يجلـس مواجهتهـا. وأن تواجه عيني النـادل أيضًا لتقوم باختيار الطعام! أراحها قليلًا أنَّ المطعم الذي اختاره، كان مشـهورًا باللحم المشـوي على الفحم.. وأنَّها سمعت من صديقاتها عنه قبل الآن، فطلبت لحمًا مشويًّا على الفحم، ولبنًا رائبًا! قال وهو يغمز بعينـه: «مـا زلتِ لا تحبين الخضار؟ السـلطة مع اللحـم ألذ!». تجاهلت ملاحظته مع أهميتها بالنسـبة لها، فهو يذكر جيـدًا عاداتها في الطعام؟ أم تـراه يلمِّح إلى أنها لم تتخلَّص مـن عاداتها القروية بعد! كيفما كان الأمر فهنـاك مـا هو أهم. لقـد كان يراقبها، متأكـدة أنه كان في النـادي، ورآها، وتبعها. ما هي متأكدة منه أكثر أنها لن تكون آخر مرَّة، بل تكاد تكون على يقين أنَّ علاقتهما ستتجدَّد، وتأخذ شكلًا أجمل من السابق. فهنا تستطيع أن تهرب من أعين الرقباء، ولن يستطيع أحد سرقة حلمها ثانية!

في الخامسة غادرا المطعم الذي يغلق أبوابه في ذلك الوقت، أخذها في السيارة إلى طريق الربوة، احتجَّت بأنها تأخرت، قال: «مشوار قصير، ونرجـع، أريـد ان أتنفَّـس معك هـواءً نقيًّـا، وأريح أعصابـي من صخب المدينة». قالت: «لكنَّها ليست صاخبة إلى هذا الحدِّ! بالعكس هي مدينة هادئة في رأيي، وهواؤها نقي في كلِّ وقت». قال: «صحيح كلامك، لنقل إذن إننـي أردت فقـط أن نكمل حديثنا عنكِ. حدِّثيني، كيف تعيشـين مع صخـر هذه الأيام؟». ردَّت بسـؤال: «ألا تلتقيان؟ على حـد علمي كنتما صديقيـن حميميـن». قال «مغيـث» بلهجة حياديـة: «كنَّا، نعـم، لكن هو

ابتعـد، منذ أقالوه من عملـه، توارى عن الأنظار، حتَّـى المقهى الذي كنَّا نجتمع فيه لم يعد يأتي إليه. يبدو أنَّه اختار مكانًا آخر وأصحابًا آخرين!».
لـم تعلِّـق، كانت تفكِّـر في أمر لم تحسـمه بعـد، أرجأت البـت فيه حتَّى تدرسـه بشـكلٍ أفضل. طلبت منه أن يوصلها إلى أقرب مـكان لبيتها، لم تشـأ أن تخبره أين يقع، مع علمها أنَّ معرفته من أسـهل ما يكون بالنسـبة إليه. أكملت طريقها مشـيًا على الأقدام. حين وصلت أوَّل الشارع، رأت «لمار» واقفة في الشرفة، وقد أسندت ذراعيها على حجر السور، وأحنت جذعها إلى الأمام، ونظراتها تمشِّط الشارع والمارة ذهابًا وإيابًا. تساءلت، أهي مصادفة، أم أنَّها تنتظرها؟

أدركـت أنَّهـا لـم تكـن مصادفة بمجـرد دخولها الصالـة المعتمة. من الواضـح أن «لمـار» لـم تكـن تراقب مغيب الشـمس، فهي لـم تهتم يومًا بالجلوس في الشرفة والتمتع بمنظرٍ أو هواء! كانت دائمة المراقبة لحركة الشـارع والناس. رأتها تجلس على كرسي قرب باب الشرفة وتحدِّق في الفـراغ! لم تكن نظرتها موجهة إليها، لكنَّها شـعرت بها تتفحصها بهدوء مريـب. وصلتها الرسـالة، تكهرب جسـدها، وشـعرت برعشـة غضب، سيطرت عليها بسرعة. دخلت غرفتها من دون إلقاء التحية، أغلقت الباب بعنـف، كانت تريـد أن تُفهم «لمار» أنَّهـا لا تهتم لشـكوكها ورقابتها! لم يكن لدى «لمار» في تلك اللحظة أي نية في كشـف أوراقها، ولم تفكِّر في فضح السـرِّ الذي عرفته، أجَّلت ذلك إلى الوقت المناسـب! فقد اعتبرت نفسـها مسـؤولة عن تورط ابن أخيها في هذا الزواج.. همسـت لنفسـها: «سأصلح ذلك كله، حتى لو بهدم المعبد على رأسها كما بنيته!»

لـم تغادر «لمـار» مكانها عند باب الشـرفة على الرغـم من الضجيج الـذي افتعلتـه «أسينة».. كانت هناك ساكنة فـي العتمـة، وكأنَّها فارقت الحياة. انتبهت «أسـينة» إلى سكونها الغريب، وظنَّت للحظات أنَّها فعلًا قد فارقت الحياة! لكنَّها نهضت فجأة، هبَّت كزوبعة، حملت الطفلين معًا، دخلت غرفتها، وأغلقت الباب بهدوء. بعد دقائق، لم تعد «أسينة» تسمع من الغرفة أيَّ صوت يدل على صحوها. سادت العتمة.. والصمت!

فـي الصباح رنَّ الهاتف.. نهضت بتثاقل، رفعت السـماعة، وانتظرت أن تسـمع صوت إحدى صديقاتها تدعوها لشـرب قهوة الصباح عندها. لكـنَّ صوتًا ذكوريًّا خشـنًا فاجأهـا قائلًا: «هل صخر موجود؟». سـكتت محاولة أن تسـتعيد نبرات الصوت لتتأكد إن كان هو. كرَّر السـؤال ثانية. قالـت: «ليس هنا، في عمله». قال: «سـيدي المقدم مغيث يريد مقابلته». قالت باهتمام: «متى؟». صاحب الصوت غاب قليلًا، تحدَّث مع شخص آخر، ناوله السـماعة، سمعته يقول بصوتٍ محايد، يحمل في نبرته إيحاء بالاستعجال: «صباح الخير سيدتي، أرجو أن تخبريه أنِّي طلبته شخصيًّا، دعيه يمر عليَّ في مديرية إدارة شـؤون الضباط. أريده لأمر هام». وأغلق الخـط. بقيـت واقفة زمنًا طويـلًا، وهي تفكـِّر بمعنى الحديـث، بالتأكيد لا يقصدها، هو فعلًا يريد «صخر»، ولا يدعوها للقائه! الغريب في الأمر أن يدعـو زوجهـا للقائه في هذا التوقيت! لـم يكـن أمامها خيار، يجب أن تخبر «صخر». اختارت عدم الانتظار. اتصلت به في مكان عمله، وأخبرته أنَّ صديقـه المقدم «مغيث»يريد رؤيته في مقره. لـم يكن هينًا ذلك الوقت

الـذي قضتـه في انتظار نتيجة اللقاء، ومعرفة سـببه، على الرغم من يقينها أنَّ الأمر الذي طلب زوجها لأجله ليس متعلِّقًا بها!

كانـت «لمار» تنصت للمحادثة، وتراقب ردَّة فعل «أسـينة».. كان من الصعب أن ترصد انفعالاتها.. فقد استفادت من تجربة المرايا! استطاعت مـع الوقـت أن تضبط تعابير وجهها على نمط واحد مهما كان إحساسـها الداخلي عنيفًا، تبدو في منتهى الهدوء، حتى أصبحت بشرتها أيضًا بلون واحد لا يتغيَّر، لون شـاحب بارد كلون مومياء. نقلت «لمار» نظراتها بين الهاتف وأصابع «أسينة» المتشنجة على غطاء الطاولة. لا شكَّ أنَّه هو مَن كان على الخط، لكن كيف ستعرف تفاصيل المحادثة؟

علـى الرغـم مـن أنَّ الدهـاء لا ينقصهـا، إلا أنهـا لـم تجـد الوسـيلة المناسـبة للدخول إلى أعماق «أسـينة» ومعرفة خفاياهـا. أبعدت «منوّر» من حسـاباتها، «أسينة» لن تقع في هذا الفخ المكشوف، إن كانت القضية خاصة، وتتعلَّق بـ «مغيث»، فهي ليست من النوع الثرثار الذي لا يستطيع الاحتفـاظ بحياتـه الخاصة بعيـدًا عن أعيـن الفضوليين. كمـا أنَّ «لمار» لا تسـتطيع تعقبهـا أينمـا ذهبـت، تحتاج لهـذه المهمة الخطيرة شـخصًا مخلصًا وكتومًا، وعليها أن تجده!

عندمـا دخـل «صخـر» البيت عصـرًا، اختلَّ تـوازن الكـون في عيون المرأتيـن، «لمـار» لـم تسـتوعب أحاسيسـها المتناقضـة دفعـة واحدة.. «أسـينة» تلقَّت الخبر ببرود وحياد في الوقت الذي كان ذهنها يعمل على تجميـع الخيوط كلها «اللقاء، المكالمـة، الهدف البعيد المدى!». قالت:

«مبروك». وحرَّكت يديها لتتناول الطعام بشكلٍ آلي.. ذهنها اليقظ كان مشغولًا تمامًا بأشياء لا علاقة لها بما يدور حولها. «لمار» تخلَّت عن تحفظها، ونهضت من مكانها لتحتضن ابن أخيها، وتبارك له، و دمعة لم تحبسها، بقيت معلَّقة في مقلتيها، تأبى أن تفصح عن الاضطراب العميق لمشاعرها. غفلت في تلك اللحظات عن ردَّة فعل «أسينة»، لكنَّها استعادت كل ما حدث بعد ساعات، وهي مستلقية على سريرها، وقد أغلقت الباب بالمفتاح! درست تلك الملامح الباردة بما ينبئ عن احتمالين، إمَّا أنَّها عرفت الخبر مسبقًا، فلم تتأثر به، وإمَّا أنَّ الخبر كان مزعجًا بالنسبة لها، فرفضت أن تبدي فرحًا كاذبًا!

في تلك اللحظات لم تكن «أسينة» مشغولة بمخططات «لمار» وأفكارها، ولا بعودة «صخر» إلى عمله، ولا بالولدين، ولا بأيِّ شأن من شؤون عالمها الصغير.. كانت تفكِّر به فقط. لماذا سعى لإرجاع «صخر» إلى عمله إن لم يكن من أجلها؟ هل فهمت قصده من وراء تلك الحركة؟ أم أنَّ الهدف ليس بعيد المدى إلى هذه الدرجة!

«صخر» كان حريصًا جدًّا أثناء نقله الخبر، أن يعطي أهمية كبيرة لصديقه الذي لم ينسَ العشرة والخبز والملح والصداقة الطويلة! وكان يؤكد على وجوب تمتين العلاقة بينهما ثانية. نظر في عينيها وهو يقول ذلك أكثر من مرَّة، لكنَّها على ثقة أنَّه لم يكن يعني أكثر من حثها على القيام بدورها الطبيعي في هذا المجال، وهو دعوة صديقه إلى الغداء، والاحتفاء به. وعلى الرغم من معرفتها لمشاعر «لمار» الحقيقية بالنسبة

لـ «مغيث»، إلا أنَّها لم تهتم لأمرها، كانت تدرك أنَّ هذه الخطوة التي اتخذها «مغيث»، وإن شملت مصلحة زوجها، وعائلتها، إلّا أنّها تصبُّ في مصلحتها الخاصة أولًا وأخيرًا.. كانت على ثقة أنَّ هذه الهدية التي قدَّمها لها لن تكون الأخيرة!

هذه المرَّة لم تصل إلى سماعة الهاتف في الوقت المناسب، سبقتها «لمار»، وردَّت.. فهمت بسرعة أنّه هو على الخط، فقد احتقن وجه «لمار» غيظًا، لكنَّها ضبطت أعصابها، وتحدَّثت بهدوء.. رحَّبت به، وشكرته، ودعته إلى الغداء يوم الخميس! لقد جاءتها الفرصة على طبق من ذهب، لن تحتاج الهدهد ليأتيها بالخبر اليقين. سيجلس أمامها حول مائدة الطعام، وستعرف أدقَّ أحاسيسه.. لن تفلت الخيوط من يدها.. لن تكسب «أسينة» الجولة! ملأها هذا التفكير بالطمأنينة والرضا عن النفس، بينما كانت «أسينة» خلف ستارة باب المطبخ تتنصت على المكالمة، ترصد انفعالات غريمتها بكلِّ حواسها. شعرت بالإحباط لأنَّ مجال الرؤية لم يكن يسمح لها بالتدقيق جيدًا، والاستماع. لكنَّها التقطت أهم ما في المكالمة، موعد يوم الخميس! الموعد الذي بالغت في تجاهله ظاهريًّا، حتى سألها «صخر» إن كانت تحتاج إلى شيء معيّن لتطبخه يوم الدعوة.. ردَّت ببرود: «لا علاقة لي بأمور الطعام، اسأل عمتك». قال وابتسامة صفراء لا تفارق شفتيه: «أعرف أنَّ عمتي هي المسؤولة، لكنَّ الضيف يعنينا جميعًا، قلت ربَّما تحبين أن تظهري أمامه سيدة البيت، ولا تتركي الأمر لعمتي». قالت بلا مبالاة: «ومَن يكون ضيفك الذي

تريدني أن أبدو أمامه سيدة هذا البيت؟ منذ جاءت لمار تخليت مرغمة عن هذا الدور، وأنت من أراد ذلك!». قال بهدوء: «أنت تعرفين ضيفي، وتعرفين أهميته بالنسبة لي، هو الذي فتح لي باب الحلم ثانية، حلمك أنتِ، أم نسيتِ؟». قالت من دون اهتمام: «كان حلمي، الآن اعتدت حياتي، ولم يعد يهمني في شيء». لم تعرف كيف أفلتت منها تلك العبارة. هل حقًّا لم يعد يعنيها ذلك الحلم في شيء؟ لقد جاء الحلم في التوقيت غير المناسب؛ لأنَّها بدأت بنسج حلم جديد على مقاسها، وعليها الآن أن تنقض ما نسجته! ومع هذا يجب أن تدرس خطواتها القادمة، على ضوء الإشارات التي يرسلها الحلم الجديد!

لم تكن «لمار» بحاجة لمجهود لفكِّ شفرة النظرات المختلسة أثناء الطعام، والأحاديث العابرة التي لا هدف لها! العناية المفرطة التي بذلتها «أسينة» في ترتيب المائدة، واختيار أصناف الطعام، والأواني، وثوبها، وتسريحة شعرها.. كل تصرف قامت به ذلك اليوم يضفي مسحة عشق على الأشياء! كانت تمتصها «لمار» بحقد لم تستطع إخفاءه، فظهر على شكل كلمات لسعت قلب «أسينة»، وذكَّرتها بأنَّ «لمار» تعرف ماضيها جيدًا، وأنها ستشد الحبل حول عنقها في اللحظة التي تريدها! ذلك التيقظ الدائم أتعب أعصابها، وعلى الرغم من محافظتها على شكلها الهادئ اللا مبالي، وملامحها الحيادية الباردة!

همس لها، وهو يأخذ الفوطة من يدها ليمسح يديه: «غدًا في الخامسة». وأشار بيده إلى الهاتف. ناولها الفوطة، وأثنى - بصوت حرص على أن

يسمعه الجميع - على طعامها وترتيبها وأناقة بيتها: «يسعدني أني كنت ضيفكِ سيدتي». أسكرها المديح، وأكثر منه مناداته لها بـ«سيدتي». الياء تلك، يدٌ احتضنتها بقوة، وأسدلت فوقها عباءة رغبة خانقة!

كان النسيم المعبَّأ بأكواز من أزهار الطيّون يلفح وجهها، فتنتشي المسام الباردة، وتتلوَّن لأول مرَّة منذ أزمان سحيقة بحمرة خفيفة طارئة على بشرة اعتادت لون الموت المحايد. همس في أذنها: «كم مرَّ من الزمن!». قالت: «دهرٌ بأكمله!». همس ثانية: «ألم تشتاقي إلى ذلك الشعب القديم بين الكروم؟». قالت: «وأنت؟». تنهَّد بقوة، وهو يدوس على فرامل السيارة، ويوقفها بجانب الطريق. نزل، وفتح لها الباب: «انظري إلى النهر». قالت بنبرة حرصت أن لا تظهر ضيقها: «رأيته كثيرًا، في كلِّ مرَّة أذهب إلى القرية أمرُّ من هنا، ما الجديد فيه؟». قال: «ألا ترين فيه جديدًا! إنها المرَّة الأولى التي تكونين معي أمامه، سيكون شاهدًا على عودتنا إلينا!». قطف بعض أزهار الطيّون، وقدَّمها لها. أمسكتها لدقائق، ثم رمتها في النَّهر، واستدارت لتصعد السيارة. ركب هو أيضًا، أدار المحرِّك بصمت، وبعد دقائق سألها: «لستِ سعيدة! هل ضايقتك في شيء؟». لم ترد. عاد وسألها: «هل تحبين أن نعود؟ لا تجعليني أشعر أني أكرهتك على المجيء.. أنا لم أفكر بالحصول على مقابل لأني أعدت صخر إلى عمله. إن كان هذا ما تشعرين به، لنعد». قالت، وقد انفرجت أساريرها قليلًا: «أكيد؟ هل حقًّا لم تفكِّر بالمقابل؟»، لم يتركها تكمل، أخذ يدها، وقبَّلها. قال: «سأثبت لكِ ذلك.. سنحضر عيد النيروز في

الجبال، ونعود بعد ساعات. قبل الليل ستكونين في البيت». قالت: «لا، لا أستطيع، لقد أخبرتهم أني مدعوة لحضور العيد، وسأبقى حتى صباح الغد». قال ضاحكًا: «حسنًا، سأوصلك إلى أيِّ صديقة لكِ، في أيِّ مكان تستطيعين أن تثبتي وجودك فيه إن كنتِ قلقة من البقاء معي». قالت كأنما لتثبت لنفسها قبل أن تثبت له: «أنا مسؤولة عن تصرفاتي، لا أحد يطلب مني تقريرًا»، وأضافت بنبرة انزعاج: «إلا إذا كنت أنت تبحث عن مبرر!»، حدَّق فيها للحظات، ثم بكل هدوء، التفَّ بالسيارة متخذًا طريقًا آخر لا يقود إلى الاحتفال!

***

الهدية الثانية التي فاجأها بها «مغيث» بعد أشهر كانت أشدَّ وطأة على قلبها، وأكثر ثقلًا مما تحتمل، لم تكن تنتظر ترقية زوجها إلى رتبة لواء دفعة واحدة! شعرت أنها بين فكَّي رحى، لن تتركها إلا أشلاء! أصعب ما تمر به الآن أن تعيش شعورين متنافرين في آن واحد. كيف ستجمع بين الكراهية والحبِّ وأي كفَّة ستميل؟ تمنَّت لو أنه لم يفعل، فقد بدأت حياتها تتخذ طريقًا آخر منذ لقائهما الأخير، وصل حاضرها بماضيها! ساعات فقط كانت كافية لإعادة عقارب الزمن إلى توقيت الكروم، حيث كانت خالية الذهن من أحلام السلطة، ومخططات الكراهية المتبادلة مع «لمار». كانت تقبض على الشمس بوضوح. «مغيث» الذي أوقف الزمن، واغتصبه معيدًا كل اللحظات المختلسة بارتعاشها وجنونها، هو نفسه من دفعها الآن بعنف إلى شاطئ لم تعد ترغب في الوصول إليه.

تركها غاضبة وعاجزة عن القبول بالتحكم بحياتها من جديد بعد أن شعرت أنها هي مَن سيُحكم قبضته على كلِّ شيء.

غرق «صخر» في عمله تمامًا، كانت المهام الموكلة إليه بعد تعيينه قائدًا للقوى الجوية والدفاع الجوي، تتلخَّص في توسيع شبكة مؤيدي الحزب في القوات المسلحة. فقدأدرك أهمية وخطورة السيطرة العقائدية على الجيش، منذ بداية انتسابه للحزب وعمله السياسي عندما كان طالبًا، إلى أن زار الاتحاد السوفييتي ليتدرَّب على قيادة الطائرات النفَّاثة. رأى بعينيه، ولمس على أرض الواقع نتائج الفكر الشيوعي الاشتراكي في إخضاع ملايين البشر بقوة عقيدة أو فكرة! لم يكن يؤمن بالفكرة من حيث قابليتها للتطبيق والرفع من سوية المجتمع والإنتاج، بل كان يرى أبعد من ذلك، أهمية الفكرة كأداة جذب إلى المطحنة الكبرى! وأهم فئة بشرية في نظره كانت تلك التي تحمل سلاحًا ومهمتها الدفاع عن الوطن! أصعب ما يواجهه الآن هو تحديد مفهوم الوطن وترسيخه في أذهان هؤلاء، ليستطيع أن يشكِّلهم عجينة طريَّة بين يديه، يخلق منها ما يشاء! عملية الخلق ليست سهلة كما تصوَّر، كان عليه أن يصارع عقولًا متنورة قبل أن يبدأ خطواته الأولى بالتغيير. فقد سنَّ مَن سبقوه في قيادة الجيش قواعد وقوانين يصعب تجاوزها في وقت قصير، لكنَّه وضع خططه للتخلُّص من كلِّ القيود الموضوعة على الجيش كي يستطيع أن يقوده إلى الهدف الذي يريده. خطته كانت قصيرة المدى، تحتاج إلى

طاقة استثنائية لا يملكها إلا مَن وضع هدفًا عظيمًا نصب عينيه، وصمَّم على الوصول إليه.

كانت «لمار» الحضن الذي ما زال مليئًا بالحلوى الملوَّنة المسروقة من أفواه الآخرين بقوة الدهاء والفطنة. أول شخص لجأ إليه بعد عزلة طويلة، انسلخ فيها عن جوٍّ الأسرة الصغيرة ليحتضن أسرة كبيرة من الجنود والضباط، شُغل بها عن كلِّ ما حوله، حتى دخل متاهة المكائد والمؤامرات. كان بحاجة لشخص يستطيع أن يفكِّر أمامه بصوت مسموع ليرى وقع أفكاره ومدى فاعليتها. لم يلجأ إلى «أسينة»، كانت بعيدة جدًّا، غارقة في صنع أحلامها الخاصة، فقد فرضت عليه بمناسبة المنصب الجديد الانتقال إلى السكن في حي أرقى، غيَّرت أثاث البيت، غيَّرت صديقاتها، صارت ترتاد الحفلات والنوادي، وأحضرت خادمة للبيت الكبير، لتحدَّ قدر الإمكان من سلطة «لمار»!

«لمار» التي لجأ إليها في الساعات الحالكة، كما كان يفعل وهو صغير، كانت تدرك تلك الحقيقة. أدخلته غرفتها، وأسدلت الستارة، وحرقت البخور، ووضعت له مشروبًا باردًا.. وجلست تستمع إليه بكلِّ حواسها. تهيَّب قليلًا وهو يحاول أن يطرح أفكاره عن السلطة والطرق الملتوية للوصول إليها. ابتسمت هي وسط العتمة، وقالت بصوتها العميق الخشن: «لا تتحقق غاية عظمى من دون ضحايا». اهتزَّ جسده برعشة باردة، تصبَّب عرقًا على إثرها، سمع صوتها آتيًا من جبٍّ عميق يحضُّه: «لا تترك شيئًا يقف في طريق أحلامك، أزله من طريقك، وإن

احتجَّت عليك ذراعك، اقطعها». ارتجف ثانية.. قالت بنبرة حادة باردة: «لا بأس أن ينتفض جسدك الآن، لكن حذارِ أن تتركه يفعل مرَّة ثانية. هل رأيت جسدًا ينتفض بعد الموت؟ الوصول يحتاج منك أن تقتل كلَّ إحساس فيك. حاذر أن تُبقي في نفسك شيئًا قبل أن تبدأ». لم يكن بحاجة لأكثر مما قالته «لمار». درسها الأوَّل في الوصول إلى السلطة، هو الدرس الأخير بالنسبة إليه! قبل أن ينهض ليغادر الغرفة، أمسك يدها بقوة، وهمس: «عمتي، أنا مدعو إلى حفلة خاصة في بيت الرئيس غدًا.. الأمر يقلقني جدًّا، فأنا مدعوٌّ وحدي. ماذا أفعل؟». حدَّقت في عينيه بثبات، وقالت: «هل عليَّ أن أعيد ما قلته لك؟ انتظر أن يفعل مَن دعاك إلى الحفل. وتصرَّف كما تقضي مصلحتك». حين أفلتت يده، تأكدت «لمار» أنَّها ستكون المرَّة الأخيرة التي يأتي إليها طالبًا المشورة. وكانت على يقين أنَّ الحبل المتين الذي يربطه بـ«مغيث»، قد بدأت عقده تنحلُّ!

كانت الأضواء الخافتة، والمائدة العامرة، والوجوه الغريبة، والجوُّ الأسطوري، أسبابًا كافية ليتعثر «صخر» أثناء دخوله قاعة الطعام الفخمة! الأثاث الملكي، الثريات الضخمة، الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، والخدم الذين يرتدون الملابس الرسمية للحفلات، والتي لم يشاهدها من قبل سوى في الأفلام. لم يكن يعرف أصول الإتيكيت، ولم يتدرَّب على البروتوكولات الخاصة بحفلات رؤوس السلطة، فهو رجل عسكري، جاء من القرية، لم يتخلَّ عن لباسه العسكري فمنه

يستمدُّ إحساسه بالقوة.. ولم يعنِه من كلِّ المظاهر المبهرة حوله سوى أنواع الطعام الغريبة التي غصَّت بها المائدة! كان يتناول طعامه بشراهة، وكأنَّ غولًا تسكن معدته مستعدة لالتهام كل شيء من دون أن تحس بالشبع! لم يشعر بنظرات ذلك التاجر المغترب، الذي كان يشرب قدح النبيذ على مهل في الطرف الآخر من المائدة، ويراقبه باهتمام! فجأة شعر بيدٍ تربت كتفه بخفة، التفت إلى الوراء، فوجد عينين سوداوين تحدِّقان به بنظرة عميقة. اقترب منه حتى لامست ذقنُه كتفَه. همس: «أريد أن أراك على انفراد». ناوله بطاقة كُتب عليها العنوان بخط أنيق مُذهَّب الحروف. واستدار مغادرًا القاعة، من دون أن يلتفت وراءه، أو يضيف كلمة واحدة!

نظراته كانت تخترق جسد «صخر»، وتصل أعماقه كاشفة كل خباياه! من وراء طاولته استقبله.. لم ينهض، لم يمدَّ يده لمصافحته، بل رحَّب به بلهجة ناعمة باردة، شعر بها تنزلق على عنقه عرقًا باردًا، وتنسلُّ إلى صدره، وتستقرُّ في رئتيه، فيضطرب تنفُّسه! الكلمات الملساء التفَّت حول عنقه، وضغطت حنجرته!

كان «ثابت أمين» الثري، ذو العينين الصقريتين، والبشرة السمراء الشاحبة، يمدُّ يده إلى شعره الأسود الكثيف المسرَّح بعناية، يخلِّله بأصابعه الدقيقة، ويقرأ في كفِّ يده الثانية المستقرَّة على الطاولة خطوط المستقبل بتفاصيله الدقيقة!

لولا أنَّ سمعه كان جيدًا، ونظره كان حادًّا، وذهنه كان حاضرًا، وكلَّ حواسه في حالة استنفار تام، لقال إنَّه أمام عرَّاف مغربي.. له ملامح يهود إسبانيا، ويتكلَّم العربية بطلاقة!

أنهى «ثابت» حديثه عن الماضي، ومعلوماته الدقيقة حول حياة «صخر» العامة والخاصة.. وتكلَّم عن رؤيته للمستقبل بنفس الدقة والتفاصيل، وأضاف إليها الشروط التي يجب أن يلتزم بها «صخر» كي تتحقَّق الرؤيا. لم ينتظر من «صخر» أن يعطيه عهودًا أو مواثيقَ، فقط طلب منه أن يوقِّع على ورقة بقبوله الكامل لشروط العقد الشفهي الذي تبادلاه، ليقوم هو بدعمه بشكل خفي لتحقيق طموحه. لم يكن «صخر» بحاجة للتفكير بالأمر. وقَّع مباشرة، وقلبه يخفق بعنف.. لقد صار قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه!

لم تكن مرافقة «ثابت» لـ «صخر» إلى الجولان، واستعراضهما للمناطق العسكرية أمرًا مستهجنًا أو غريبًا. فقد اعتاد المغترب الثري الذي أغدق أموالًا طائلة على قادة الحزب لإعادة بناء تنظيمهم الذي حُلَّ في عهد الوحدة، وتثبيت أقدامهم في قيادة الجيش والدولة، أن يزور أصدقاءه من الضباط في أماكن عملهم. ولم يكن أحدهم يجد حرجًا في الحديث أمامه عن الخطط التكتيكية للحرب المحتملة ضد إسرائيل. ولم تكن أسئلته حول مواصفات الطائرات أو الفروق بين أنواع الدبابات أمرًا يلفت انتباه أحد! مع هذا لم يوافق «صخر» على خروجهما معًا من

دار ميساك، بل دعا أحد المقربين إليه ليرافق المليونير، وليلتقيه هناك بمحض الصدفة!

تمكَّن «ثابت» في هذه الجولة من تصوير مواقع الاستحكامات العسكرية بدقة بواسطة كاميرا مثبتة في ساعته.. هي آخر ما توصَّلت إليه الصناعة الأمريكية. زوَّد «ثابت» قادته في تل أبيب بتفصيلات وافية للخطط الدفاعية السورية في منطقة القنيطرة.. وأبلغهم بوصول صفقة دبابات روسية الصنع من طراز «تي 54» وأماكن توزيعها.. وتفاصيل الخطة السورية التي أُعدَّت بمعرفة خبراء روس لاجتياح الجزء الشمالي من فلسطين في حال نشوب الحرب!

***

حرستا - المخابرات الجوية، كانون الثاني 2013

زائدة دودية!

ليست المرَّة الأولى التي تهاجمه فيها تلك الآلام العنيفة في معدته، الألم مزمن ويعود إلى أيام الطفولة، وهو يدرك جيدًا أنَّ طريقة العلاج حمية وتنظيم في الأكل، فقد امتنع طيلة سنوات عن تناول البرغل، والبهارات بأنواعها وخاصة الفليفلة الحمراء. لكنَّ الحمية التي كانت قاسية وصعبة في يوم ما، أصبحت الآن رفاهية لا يمكنه الحصول عليها. عليه أن يأكل العدس والبرغل، وكل ما يُقدَّم إليهم من طعام غير نظيف، ولا يخضع للشروط البشرية أبدًا، أو يموت جوعًا! نُقل إلى المستشفى العسكري، أو «المسلخ» كما يسميه المعتقلون، وهو في حالة صعبة. إحدى الممرضات عطفت عليه، وأحضرت له دواءً سرقته من صيدلية المستشفى؛ إذ لم يكن مسموحًا سوى بأنواع محددة من الأدوية للمعتقلين، يتناولونها سواء كانت مفيدة أم لا. كان حظُّه من السماء حين دخلت عليه تلك الممرضة ليلًا، فتغزَّل بها على غير عادته، وكانت قبيحة جدًّا! فغامرت بإحضار الدواء الذي كان يتناوله قبل اعتقاله، وزوَّدته بظروف مسكنات ألم إضافية، وأهدته برتقالة. فقال لها: «ليتهم يبقونني

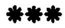
هنا قربك». ابتسمت، وتلوَّن وجهها بحمرة خفيفة. قال لنفسه:«يا ألله! كم من الورطات يمكن أن تنقذك منها كذبة، وكم يمكنها أن توقعك في ورطات أشد قسوة من تخيلاتك. ماذا فعلت أنا الآن؟». لم يترك لتأنيب الضمير سبيلًا للسيطرة عليه، كان في حال يستطيع معها أن يقترف أيَّ حماقة في سبيل التخلُّص من آلامه!

الطبيب المناوب الذي فحصه، قرَّر أنه بحاجة لعمل جراحي لاستئصال الزائدة الدودية. الممرضة التي وقفت خلف الطبيب أشارت برأسها بالنفي، فهم رسالتها بسرعة، فقد سبق للسمعة السيئة للمستشفى أن وصلته من معتقلين عُذِّبوا هنا، وضُربوا من قبل الأطباء، وحكوا عن آخرين ماتوا أثناء عمليات جراحية أُجريت لهم غصبًا، ولم يكونوا بحاجة إليها! وقد شاع بين الجميع، أنَّ الأطباء هنا يتاجرون بالأعضاء البشرية المنتزعة من المعتقلين المحالين من أفرع الأمن! قال للطبيب: «لا أريد يا دكتور، يكفيني أن آخذ مسكّنًا للألم». نظر الطبيب في وجهه بلؤم، وقال: «أنا الطبيب، أنا مَن يقرِّر ماذا تحتاج». كتب تقريره على ورقة، وناوله للممرضة، وخرج. الممرضة اقتربت منه، وهمست: «عليك العودة في الصباح في السيارة التي تأخذ المعتقلين. ذلك أفضل، سأمزِّق التقرير». نظر في وجهها بامتنان، أراد أن يقول شيئًا، أن يشكرها، لكنَّه لم يستطع، شعر أنَّ الكذبة الأولى تمسك بخناقه، على الرغم من صدق مشاعره في هذه اللحظة، إلا أنه عجز تمامًا عن الكلام. هي ظنَّت نظرته تحمل مشاعر حبٍّ، خفق لها قلبها، وخرجت مسرعة من الغرفة. خشيت على

قلبها من الانسياق لمشاعر لم تجرِّبها في حياتها.. كما خشيت عليه.

لم تنم تلك الليلة، كانت حريصة على إيصاله بنفسها إلى باب المستشفى، وتسليمه للسجَّان!

لهفة «يونس» عليه تشبه لهفة أمِّه في سنوات عمرها الأخيرة، كانت تخشى الموت لأنه سيبقى وحيدًا! «يونس» قال له: «خشيت ألا تعود، الشباب زادوا من قلقي بحديثهم عن الجرائم التي تُرتكب في المستشفيات.. على كلٍّ حال ذلك ليس غريبًا، فقد ارتكب أبوه أقذر جريمة ليفتح له الباب على مصراعيه، وكانت في المستشفى».



دار ميساك، 11 أيلول 1965

الحركـة المريبـة في المستشـفى جعلت الدكتور «توفيـق» يخرج من غرفتـه على عجل، نـادى على الممرضـة أحلام: «ماذا يجـري؟». ردَّت بقلق: «العساكر يملؤون المدخل، فهمت أنَّ الأمر يتعلَّق بسيِّدة ستلد بعد قليل». فتح فمه دهشة، أبدى استياءه: «تلد!». دخل غرفته، وأغلق الباب. كانت البلاد على كف عفريت، تعاني من آثار الانقلابات المتكرِّرة وحكم العسـكر، لكـنَّ ذلك لم يكـن مُبرِّرًا في نظره ليرافق العسـكر سـيدة على وشـك الولادة إلى المستشـفى! حاول شغل نفسـه عن الحدث بمراجعة ملفات المرضى.. أكثر ما كان يشغله هذا الصباح صحة الأطفال الأربعة الذيـن ولدوا هـذه الليلة في ظروف غيـر طبيعية، ووضعـوا في الحاضنة الوحيدة التي يملكها المستشـفى. غادر غرفته، قام بجولته على الأمَّهات المتعبـات بعد ليلة قاسـية متجاهلًا الازدحام المزعج فـي الممر. أعطى تعليماتـه بمغـادرة الجميـع حرصًا على سـلامة السـيدة التـي يرافقونها! انسحب العساكر بهدوء إلى الفناء الخارجي. لعن في سره الغباء المتستر ببدلة عسكرية تفرض وجودها بالقوة!

عاين بنفسـه كمية الأوكسجين ووضع الحاضنة، وخرج وعلى شفتيه ابتسامة رضا. قبل وصوله إلى غرفته، تذكَّر أنَّ اليوم يصادف عيد ميلاد ابنته الصغيرة، وأنه وعدها بشراء سرير جديد ودفاتر وألوان بمناسبة تفوقها في الروضة! همس للممرضة «أحلام»: «سـاعة، لـن أتأخر أكثر». الازدحام كان على أشـدِّه في الأسواق.. حركة الشـراء والعروض المغرية للألبسة والأدوات المدرسـية. كيف لـم يفطن لذلك؟ السـاعة امتدت إلى ثلاث ساعات ريثما استطاع شراء الأغراض وتوصيلها إلى المنزل والعودة إلى المستشفى. حين استقرَّ على كرسيه وراء مكتبه، شعر بتعب شديد.. طلب فنجان شـاي علَّه يستعيد نشاطه.. لكنَّ خدر الخريف مصحوبًا بتعب ليلة استثنائية وساعات النوم القليلة، جعلته يغفو رغمًا عنه.

فـي إغفاءته القصيـرة، هاجمته فكرة مزعجة على شـكل حلم.. رأى الحاضنـة ترتفـع، تلتصق بالسـقف، وتنفتـح، والرضَّع الأربعـة يطيرون بأجنحـة بيضـاء. فتح عينيـه مفزوعًا.. كان فنجان الشـاي أمامـه باردًا لم ينقص منه شـيء. قرع الجرس.. جاءت الممرضة بسـرعة! سـألها بقلق: «كيف حـال الأمَّهـات الأربع؟». قالـت: «بخيـر». وصمتت..الممرضة الثرثارة التي لا تستطيع أن تروي حادثة ما لم تحكِ أدق التفاصيل، اكتفت بكلمة واحدة! صاغ سؤاله بطريقة أخرى: «هل من جديد؟». قالت: «لا». انتابه قلق حقيقي، تنبَّهت لتعابير وجهه، فقا ت: «لم تشـرب الشـاي، هل أطلب لك غيره؟». وافق بإشارة من رأسه. استدعت المستخدم الذي جاء بكوب شاي كبير على وجه السرعة، وهو يقول: «يبدو أنَّ المولود الجديد

ابـن ضابـط كبير جدًّا، هذا ما فهمته من العسـاكر، والده لـم يأتِ، لكنَّهم يتهامسـون بأنـه كبير جـدًّا، ويعمـل - والله أعلم - في سـلاح الطيران».
تسـاءل مـن دون اهتمام: «هل ولدت السـيدة ذكرًا؟ مَن قـام بالعملية؟».
اندفع المسـتخدم بالكلام قائلًا: «الدكتور سـهيل، ألـم يخبروك؟ ظننتك تعرف! يبدو أنَّ الضابط قريبه، فقد كان مهتمًّا جدًّا بالسـيِّدة، ونقل الطفل بنفسـه إلى الحاضنة». اهتزَّ كوب الشـاي في يده، واندلق فوق المكتب..
نهض كالملسـوع: «مـاذا قلت؟ الحاضنـة؟! لكنَّها لا تتسـع لطفل آخر، الأوكسـجين لا يكفي سـوى أربعة أطفال». تجمَّد المستخدم في مكانه.
وخرس صوته وهو يدفعه مبعدًا إياه عن طريقه. ركض في الممر المؤدي إلى غرفة الإنعاش والممرضة خلفه تحاول تهدئته: «انتظر دكتور لأشرح لـك». لكنَّه لم يكن يسـمع شـيئًا، ولا يـرى شـيئًا.. كانت الرؤيـا ترعبه، الأطفـال الأربعـة يطيرون بأجنحة بيضـاء، الحاضنة ملتصقة بالسـقف..
تمتم: «اللعنة على الجهل». فتح الباب بسرعة، وقعت نظراته القلقة على الحاضنـة. صرخ بأعلى صوته: «مَن فعل هـذا؟». الممرضة التي صارت بجانبـه، قالت بصوت مكسـور خافت: «الدكتور سـهيل، هـو مَن أصدر الأمـر بإخلاء الحاضنـة للطفل الجديد». قال بذهول: «الدكتور سـهيل؟ مـا صلاحياته؟ كيـف يتجاوزني؟ هذا الأمر ليس من شـأنه، أنـا مَن يقرِّر هنـا». عـاد أدراجـه، فتح بـاب غرفة الأطبـاء بعنف، وقبـل أن يصرخ به: «كيف سـمحت لنفسـك باتخاذ قرار من دون الرجوع إلـيَّ؟».. اختزنت عينـاه الصورة التي لـم ينسـها طيلة حياته فيما بعد. كان الدكتور «سـهيل»

قد جلس خلف مكتبه، ووضع قدميه على الطاولة، وخلفه وقف أربعة جنود بأسلحتهم يضحكون.. أخرسته المفاجأة، ظنَّ أنه أخطأ المكان، لم يشعر وسط دخان السجائر والمشهد الاحتفالي ورائحة العرق القوية أنه في المستشفى.. مع ذلك استطاع النطق بصعوبة بما أراد قوله. الدكتور «سهيل»، اعتدل في جلسته، ونهض بهدوء وثقة، اقترب منه، وقال بصوتٍ هامسٍ: «إنها أوامر عليا، أنا لم أتجاوز صلاحياتك، بل نفَّذت أوامر مَن هم أعلى منك». أوامر! وصلاحيات! أعلى منك! تمتم بهذه الكلمات، ثم رفع صوته غاضبًا: «ما تقوله يُستخدم في الجيش، وليس في مستشفى أنا مديره، وأنا أدرى بما يجب فعله هنا». لم ينتظر ردَّه، صفق الباب بسرعة، ونادى الممرضة: «اتبعيني». خلال دقيقتين كان في غرفة الإنعاش، يصدر أوامره بإحضار الرضَّع الأربعة من غرف أمَّهاتهن. انتظر دقائق شعر أنها ساعات.. ارتفع صوته صارخًا على جميع الممرضات والأطباء، شعر أنه يفقد سيطرته على أعصابه.. الغضب كاد يفقده بصيرته. بعد ربع ساعة وصلت الممرضة، وهي تلهث، وشفتاها مبيضَّتان.. رفعت كتفيها، وفتحت كفيها بحركة استسلام. سألها بعصبية: «ماذا يعني ذلك؟». قالت متلعثمة: «الأمَّهات غادرن المستشفى، لا يوجد أحد.. مررت بغرفهن جميعًا». شعر برغبة قوية في صفعها، لكنَّه ضرب الجدار بقبضته متسائلًا: «لماذا غادرن المستشفى؟ مَن الذي أمر بذلك؟». قالت: «لم يعد هناك داعٍ لوجودهن.. الأطفال ماتوا!». شحوب علا وجه الممرضة وهي تنظر إليه.. أغمض عينيه بهدوء، أسند

جسده إلى الجدار، وهمس: «متأكدة؟ هل هذا حقًّا ما حدث؟ مستحيل، أنتِ تكذبين، قولي إنَّ ذلك مجرد كابوس سينتهي خلال دقائق». ابتلعت ريقها بصعوبة، لكنَّها امتلكت الجرأة لتقول: «انسَ الموضوع دكتور، لا تفكر به كثيرًا، وانتبه إلى الخندق الذي يُحفر حولك». لم يشأ أن يسمع ما قالته.. لام نفسه لعدم استجابته السريعة للرؤيا، لم يُرد أن يصدق أن ذلك حدث، عاد أدراجه بسرعة، مرَّ بغرف الأمَّهات، أراد أن يكذِّب الرؤيا، و«أحلام»، وعينيه.. أراد بقوة أن يكون الرضَّع الأربعة موجودين في غرف أمَّهاتهن، أراد رؤية ابتسامات الشكر المعجونة بحنان الأمومة والامتنان على وجوههن بعد عناء دام أشهرًا.. لكنَّه فوجئ بالفراغ! كانت الغرف خالية، الأسرَّة مرتبة، النوافذ مفتوحة على نسمات أيلول المندَّاة برائحة مطر وجلّنار.. والصمت يقبع في كل مكان. إذن لقد رحلوا! الرضَّع طاروا بأجنحة بيضاء.. والأمهات غادرن المكان حاملات آلامهن صليبًا! يذكر ابتسامة أم «جوزيف» جيدًا.. يذكر امتنانها العميق لأنه استطاع أن ينقذ طفلها.. سمعها تهمس: «إنها المرَّة الخامسة التي يموت طفلي فيها بعد ولادته بأيام ونذر عليَّ إن عاش سأسميه توفيق، وسأجعل الشيخ يؤذن في أذنه قبل أن أعمِّده!». يذكر ابتسامة أم «إبراهيم» الدافئة وهي تقول له: «الله يحميك لشبابك.. كدت أيأس من مجيء بنت تحمل معي هموم الحياة.. كل بنت ألدها تموت، وتترك غصة في قلبي، وفرحة لوالدها، لا يريد أن أنجب له البنات.. يريد الذكور فقط، وكأنَّ الله يستجيب لرغباته، فتموت البنات، ويبقى الذكور!». أم «عبود» قالت

لـه بلهجتهـا القروية البسـيطة: «لـو عرف أبو عبـود لذبحنـي.. نبَّهني مئة مرَّة: بتموتين وما بيكشـف عليكِ طبيب، رجَّال غيري ما يصير يشوفك».

ضحـك، وقال لها: «لـن يعرف أبو عبود بالأمر، سـتعودين إلى البلد قبل رجوعه من لبنان». السـيِّدة «سـمر» المدرِّسـة في ابتدائيـة دوما، قالت له وابتسـامة عذبة تعلو شفتيها: «إن كان ذكرًا سأسميه يوسف، أحبُّ أسماء الأنبياء، ولعلَّه يكون بشارة خير». ثلاثة ذكور وبنت.. كانوا بين يديه خلال ليلـة طويلة من ألم أمهاتهن، ومحاولته أن يحتفـظ بهم أحياءً! أطول ليلة عاشها في حياته.. أربعة أرواح صرخت مستقبلة الحياة في غرفة التوليد.. أربعة أجسـاد طرية، لا تكاد تبين ملامح وجوههـم الغضة.. وضعهم في الحاضنة بيديه، مدَّ لهم سـبل الحياة عبر الأوكسجين.. وجلس ينتظر مع الأمهـات - اللواتي اعتبرنه منقذهـنَّ - أن تكتمل صحة الأطفال، وتتوَّج بسعادتهن!

***

المخابرات الجوية - حرستا، 2013

صمت الأستاذ لحظات.. تنهَّد بحرقة، لم يكن يتخيّل أن يحدث له كلّ هذا، يونس على حق «لا يتحرَّك التاريخ من قبيل المصادفة!». قال باهتمام: «كأني سمعت هذه العبارة في أحد خطابات القائد!». ردَّ «يونس»: «بلى.. أنا مَن كتبها له يومًا! اروِ لي الآن ما تعرفه عن ذلك اليوم المشؤوم».

(يومها كنتُ أقف في الشرفة، أراقب الشارع، الناس، الزحام، والأبنية العالية البعيدة يحتضنها الجبل الخالي من الأشجار كساحر يلبس طاقية الإخفاء. أعرف عن السحرة الكثير، فقد كانت جدتي ماهرة في وصف أشكالهم، وألبستهم العجيبة وأحذيتهم الحمراء المعقوفة التي تشبه حذاء «الطنبوري» وحذاء «أبي القاسم» بائع «الكسيب[1] والحلاوة»، وطاقياتهم كانت دائمًا بلون الرماد والتراب! قاسيون على تلك المسافة من المستشفى يبدو ساحرًا لطيفًا وأنيقًا! لفت انتباهي فجأة وقوف عدَّة

---

(1) الكسيب: عجينة بنية اللون مصنوعة من قشر السمسم، طعمها مر تقريبًا، ترقق باليد وتوضع داخلها الحلاوة المصنوعة من السمسم أيضًا، وتلف على شكل أسطواني، وتؤكل.

سيارات، نزل منها رجال يشبهون إلى حدٍّ ما رجال المخفر في بلدتنا.. انتشروا على الرصيف أمام المستشفى.. واقترب أحدهم ليفتح باب سيارة سوداء النوافذ، نزلت منها سيدة تبدو على وشك الولادة.

السيدة المجهولة أحدثت بحضورها ارتباكًا واسعًا في أروقة المستشفى، حركة الأطباء والممرضات غير عادية، الكلُّ يتحرَّك في مختلف الاتجاهات، لم أفهم سبب ما يحصل! حين حضرت أمِّي لتلد مساء البارحة بقيت ساعة كاملة عند الباب تنتظر ممرضة تقودها إلى سرير فارغ في إحدى الغرف! كان عليها أن تبقى ساعات إضافية في غرفة صغيرة قرب الباب ريثما تغادر إحدى السيدات غرفتها كي تحل مكانها!

لم أصدق عينيَّ حين رأيتُ شكل أختي الصغيرة، كم كانت هشة وضئيلة! وضعوها فور ولادتها في الحاضنة مع ثلاثة أطفال آخرين.. منعوني من الاقتراب منها. قالوا لي سأتمكَّن من لمسها بعد أيام! انتظرتُ مرور تلك الأيام بفارغ الصبر. حاول عمِّي أن يقنعني بمرافقته إلى بيتهم لأرتاح ريثما تغادر أمِّي المستشفى، لكنِّي رفضتُ بشدة، أريد أن أنتظر قربها، أريد أن أكون أوَّل شخص يلمس جسدها الصغير.

استيقظتُ في وقتٍ مبكر على نشيجٍ مفجع، لم أستوعب في البداية أنه صوت أمِّي.. احتجتُ لدقائق وأنا أعركُ عينيَّ، وأنفض رأسي لأفهم أن كارثة قد حصلت. أمي جرَّتني من يدي وهي تحمل صرَّة ملابسها، وصرة أخرى صغيرة تبدو على شكل طفل نائم! لم أجرؤ على سؤالها، كانت

تنهرني، وتدفعني أمامها في الممر الطويل المليء بالناس، ممرضات وأطباء ورجال بزي عسكري! حين وقفنا على الرصيف الخالي تقريبًا.. امتلكتُ الشجاعة، وسألتها: «لماذا تبكين؟ إلى أين نذهب؟ أين أختي؟». انفجرت حينها بالبكاء بصوت مسموع، كانت تشتم شخصًا ما فهمتُ أنه «الطبيب ابن الكلب» الذي كان السبب. في ذلك الوقت لم أستوعب سوى أنَّ أختي قد فارقت الحياة، وأني لن ألمس بشرتها الرقيقة الحمراء بيدي، ولن تضحك عيناها الزرقاوان لي، وهي تبتسم، وكأنها تقول: «أعرف أنك أخي.. أنا أيضًا أحبكَ». ثمانية ساعات قضتها أمي في بكاء لم يتوقف حتى وصلنا البلدة.. كانت مصرة على دفن أختي في حديقة المنزل تحت شجرة الرمان. لم تشأ أن تتركها هناك في دار ميساك.. قالت بحرقة: «لن أتركها وحيدة هناك.. مَن سيزور قبرها؟». بعد أيام صرتُ أستيقظ ليلًا على صوت حداء ونحيب.. في البداية كنتُ أخشى مغادرة فراشي، لكنّي مع الوقت، تجرَّأتُ على الخوض في العتمة، فرأيتُ أمّي تجلس قرب القبر، تغني وهي مغمضة العينين، يدها تعصر ثديها، الحليب يتدفق مع دموعها فوق حجارة القبر الصغير.. وهي تردِّد بصوت أقرب للبكاء: «يا لله تنام.. يالله تنام.. لأدبح لها طير الحمام...!»)

قال «يونس»:

(بقي الدكتور توفيق طيلة الليل ساهرًا في غرفته بالمستشفى، لم يغمض له جفن، كان يشعر أنه المذنب الوحيد، أنه مَن قتل الأطفال الأربعة، مخيلته رسمت له صورة أربعة أطفال كبروا، وصاروا شبابًا. كان

يراهـم أمامـه أحياءً يتحركون، حتى صار يشـكُّ في قـواه العقلية. التقيت الدكتـور توفيـق عندما كنت أبحث عن معلومات لكتابي بشـكل سـري. أخبرنـي تلك القصة، وحلَّفنـي ألا أذكر أني التقيتـه. كان خائفًا ومترددًا. فـي البدايـة رفض مقابلتي. عندما ألححت عليـه، قبل أن أزوره في محله الكائـن ببـاب توما. محـل صغير لبيع الأنتيـكات، كان الدكتـور في أثناء اللقاء متحمسًـا لبضاعته إلى درجة أنه قضى سـاعتين في الحديث عنها، ولـم يذكر أنه كان يعمل طبيبًا أبدًا. اشـتريت بعـض معروضاته، وتركت لـه رقم هاتفي، ورجوتـه أن يتصل بي. الدكتور اتصل بعد أسـبوع، وقال لـي على الهاتـف: أما زالـت دعوتك لي للذهـاب إلى بيت جـن قائمة؟ أخفيت دهشـتي وفرحتي، وقلـت جادًّا: نعم، والجماعـة هناك وعدوني بـأن يبيعوا ما لديهم من أنتيكات بأسـعار معقولة، وننتهـز الفرصة لتناول الغداء في أحد المطاعم، في الغد لست مشغولًا، ما رأيك؟ قال: مناسب جـدًّا، نلتقـي هناك فـي الثانية ظهرًا. روى لـي يومها تفاصيـل ذلك اليوم وهو يحمل الحسرة نفسها، قال لي إنه بعد يومين فقط، أُعفي من منصبه، وعُيِّن الدكتور سـهيل مكانه! ثم نُقل إلى مستشـفى آخر كطبيب تخدير.. ولـم يكـن التخدير اختصاصه! وخشـي هـو أن يقع في شَـرَك نصبوه له، فاستقال مـن عمله، وفتـح عيادة في حي شـعبي.. خلال شـهر كامل لم يطـرق بابـه زبون واحد، اكتشـف بعدها أن شـخصًا مـا كان يجلس على كرسـي في الـدكان المقابل لبـاب العمارة، ينصح الزبائـن بعدم الدخول إلى عيادته، وعرف فيما بعد أنَّ سيرته أصبحت على كلِّ لسان في الحي، وصار الكل يتحاشـى حتى الحديث معه. هل تعرف التهمة الموجهة له؟

لقد اتهموه بقتل الأطفال الأربعة. طبيب مجرم! من أجل حفنة نقود من ضابط كبير قتل أربعة أطفال، ووضع مكانهم ابن الضابط في الحاضنة الوحيدة، وحين عرف الضابط بالأمر، توسَّط لنقله من المستشفى، وأهدى المستشفى عشر خيام أوكسجين!

عشر خيام! يا له من ثمن!

أغرب ما في هذه القصة يا أستاذ أني التقيت شابًّا مسيحيًّا أثناء بحثي عن أطراف هذه القضية اسمه «توفيق». لم أخطط للقائه.. كان في عجلة من أمره، يريد إيصال شحنة مساعدات إلى حمص المحاصرة. لكنَّه أجَّل سفره ليحكي لي حكايته. أم «جوزيف» التي فقدت ابنها «توفيق» في المستشفى بقيت عشر سنوات لم تحمل فيها، وبعد موت زوجها بأشهر صارت تشعر بتبدلات في جسدها، ظنَّت في البداية أنها أعراض مرض ما.. وحين زارت الطبيب اكتشفت أنها حامل!

لم تُسمِّ أم «جوزيف» مولودها، تركته سنة كاملة من دون اسم خشية وفاته! وحين خطا أولى خطواته تذكَّرت نذرها، فأطلقت على الطفل اسم «توفيق»، وحملته إلى جارها المسلم كي يكبِّر في أذنه، وعمَّدته!

لم يمضِ على لقائي به سوى أيام حتى سمعت أنهم اعتقلوه.)

لم ينبس الأستاذ حينها بكلمة.. خيَّم صمت ثقيل.. جثم كصخرة فوق قلبه.. تذكر كيف التقى «توفيق» في سجن البالونة بحمص، يذكر ذلك بوضوح ولا يمكن أن ينساه أبدًا. ليلته الأخيرة هناك كانت أقسى

ليلة مرَّت عليه منذ اعتقاله. في المساء نادوا على «توفيق» للتحقيق. طلب من الجميع مسامحته والدعاء له، وخرج.. أعادوه بعد ساعات، رموه على أرض الزنزانة عاريًا، جسده ينزف، وينتفض، وأنفاسه تتقطَّع بشكل مؤلم. كان على شفا الموت.. الكلمات تخرج من شفتيه غير مفهومة. ضربوه بصليب من خشب مزروع بالمسامير.. كي يذوق آلام مسيحه! لم يكن يعرف أنَّ «توفيق» مسيحي.. كانت الطريقة الوحشية التي عُذِّب بها تنبئ أنه لن يعيش أكثر من ساعات، مع هذا لم يتركه الشباب، نظَّفوا جراحه بثيابهم، وحاولوا تمسيد جسده ليجري الدم فيه مجددًا، لكنَّ صراخه منعهم من ذلك.. كان يحتفظ ببرتقالة في جيبه... قشَّرها، وحاول مسح الجراح بقشرتها.. كان على يقين أن عمليته فاشلة، لكنَّه عوَّل على مقدرته في الإيحاء لتوفيق بجدوى ما يقوم به. صمت مَن في المهجع، وكأنَّ الموت مدَّ عباءته فوق الرؤوس.. لم يفقد شجاعته، بقي يبسمل، ويمسح جراح «توفيق»، ويعصر من ماء البرتقالة على جسده، ويلتقط الدم بقميصه القطني الداخلي.. حتى هدأ جسده! كاد قلبه يتوقف لذلك الهدوء المريب قرب الفجر. أذَّن بصوت مسموع.. لكنَّ أحد المعتقلين سارع بوضع يده على فمه: «ماذا تفعل يا أستاذ؟ أتريدهم أن يعدموننا جميعًا؟». نظر إلى الجريح، صدره يعلو ويهبط ببطء، أنفاسه ما زالت تتخلَّلها شهقات صغيرة.. يكرِّر من خلالها أسماء أطفاله، وأسماء أماكن، ويستغيث بالأولياء الصالحين! والمسيح والعذراء.. وأمّه!

تمتم الأستاذ هامسًا بحرقة: «يا توفيق.. يا بني!».

***

دار ميساك، 1966

كانت نظرات «لمار» تشي باتِّهام صريح لـ «أسينة».. لم تستطع أن تتقبَّل وجود الطفل الجديد في غرفتها مع أخيه وأخته، فطلبت من «صخر» أن يبقى الطفل الجديد مع أمِّه في غرفتها كي لا يؤذيه الصغار في غفلة منها، وأضافت أنَّ التعب قد نال منها بسبب تقدمها في السن، ولم تعد قادرة على العناية بطفل رضيع!

تجاهلت «أسينة» الموقف كاملًا، ولم تعلِّق بكلمة، فقد أدركت أنَّ «لمار» لن تسكت هذه المرَّة، وهي لا تستطيع تخمين ما ستقوم به.

وضعت سرير الطفل في غرفة صغيرة ملحقة بغرفتها، وملأتها بالزينة والألعاب، وصارت تعتني به، وتطعمه، وفي المساء ترضعه قنينة «اليانسون» ممزوجة بقليل من الخشخاش، وتتركه كي ينام! وحين تضطر للخروج من البيت تزيد الجرعة في غير أوقاتها. لم تهتم «لمار» لما تفعله «أسينة» مع طفلها، ولم تتدخل لمنعها من إيذاء الطفل، فقد تغلَّبت كراهيتها له على حرصها لتصيد أخطاء أمِّه! وقد أراح ذلك «أسينة»، فقد فرض جوًّا من الهدنة بينهما، بعد الحرب الباردة التي استمرَّت أربع سنوات منذ استقرار «لمار» في العاصمة.

تسارُع الأحداث لم يكن في صالح «أسينة» على الإطلاق، ففي غمرة انشغالها باختلاس لقاءات سريعة مع «مغيث»، كان «صخر» يثبِّت أقدامه في الجيش، ويسيطر على القطعات العسكرية سيطرة تامة!

حين رنَّ الهاتف في الثانية عشرة كالمعتاد، ركضت بلهفة لتسمع صوته في الطرف الآخر يقول: «أخبري صخر أني أريده حالًا». لم تخفِ انزعاجها، أغلقت السماعة بعنف.. ومضت إلى غرفتها. كان «زياد» يبكي في تلك اللحظة، لكنَّها أغلقت أذنيها، اندسَّت في الفراش، غطَّت رأسها بالوسادة، خبطت بيديها الجدار خلفها.. ورفست بقدميها الغطاء.. كانت بحاجة إلى شيء أكبر تنفث فيه غضبها، وصراخ «زياد» يصلها على الرغم من الأبواب المغلقة والوسادة.

فجأة فُتح باب الغرفة، وسمعت صوت «لمار» تقول: «ألا تسمعين صوت ابن الزنا، انهضي، وأسكتيه، قبل أن أقوم بإخراس صوته نهائيًا». لم تملك أعصابها في تلك اللحظة، رمت «لمار» بالوسادة، وشتمتها، وحطَّمت كلَّ ما طالته يدها. حين هدأت، شعرت بفداحة الخطأ الذي ارتكبته. تساءلت عن السبب الحقيقي الذي أتلف أعصابها إلى هذا الحدِّ وهي المعروفة بترجيعها البطيء وردة فعلها الباردة؟ كان عليها أن تراجع بسرعة كل ما فعلته، وتتدارك ما حدث، لن تعطي «لمار» الفرصة على طبق من ذهب لتكيد لها علنًا. اتصلت بـ «صخر»، وأخبرته أن «مغيث» يريده حالًا.. وبكت قليلًا، وأخبرته أن أعصابها تلفت وهي لا تستطيع العناية بالطفل وحدها، وتريد إحضار خادمة، فقد تطاولت اليوم على

عمَّته بسبب ذلك، ولا تعرف كيف ستعتذر منها! قال لها: «هل ترينني متفرغًا للمشاكل العائلية؟ أحضري خادمة لا أحد يمنعك.. وحلي مشاكلك مع عمتي بعيدًا عني». لهجته الحاسمة وكلماته المختصرة، وقعا على رأسها كالصاعقة! ما الذي حدث؟ لماذا يكلِّمها بهذه الطريقة؟ على الرغم من انشغالها الكامل بحياتها الخاصة بعيدًا عنه إلا أنَّ شيئًا في لهجته على الهاتف، جعلها تفكِّر طويلًا بالخطوة القادمة التي يجب أن تتخذها. من الواضح أنَّ هناك أمورًا حدثت في الخفاء بعيدًا عنها، وعليها أن تعرف كل شيء قبل أن يفوت الأوان. اتصلت بـ «مغيث»، وطلبت أن تراه، اعتذر بأنَّ لديه اجتماعًا ضروريًّا، ولا يستطيع المغادرة، وبلهجة جافة طلب منها تأجيل الموعد إلى نهاية الأسبوع ريثما ينتهي من مشاغله!

كان اعتذاره كافيًا ليعكِّر مزاجها، ويبدِّل مشاعرها. أحسَّت بنقمة غريبة، أرادت لو كان بإمكانها الآن أن تخنقه بيديها. صرخت بصوت مشروخ وهي تغلق باب غرفتها: «اللعنة على كلِّ شيء». ارتدت ثيابها على عجل، وغادرت البيت. نسيت في غمرة غضبها أنَّ موعد طعام الصغير قد حان. لم تسمع صوت بكائه، ولم تنتبه لعيون «لمار» التي تلمع في عتمة الصالة! وجدت نفسها تسير على غير هدى، حتى وصلت الحي القديم! طرقت باب «منوّر خانم» من دون موعد مسبق. دخلت غرفة الضيوف، وطلبت قهوة وسيجارة. «منوّر» التي لم يفتها حجم الغضب الذي بدا على صديقتها، صنعت ركوة قهوة، وأحضرت حلويات، ومعها

نارجيلة، واعتذرت عن عدم وجود سجائر. قالت بثقة: «دخِّني.. التنباك طازج، والنارجيلة نكهتها أطيب من السجائر». مع ذلك لم يفتها أن ترسل خادمتها لإحضار علبة دخان. حين رأت «أسينة» الخادمة آتية، تذكَّرت طفلها الذي تركته من دون أن يتناول الطعام. همست لـ «منور» تطلب منها أن ترسل خادمتها إلى البيت لتقوم بهذا العمل. وجدت «منوّر» الفرصة مناسبة لكسب صديقتها، وإعادة الودّ القديم. أرسلت خادمتها على وجه السرعة، وقالت: «يلزمك خادمة يا عزيزتي، مركز زوجك يقضي بأن تصبحي سيدة مجتمع فقط». قالت «أسينة» بضيق: «أعلم، كله من الأفعى التي تفرض إرادتها على زوجي، هي التي صرفت الخادمة عندما انتقلنا إلى البيت الجديد، بحجة أنّها لا تقوم بالعمل كما ينبغي، وتأخذ أموالًا لا تستحقها، وأنا لم أعد أستطيع العناية بالطفل لوحدي، وهي ترفض أن تعتني به». ابتسمت «منوّر» بخبث، ابتسامتها كانت أفصح من أيِّ كلمات. تجاهلت «أسينة» ابتسامتها، كانت بحاجة الآن لوجود «منور» في حياتها، ولم يكن الوقت مناسبًا لإظهار مشاعرها الحقيقية.. لكن كل شيء يسجَّل في ذاكرتها حتّى أدق التفاصيل، وأتفهها!

عادت «أسينة» في ساعة متأخرة إلى البيت بعد أن تناولت الغداء في أحد المطاعم مع «منور»، وذهبتا إلى السوق. صرفت «أسينة» كلَّ ما معها من نقود. حمَّى الشراء أعادت إليها بعض توازنها!

حين وصلت البيت كانت في مزاج معتدل، ولم تكن على استعداد لمواجهة العاصفة التي كانت تنتظرها! اقتحمت «لمار» عليها الغرفة وهي

تنتفض من الغضب. قالت بصوتٍ يقطر سمًّا: «لابق للشوحة مرجوحة ولأم فصيع قبقاب[1]! والله عشت وشفت». لم تلتفت «أسينة»، بقيت واقفة أمام المرآة تمسح مكياجها بهدوء، قالت بلهجة باردة: «فعلًا، كنت أقول لنفسي هذا الكلام عندما اشتريت لكِ الهدية التي في الكيس الأحمر على يسارك فوق الطاولة». صدمت «لمار» بردِّ «أسينة»، كانت تتوقع ردًّا عنيفًا تتمكَّن فيه من شتمها، وجرِّها من شعرها، بل وصفعها، لتبرِّد نارًا تتأجَّج داخلها منذ سنوات! هدية! ما المناسبة؟ سألت نفسها، ولم تنتظر طويلًا لتعرف الإجابة. كان على «لمار» أن تعترف أنَّ «أسينة» خصم قوي، وليس من السهل التغلب عليها أو إيقاعها في الفخ. الهدية الثمينة التي انتقتها بعناية تدلُّ على أنها فكَّرت طويلًا في خط رجعة يحول دون اصطدامها مع «لمار» لتأمن جانبها!

حين عاد «صخر» في وقت متأخر تلك الليلة، سألته وظلُّ ابتسامة على شفتيها: «ما رأيك بالأشياء التي اشتريتها لك؟». قال من دون حماس: «جميلة، شكرًا لكِ». قالت بدلال: «فقط! ما هذا؟ طيلة النهار وأنا ألف على المحلات حتى انتقيتها لك، ولا تكلِّف نفسك عناء مشاهدتها! وتقول شكرًا!». التفت إليها ليقول إنه متعب ولا طاقة له على الحديث في أي شيء، فوجئ بالثوب الذي ترتديه، وتسريحة

(1) الشوحة: أنثى الحدأة، أم فصيع: العرجاء. المثل يقصد به استنكار ركوب الطائر في المرجوحة، ولبس العرجاء قبقاب، فذلك لا يليق بها، بالإضافة لصعوبته.

شعرها ومكياجها، وشمَّ رائحة عطر كثيف.. انتبه بكامل جسده إلى أن هناك شيئًا يلمع فيها، لها بريق أفعى! اقشعرَّ جلده للفكرة.. تذكَّر قول عمته: «حاذر أن تترك لمشاعرك فرصة الظهور لعيني أحد». اقتربت منه، جلست على حافة السرير، قالت: «أدرك أنَّ مشاغلك أكبر من التفاهات التي نعيشها نحن، لكنَّ لجسدك عليك حقًّا». كانت يدها تعريه قبل أن تنهي جملتها. استسلم ليديها، وتوقف ذهنه عن التفكير.. همست، وهي تسعى بكل ألوانها فوق جسده: «ما الذي يشغلك عني؟». قال من دون وعي: «لديَّ موعد هام في الغد، سيحدد مصيري!». سيطرت على رعشة يدها، وسألت وهي تدلِّك صدره بخفة: «لوحدك؟». قال وصوته لا يكاد يُسمع وهو يغمس وجهه في بطنها: «أنا ومغيث». ارتعش جسدها كله.. لكنَّ ذهنها كان بعيدًا عمَّا يجري لجسدها.. كانت تفكِّر بأن تعيد النظر في حساباتها بشكل كامل!

***

لاحظ «مغيث» في جلستهما الاستثنائية انشغال ذهن «صخر»، وعدم تركيزه في موضوع الاجتماع. سأله بقلق إن كان هناك ما يشغل باله. ردَّ «صخر»، بأنه يشعر بالتوعك فقط! لم يقتنع «مغيث» بالحجة، كان متأكدًا أن هناك ما يُريب، لكنَّ ذهنه انصرف إلى شأن شخصي، لم يخمِّن أنَّ الأمر أكبر وأبعد من تصوراته! «صخر» من ناحيته كان حريصًا على إخفاء ما به عن «مغيث»، فقد بدأ يفكِّر بشكل مستقل عنه، ويدرس الخطط المستقبلية لأحلامه بعيدًا عنه. أعاد «مغيث» كلامه: «هل أنت

مستعد؟». كان يخشى أن يؤثر انشغال صديقه الذهني على مسار الخطة التي درساها جيدًا للقيام بالانقلاب! و«صخر» موافق على تنفيذ الخطة على الرغم من التشوش الذي كان يعاني منه بسبب عدم ثقته بالعميل البديل الذي حلَّ مكان «ثابت أمين» بعد إعدامه، والخلافات الأخيرة بينهما التي جعلت العميل الجديد يهدِّده صراحة، وهو يبرز الورقة التي وقَّع عليها منذ أكثر من سنتين. ما زالت الخشية من انقلاب الطاولة عليه تقلقه مع كل التعهدات التي بذلتها الشبكة البديلة عن «كوهين» بشأن مستقبله السياسي والعسكري.

الخطَّة نُفِّذت بحذافيرها.. وتم الانقلاب على القيادة القومية للحزب وعلى رئيس الجمهورية في ضربة واحدة. وتخلَّى «مغيث» عن رتبته العسكرية ليتفرَّغ للحكم.. وصار «صخر» وزيرًا للدفاع!

كانت أولى زياراته للجبهة بعد تعيينه وزيرًا للدفاع في 12 أيار عام 1966، ألقى خطابًا في الجنود، قال فيه: «إنَّ الثورة مصمِّمة على أن تضرب أعداءها، كما أنها مصمِّمة على سحقهم، وتصفيتهم تصفية نهائية مرَّة واحدة وإلى الأبد!»

***

دار ميساك، 1967

لم تعرف أنَّ للقلب شــأنًا آخر قد يبعدها عن حســاباتها الدقيقة جدًّا، ولو في أثناء وجودها معه فقط. لم يكد يتصل بها حتى ارتدت ملابســها، وأسرعت لتقابله!

نظرت «أســينة» في عينيه طويلًا، وهمســت: «ولكنَّك في الوقت نفسه تمكِّنه من الحكم!». ابتسم وقال بثقة: «صخر صديقي، وهو ذراعي اليمنى، أضرب به وقت اللزوم! لقد أحكم ســيطرته على الجيش، وأنا لن أســتطيع أن أحكم البلد إن لم يســاندني رجلٌ مثله». قالت بنبرة شــكّ: «كأنك تُقدم على الانتحار!». ضغط يدها وهو يعدل جلســته، وينحني هامسًا في أذنها: «هل سنقضي الوقت في الحديث عنه؟». قالت باستياء: «بل نحن نتحدَّث عنـك. أنت تنظر إلى الأعلى لذا لا ترى موضع قدميك، حاذر من الفخاخ التـي قـد ينصبها لك». ضحـك بقوة هزَّت جســده النحيـل.. تأملها وكأنه لــم يعرفها من قبل، قال مندهشًــا: «ألهذه الدرجـة تكرهينه؟». قالت: «إلى هذه الدرجة أفهمه». اســتاء من كلامها، وقـال: «الفهم العميق دليل معرفة عميقة ومحبة أعمق». قالت: «بل دليل ذكاء وحرص وحذر». صمت وهو ينظـر بعيدًا إلـى الضفة الأخرى للنهـر.. كان الأولاد قد نصبوا أراجيح في الأشجار، يدفعونها عاليًا، ويتصايحون، ويضحكون. غصَّ بريقه.. رشف قليلًا من الماء، تساءل بينه وبين نفسه عن جدوى ثمرة حرص على رعايتها،

وسقطت في حضن آخر! لماذا عليه أن يراقبها من بعيد؟ أليس الأجدى أن يخطفها، ويمضي؟ أفكاره الخاصة جدًّا والتي انتقلت إلى «أسينة» عبر ارتعاش يده، وتنهُّده أكثر من مرَّة، جعلتها ترى بوضوح مصيرًا أسود ينتظره ليس ببعيد. أيقنت أنَّ من الصعب إنقاذه، ومن الصعب إخراجه من حالة الثقة العمياء تلك، فما زالت أحاسيسه غير ناضجة بشكل كافٍ ليفكِّر بشكل متوازن! هل تلوم نفسها على عودتها إليه؟ أم تلوم الظروف؟ مشاعرها تجاه «مغيث» تفتر تدريجيًا، خاصة وأنه أثبت لها أن الدهاء ينقصه، وهو في رأيها أهم شرط للحكم!

أوَّل قراراته التي اتخذها بعد تخليه عن موقعه في الجيش، هي خوض الحرب ضد إسرائيل. دعا إلى اجتماع عاجل لجنرالات الجيش وأركانه وعلى رأسهم وزير الدفاع. كان «مغيث» واثقًا من خطوته القادمة ومن النصر.. لكنَّ الجنرالات عارضوا فكرة الحرب، بحجة أنَّ الجيش غير مؤهل حاليًا، خاصة بعد أن فقد الكثيرين من قادته المحترفين وضباطه في موجة التسريحات التي أعقبت 8 آذار 1963. بقي «صخر» صامتًا، لم يرغب بالاصطدام مع «مغيث» علانية، كان على يقين من أنَّ قادة الجيش وضباطه لن يخوضوا الحرب؛ لذا فضَّل الاحتفاظ بماء وجهه، وترك الأمر لهم. «مغيث» لاحظ صمته المريب، فطلب منه أن يُبدي رأيه صراحة! حاول تمييع موقفه بأنَّ الرأي للأكثرية، لأنه لن يحارب بمفرده، بل بضباطه وجنوده. لكن إذا كانت رغبة الرئيس إعلان الحرب، فهو لن يقف عقبة في طريقه. اضطر «مغيث» لأخذ القرار منفردًا، وفرضه على قادة الجيش!

***

حزيران 67

الخط البنفسجي

الجوُّ القائظ في حزيران لم يكن السبب في هبوط معنويات الجنود، وتراجعهم إلى الخطوط الخلفية في اليوم الثاني للمعركة! بل الأخبار التي وصلت إلى الجبهة بأنَّ إسرائيل دمَّرت ثلثي سلاح الجوِّ السوري، وأجبرت الثلث الباقي على التراجع إلى قواعده بعيدًا عن ساحة المعركة!

حشدت الحكومة المزيد من القوات البرية في «تل دان» عند منابع نهر الأردن. حيث جرت اشتباكات عنيفة طيلة السنتين الماضيتين، حطَّ الجنود رحالهم بانتظار الأوامر التي جاءت بالتقدُّم.. لم تكن القيادة الميدانية على مستوى من الكفاءة التي تؤهلها للحرب على الرغم من الحشد البشري المتمركز على الجبهة، كما أعاقت الجسور الصغيرة الموجودة فوق الأنهر القصيرة المنتشرة حول بحيرة طبرية. تقدَّمت الدبابات، فأصيب بعضها بالعطب، وغرق بعضها في النهر! لم يَرتَبْ أحد في أسباب الفشل، فقد كانت الاتصالات اللاسلكية الحديثة غير متوفرة بين وحدات المدرعات ووحدات المشاة! لكن مع ذلك الأوامر

كانت تصل من دار ميساك، والخطة الموضوعة للمعركة وصلت إلى يد وزير الدفاع، ولم تُنفِّذ معظم الوحدات الأوامر!

غيَّرت القيادة خطة الهجوم، وحشدت القوات في منطقة «وادي الحولة» بعد وصول أنباء عن تحضير إسرائيل لهجوم بري عنيف!

بدأ الهجوم البري فجر اليوم التاسع من حزيران، على الرغم من إعلان وزارة الدفاع موافقتها على وقف إطلاق النار! في السابعة صباحًا أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي عزم إسرائيل على شن الحرب البرية. التوقعات الإسرائيلية للمعركة لم تكن مبشرة بنصر سهل بسبب ارتفاع هضبة الجولان إلى أكثر من خمسمئة متر عن أراضي الجليل وبحيرة طبرية، وانحدارها السهل من ناحية الداخل السوري.. كان هذا وحده كافيًا لقلق إسرائيل من دخول المعركة! مع بدء العملية وعدم تدخل السوفييت - إذ كانت هناك مخاوف من تدخلهم على الجبهة الشمالية - أعطى قائد العملية الأمر بالاستمرار.

قطعات الجيش السوري كانت مؤلَّفة من تسعة ألوية مجموعها خمسة وسبعون ألف مقاتل، مدعومة من المدفعية والمدرعات. أمَّا القوات الإسرائيلية، فتألفت من لواءين مقاتلين، ولواءين مشاة. طوَّق الجيش الإسرائيلي هضبة الجولان من شرقها ومن غربها.. وبقيت الهضبة نفسها وشمالها من الداخل خاضعة لسيطرة الجيش السوري. لكنَّ المعلومات الدقيقة التي حصلت عليها إسرائيل سابقًا من جاسوسها «كوهين»، مكَّنتها من تفادي مناطق الألغام، والمناطق الدفاعية المحصنة

بشكل جيد. أمَّا السلاح الجوي فقد كانت فعاليته محدودة بسبب قوة التحصينات الثابتة!

في صباح يوم 10 حزيران أطبقت القوات الإسرائيلية حصارها على الهضبة، وجاء الأمر من وزارة الدفاع بانسحاب الجيش السوري! انسحبت القوات السورية قبل تمام الانتشار تاركة أسلحتها في بعض المواقع! ثم بثَّت إذاعة دار ميساك نبأ سقوط القنيطرة! المفاجآت المتلاحقة التي كانت تنزل على رؤوس المقاتلين ضربات صاعقة، نشرت الفوضى، وانهزمت القيادات تاركة الجنود في الساحة ليتصرف كل فرد على هواه!

الملازم «عبد المجيد» كان مع قوة من الجيش جنوب القنيطرة عندما سمع نبأ السقوط، وكان وزير الصحة في تلك الأثناء يقوم بجولة في الجنوب ليطمئن على الوضع.: لم يصدق ما يحدث، كيف يُذاع نبأ السقوط وهو في مكان الحدث، ولم يرَ جنديًّا إسرائيليًّا في المكان! اتصل بوزير الدفاع مباشرة، وقال له: «المعلومات التي وصلتكم غير دقيقة، نحن في جنوب القنيطرة، ولم نرَ جيش العدو». فشتمه «صخر» بأقذع الألفاظ، وقال له: «لا تتدخل بعمل غيرك يا...». أغلق وزير الصحة الهاتف وهو يرتجف.. لم يكن بيده ما يقدِّمه للجنود الذين رفضوا الانسحاب!

أصرَّ «عبد المجيد» على القتال، وعدم الانسحاب، وعلى الرغم من كون ثباته يعدُّ جنونًا أو حماقة، إلا أنه لم يشأ التراجع. بعد ثلاث ساعات

مـن القتال العنيـف فقد فيه معظم جنوده، اضطر للانسـحاب مشـيًا على قدميه إلى منطقة فيق، ومنها وصل إلى درعا.

وصلـت الوحدات الإسـرائيلية إلى خط التـلال البركانيـة التي تعتبر موقعًا إسـتراتيجيًا.. وهناك قبلت إسـرائيل بوقف إطلاق النار.. وسـمِّي الخط «الخط البنفسجي».

***

دار ميساك، 1970

لــم يكن «مغيث» على طبيعته حين اتصلت به «أسـينة» لتحديد موعد اللقـاء القـادم، تـرك لها تحديـد المـكان والزمان، ولــم يُبـدِ أيَّ حماس لرؤيتها. تجاوزت شـعورها بالإهانة، قالت بحسم: «سنحضر معًا عرض فيلم في سـينما أوغاريت ظهر اليوم». وافق بسـرعة، وأنهى المكالمة. لم تكن «أسـينة» تعلـم أنَّ هذا الموعد سـيكون الأخير، وأنَّ القـدر ينتظرها متخفيًا بهيئة «لمار» عند بوابة الصالحية! جاء «مغيث» في الموعد تمامًا، كان يخفـي جـزءًا مـن وجهه بياقـة معطفه العاليـة، ويعتمر قبعـة، ويضع نظارات سـوداء على عينيه! سـارا قليلًا، ودخلا السينما.. على الرصيف الآخر أمام المستشـفى العسكري، كانت «لمار» تحاول ضبط انفعالاتها، والسيطرة على دهشتها!

داخل الصالة المعتمة كان «مغيث» يحافظ على عزلة تامة، مستسـلمًا لأفكاره الخاصة، متناسيًا وجود «أسينة» بجانبه! همست بضيق: «ما بك؟ لسـتَ معي.. ألهذا الحد ما تفكر به خطير؟». لم تكن «أسينة» مخطئة في تقديراتهـا، فقد كان الأمر خطيرًا فعلًا، وقد سـيطر علـى تفكيره، وأورثه الاضطـراب والقلـق. قـال: «الأمـر فعلًا خطيـر، لكنَّ المـكان لا يصلح

للحديث عنه». قالت باستغراب: «إذن...؟». همس بحياد: «جئت لأجلك، لم أشأ أن أزعجك برفضي للدعوة، أعرف كيف ستكون ردَّة فعلك».

تابعت «أسينة» الفيلم وهي واجمة: «لقد نسي عيد ميلاده!»، لم تكن تحاول جعله يعتقد أنها غاضبة، بل كانت تخطِّط بكلِّ برود لردِّ الصفعة بقسوة تتناسب والجرح الذي شعرت به.

حين انتهى الفيلم، غادرت من دون أن تسمح له بتوديعها!

لم يكن «مغيث» في تلك الأثناء مستعدًّا للاتصال بها ومراضاتها، فقد كانت الأمور على الجبهة الداخلية للأردن في أسوأ حال..فبعد الاشتباكات الحاصلة بين المنظمات الفلسطينية والجيش الأردني، أرسل «مغيث» ثلاثة ألوية مدرعة، ولواء كوماندوس، وأكثر من مئتي دبابة لمناصرة منظمة التحرير. لكنَّ الجيش السوري فوجئ بالمعلومات الخاطئة التي زوَّدته بها منظمة التحرير، وبالقتال العنيف لقوات الحجاب التابعة للِّواء أربعين.. والصمود الذي قوبل به من الجيش الأردني! اتصل «مغيث» بـ «صخر» طالبًا منه إرسال الطائرات لمساندة الجيش السوري في الأردن.. «صخر» وجد فرصته التاريخية في تلك اللحظة لإفشال خطة «مغيث» في الدفاع عن الفلسطينيين، فرفض تنفيذ الأمر! مما اضطر الجيش السوري للانسحاب بعد تكبُّده خسائر فادحة في المعارك!

لم يستطع «مغيث» إخبار «أسينة» بالأمر الخطير الذي جعله جافًّا وحياديًّا تجاهها هذا اليوم. اجتمع فور عودته بأركان الجيش، وعرض

عليهم تفاصيل المعارك والخسائر التي مُني بها الجيش السوري بسبب رفض وزير الدفاع مساندته بالطيران. وقرَّروا بالإجماع إقالة «صخر» ورئيس الأركان!

حين وصلت «أسينة» إلى البيت، هبَّت عليها عاصفة أطاحت بهدوئها، وبرودها، ومنعتها من التفكير بحكمة. كانت «لمار» في تلك اللحظة قد صمَّمت على مواجهتها من دون وضع أيٍّ اعتبارات في حسابها، فقد طفح الكيل، ولم تعد تستطيع السيطرة على نهر الحقد المتدفق داخلها. قالت بصوتٍ مرتفعٍ سُمع صداه في البيت كلِّه: «العود يحن إلى أصله، وقدماك تعوَّدتا الخوض في الطين، لا يليق بكِ سوى الجورة التي حفرها أبوكِ خلف بيتكم». على الرغم من أنَّ «أسينة» فوجئت بما سمعته، ولم تستوعب مباشرة السبب في هذا الهجوم، إلا أنها قالت بصوت أعلى: «الأفضل أن تخرسي، أنتِ آخر شخص في العالم يتكلَّم عن الطين، فقد عُجنتِ من القذارة التي يفرغها أبي في الجورة خلف بيتنا». كانت «لمار» على استعداد تام لسماع الشتائم، وتدرك أنَّ «أسينة» لن تصمت، ولن تخاف من كلامها ولا صوتها العالي. قالت وهي تضحك: «آ.. صحيح تذكرت، الجورة التي تعمَّدت بها أمُّك حين جاءت تتوسل إليَّ أن أجد لكِ حلًّا يسترك.. وأنا الغبية التي رقَّعتُ بيدي هاتين ما اقترفته أنت والكلب عشيقك». فحَّت «أسينة» بحقد: «عملتِ بأصلكِ». كانت الصفعة أقوى من أن تحتملها «لمار»، فهجمت على «أسينة» تجرُّها من شعرها، وركلتها بكلِّ ما تحمله من حقد. تهاوت «أسينة» فجأة، ووقعت

أرضًا وسط ذهول «لمار»، التي لم تكن ضربتها تكفي لتوقع «أسينة»! في تلك اللحظة دخل «صخر».. وفوجئ بالمشهد، كاد يصرخ بعمَّته متسائلًا عمَّا يجري لولا انتباهه للدم الذي يسيل على الأرض من جسد «أسينة». ركض بسرعة طالبًا الإسعاف!

على الرغم من سماعه جزءًا من شجارهما، ووضوح كلام عمَّته الذي لا يرقى إليه شك حين قالت لـ «أسينة»: «لن تستطيعي الإنكار هذه المرة، رأيتك بعينيَّ هاتين وأنتِ تدخلين معه إلى سينما أوغاريت». إلا أنه تجاهل الأمر، ولم يحاول سؤالها عمَّا حدث حين عاد إلى البيت! لكنَّ النمل مشى في ذراعه ليلًا، وترك آثار أقدامه نقطًا بنية صغيرة، لم يهتم لوجودها وإن ضايقه تلبد أصابعه، وصعوبة تحريكها لدقائق!

لم يكن أمر «أسينة» ليصرف أنظاره عمَّا يحدث في هيئة أركان الجيش، فقد كانت عيونه مبثوثة في كلِّ مكان، وتلتقط أيَّ تحرُّك مهما كان صغيرًا وتافهًا. عرف في التوقيت المناسب القرار الذي اتخذه «مغيث» ورئيس الجمهورية، ولم يكن ذلك يعني له الكثير، فقد كان على يقين أنَّ هؤلاء رجال أحلام وسفسطات حزبية فارغة أكثر من كونهم رجال حكم.. وإلا ما تهاونوا في محاكمته بعد خسارة الحرب التي كوفئ عليها بترسيخ سيطرته على الجيش. استدعى صديقه الجنرال على عجل، وتدارسا خطة بسيطة..

الاجتماع المصغر في وزارة الدفاع بين «صخر» والجنرال، نتيجته كانت صاعقة وسريعة.. صدرت الأوامر لقطعات مقربة من الوزير بمحاصرة المقر الرئاسي.

خلال ساعات كان الرئيس نور الدين و«مغيث» وشخصيات متنفذة في الحكومة وهيئة الأركان، قد اعتُقلوا، وحُشروا في سيارات عسكرية نقلتهم إلى سجن المزة!

بعد أسبوع على الحادثة، عادت «أسينة» إلى البيت، وقد أمر الطبيب بأن ترتاح لمدة أربعة أشهر في سريرها ريثما تتم ولادتها، وألا تتحرَّك نهائيًا، والأفضل أن ترافقها ممرضة طيلة تلك الفترة خوفًا على الجنين!

لم تمتنع «أسينة» عن التدخين والحركة على الرغم من تحذيرات الطبيب، بل كانت تتناول عرق التين خلسة بين وقت وآخر، كي تتغلَّب على حقد تراكم داخلها، وصار يستفزها، ويوتِّر أعصابها مع كلِّ حركة في البيت أو صوت تسمعه، أو رنين هاتف. لم يكن ما حدث لـ «مغيث» - والذي سرَّبته إليها «منور» في حديث عابر وسريع بعيدًا عن عيني «لمار» ورقابتها - وحده ما سبَّب لها تلك الحالة التي جعلتها قاب قوسين أو أدنى من انهيار عصبي مفاجئ، بل صمت «لمار» وانعزالها في غرفتها، جاء بنتيجة عكسية، كانت تتمنَّى مواجهة تجعلها تنتقم لنفسها مما فعلته «لمار»، لكنَّ الأخرى كانت أذكى من تعريض نفسها لمواجهة خاسرة. فهي تدرك جيدًا أنَّ ما فعلته قد يتسبب في سقوط الجنين فجأة وموته، ولن يشفع لها وقتها كل ما فعلته لأجل «صخر»! لهذا التزمت غرفتها، وصارت تقضي معظم وقتها خارج المنزل في زيارات لصديقات «أسينة»، أو في الأسواق، خاصة بعد أن أدخل «صخر» الأولاد مدارس خاصة، وصار لهم معلمون خصوصيون، وجليسة خاصة وخادمة.. لم

يعد لها أيُّ دور في تربيتهم، ولـم يعد بإمكانها أن تضيف لهم أيَّ شـيء.. لكنَّها كانت واثقة أنَّ «مي» و«مجيب» سـيبقيان غرسـة يديها التي سـتُثمر كما أرادت لها مهما ابتعدا عنها!

بقيـت «أسـينة» تتحين الفرصـة لاصطياد «لمـار»، كانت تفـش غلَّها بالممرضـة، والخادمـة، وجليسـة الأطفال التـي تقوم بالعناية بـ«زياد»، وحتـى المدرِّسـين لم يسـلموا من تدخلهـا، وتوبيخها لهم أمـام ولديها. وتطـوَّرت حالتها، فصارت ترزح تحت كوابيس لا تنتهي حتى في أحلام اليقظـة. حالتهـا تلك جعلـت «صخر» يستشـير أطباء كثيريـن، ونصحوه بنقلها إلى المستشفى كي تكون تحت رقابتهم ريثما تضع طفلها.

الشـهران الأخيران اللـذان قضتهما «أسـينة» في المستشـفى، عادت الأوضـاع فـي منزل «صخـر» إلـى طبيعتها. وتفـرَّغ لمحاسـبة خصومه، وتهيئة الدولة لاستفتاء شعبي على تنصيبه رئيسًا!

***

المخابرات الجوية في حرستا، كانون الثاني 2013

بساط الريح

دخل الغرفة ضابط قصير القامة، ملتحٍ، برتبة مقدم. أمر بإزالة العصابة عن عينيه وهو يبتسم، بالكاد لمح هيئته، فارتجف قلبه.. سمعه جيدًا، ما تزال عبارة الترحيب التي ثقبت أذنه في الخندق ترنُّ فيها: «كيف الشباب؟»، ارتعدت فرائصهم، هو الوحيد الذي لم يعرف معنى حضوره، ومَن يكون! سألهم: «ألم تعرفوني؟». ران صمت ثقيل لمس خلاله الفزع الذي حوَّل بشرة الشباب إلى لون شمعي.. لأوَّل مرَّة في حياته يرى الموت على هيئة رجل! قال المقدِّم: «أنا عزرائيل، بل أنا الله، جئت لأقبض أرواحكم، لكن ليس لديَّ مزاج لذلك الآن.. سأترككم أيامًا أخرى»! نظر إلى الخندق، ضرب الأرض بالسوط، أثار الغبار، وأمرهم بمتابعة الحفر!

ها هو الموت يطلُّ مرَّة أخرى على هيئة رجل سمَّاه المعتقلون «أبو الموت»، فهو القادر على قبض أرواحهم ساعة يشاء، وحسب مزاجه. في لقائهما الأوَّل لم يلتفت «أبو الموت» إليه، لم ينظر في وجهه، لم يوجِّه له أيَّ كلمة. أمَّا اليوم فقد حضر خصيصًا لأجله! هل اقترب أجله؟ التفت إلى الجلَّادين، وقال مازحًا: «كيف الهمة شباب؟ أكرمتموه؟». قال

الجلَّاد: «ننتظر أوامرك سيدي». التفت إلى «يونس»: «أي سيد يونس.. هات لشوف، سمعت أنك مؤرخ، والجهات العليا تفتخر بوجود أمثالك لديها. الجنرال شخصيًّا أرسل توصية بك! لكن.. ما لا يعرفه الجنرال أنه لا يوجد عندي كبير، طُز فيك وفيه.. أنا لا أقبل توصيات من أحد.. ليكون حضرته مفكِّر يخلِّد نفسه بكتاب. وينتظر خروجك من هنا؟ سنخبره أنك لن تخرج إلا إلى القبر. إذا كانوا حريصين على حياتك، لماذا أرسلوك إلينا؟». فكَّر «يونس»: «ولماذا يحرصون على حياتي؟ لا أظنُّهم يفعلون أو يهتمون»! تابع «أبو الموت»: «حظك سيئ، أنا لا أهتم بالتاريخ، ولا أريد تخليد نفسي، أتعرف لماذا؟ لأني أنا خالق التاريخ وصانعه، ولا أحتاج إلى الرعاع ليخلِّدوا ما أفعله، سيُخلَّد رغمًا عنهم.. أنا قادر على إرسالك الآن إلى جهنم، وقادر على منحك فرصة أخرى للحياة.. هل جرَّبت هذا؟». وأشار بيده إلى لوح خشبي على شكل الجسد البشري، له مفاصل في وسطه. قال: «سيأخذك برحلة عبر الزمن، وسأتركك بعدها تفكِّر بقصَّة جديدة تؤلفها. ألست مؤلف حكايات؟ أنا لا أحبُّ القراءة، لأني أستمتع بوقائع أصنعها بنفسي، سترى الآن بعينيك». لم يكن «يونس» قد رأى بساط الريح من قبل، وإن سمع عنه. أوَّل ما خطر له حين فكَّر فيه أنه آلة تعذيب تشبه مروحة السقف، يربط إليها المعتقل وتدور به، وإلا لماذا سُمِّي بساط الريح؟ لم ينتظر ط يلًا، فبعد أن قيَّده الجلَّاد إلى اللوح الخشبي، وشدَّ وثاقه جيدًا، طوى اللوح الخشبي فالتصق وجهه بقدميه.. وانهالت السياط عليه، على قدميه ورأسه، حتَّى أطار الألم صوابه.. وصرخ بصوتٍ مشروخ: «يا ألله». سمع صوت «أبو الموت»

يقول: «أتناديني؟ أحبُّ أن أسمع اسمي ثانية، وثالثة، ورابعة، و...». فتح اللوح الخشبي، ودلق الجلَّاد سطل الماء فوق رأسه.. حين فتح عينيه كان مرميًّا على أرض المهجع والدم قد تجلَّط حول فمه، وقدميه. ورفاقه يتحلَّقون حوله!

***

تل الجرب، 1971

اختــار «صخــر» أن ينطلــق موكبــه أولًا إلى تــل الجرب، ومــن هناك يواصل إلى قلب العاصي، ثم حلب، ليمر بالمدن الواقعة في الشمال.

حيــن وصل مدخل القريــة، أمر الموكب بالصعود إلــى التل.. توقف أمام القصر.. ترجَّل من السيارة والنجوم تتلألأ على كتفيه!

كان النــاس في القرية قد نصبــوا خيمة كبيرة، قاموا بوضع مدفأة فيها، واســتعدوا بجميــع أنــواع الزينــات والضيافة! شــجرة الخــروب العجوز كانت تغص بالزينة حتَّى لم تعد أوراقها الخضراء تظهر للناظر إليها. لكنَّ القصر هو ما خطف بصره. تطلَّع إلى السطح، كان يتمنَّى في تلك اللحظة لــو أنَّ «شــفق» وقفــت هنــاك لترى بعينيهــا إلــى أيِّ حال صــار.. وتدرك بحدسها إلى أيِّ حال ستصير! مال على الجنرال، وقال هامسًا: «ألا ترى معي أنَّ وجود القصر هنا يسدُّ المدخل الشمالي للقرية؟». التقط الجنرال الفكرة بسرعة، وقال: «سأجد مهندسًا جيدًا يضع مخططًا لشقِّ طريق من هنا إلى القرية.. لكن ألا ترى سيدي الرئيس أنَّ التل سيكون عائقًا أيضًا؟ في رأيي المتواضع أنَّ هذا التل يمكن إزالته نهائيًا، وتحويل المساحة إلى طريق دولي مشــجَّر من الجانبين». ابتســم «صخر»، وهزَّ رأسه موافقًا من

دون تعقيب. لم يلبث سوى ربع ساعة، ونهض ليغادر على الرغم من إلحاح مشايخ القرية لبقائه على الغداء.. اعتذر لانشغاله في جولة طويلة، ووعد بزيارة ثانية بعد التحسينات التي ستطرأ على القرية!

حين استدار ليركب سيارته، رآها واقفة بباب القصر، وهي تقبض على يد طفل في السابعة من عمره يكاد لشدَّة شبهه بها، يكون نسخة مصغرة عنها! تسمَّر مكانه للحظات، وضع بعدها نظارته السوداء بحركة تلقائية، وركب السيارة، وأشار إلى الموكب بالانطلاق. حينها فقط شعر أنه أصبح شخصًا آخر.. لم يرتعش شيء داخله، لم يشعر بحنين، لم يهزه وجهها الطافح بالبراءة والصفاء، ولا نظرتها المستغربة.. لم يتوقف ليرى إن كانت ستتقدَّم للسلام عليه.. فقط تحرَّك داخله شيطان صغير، همس له: «يجب أن تنسف التل». فكرة نسف التل رافقته طيلة رحلته إلى الشمال، حتى تلك الحادثة المشؤومة في إدلب، حين رماه أحد المتظاهرين بحذائه، لم تحرف مسار تفكيره شعرة، بل زادت في حقده، ووسَّعت مساحته. كان يظنُّ أنَّ وجوده في إدلب سيكون هيِّنًا وسلسًا، وسيحقِّق إنجازًا كبيرًا يكمل ما فعله صديقه المليونير «المحارب 88». لكنَّ حساب السوق لم ينطبق على حساب الصندوق! أوقف جولته في الشمال، وعاد إلى دار ميساك!

لم تكن الأمور في دار ميساك على ما يرام حين وصوله، فقد اتصلوا به من المستشفى، وأخبروه أن «أسينة» تعاني آلام الولادة، وأن حالتها سيئة! ذكر اسمها أحضر إلى ذهنه سؤالًا حاول تجاهله طيلة الأشهر الماضية:

«مَـن يكون؟». ومع يقينه أنـه هو غريمه اللدود ولا أحد غيره، إلا أنه أراد أن يسمع الردَّ بصوتٍ آخر. فتح باب غرفة عمَّته من دون استئذان.. كانت «لمـار» تنصت إلى برنامج في الإذاعة بكلِّ حواسـها، وقد قرَّبت المذياع مـن أذنهـا، وأخفضت الصوت كثيـرًا بما يسـمح لها بالتقـاط الأصوات القادمـة من الخارج. لم يترك لها فرصـة لتنهض، أومأ بيده لتبقى مكانها، وسـألها: «أهو مغيـث؟». أذهلتها المفاجأة، وبقيت صامتة. كرَّر سـؤاله، ولـم يجد جوابًا!

جلس وحيدًا في غرفته، كفُّه المتشبثة بمسند الكرسي تخدَّرت، وصار النمل يمشي فيها، حتى وصل ذراعه، فكتفه، فرقبته.. عدَّل جلسته قليلًا، مدَّ أصابعه، وحرَّك ذراعه محاولًا استعادة إحساسه بها.. لم تفده الحركة فـي إزالة الخدر، بل زاد قليـلًا، وبدأت آثار بقع بنية تظهر على ذراعه! لم يهتم كثيرًا للأمر، كانت أفكاره الصاخبة هي ما يؤرقه..

كان «صخـر» في تلـك اللحظة قد أخذ قرارًا نهائيًّـا ببقاء «مغيث» في السـجن إلى الأبد.. لـن يقتله، فالموت مريح وسـريع، يريده هكذا أمامه يتعذَّب باستمرار.

اسـتدعى «صخـر» في اليـوم الثالـث لوصولـه الجنرال، وسـأله عن مشـروع فتح الطريق الدولي إلى تل الجرب. أخبره الجنرال أنَّ المناقصة سـتتم الأسـبوع القادم لاختيار المقاول الذي سـينفِّذ المشـروع، وأنه تمَّ اختيـار المهندس الذي سـيقوم بمجمل العمل. سـأل «صخر» فجأة: «ما اسـم السـينما الواقعة في بوابة الصالحية؟». اسـتغرب الجنرال السؤال،

لكنَّـه أجاب بسـرعة: «أوغاريت..!». قـال «صخـر»: «أرى أن تُهدم هي والمبانـي المجاورة لهـا، أعتقـد أنَّ المنطقة هنا تحتاج تحسـينًا لإنعاش الصالحية». لم يفهم الجنرال شـيئًا، لكنَّه قال باستسـلام: «سـأصدر أمرًا إلـى المحافظة لإزالة البناء». نهـض الجنرال مسـتأذنًا بالانصراف، لكنَّ «صخـر» اسـتوقفه، وسـأله: «مـا أخبار نهر بـردى؟ أريـد إصلاحات في المدينـة تشـمل النَّهر، ضـع هذا نصب عينـي المحافظ». أبـدى الجنرال الموافقة وهو يبتسـم، وقبـل أن يصل إلى الباب اسـتوقفه «صخر» قائلًا: «هناك مشـروع في المحافظـة لبناء فيلات على ضفتي النهـر وحفر آبار، قل ذلك للمحافظ»

***

دار ميساك، 1971 : 1980

الأمور التي شغلت «أسينة» بعد ولادتها أكثر من أن تحصى، أولها كان الانتقال إلى القصر الرئاسي في أرقى أحياء العاصمة، وحفلات الاستقبال لنساء الشخصيات المتنفذة في الدولة، واستقبال الوفود القادمة من قريتها للمباركة، كان كلُّ شيء حولها يرغمها على الابتعاد عن طفلها الرضيع في هذه المرحلة، فجلبت له مرضعة ترضعه، وتعتني به.

في اليوم الذي خصَّصته لاستقبال أقاربها، فوجئت بابن أخيها يطلب منها الحديث على انفراد، وعلمت منه بمشروع الطريق الدولي الذي سينسف تل الجرب ليصبح مدخلًا للقرية، وطلب منها أن تتوسَّط له ليأخذ مناقصة المشروع. ابتسمت «أسينة». وافق هواها الأمر، وتخيَّلت القصر وهو يتهاوى تحت آلات الحفر.. وتخيَّلت «شفق»! أخيرًا جاء اليوم الذي سترى فيه غريمتها ذليلة، وفقيرة و.. التفتت إلى ابن أخيها، وقالت: «سترسو عليك، لا تحمل همًّا.. لكن أخبرني عندما ستبدؤون الهدم، أودُّ زيارة القرية في ذلك اليوم».

لم تكن «منور» بين المدعوات إلى حفل استقبال النساء، فقد قامت زوجة الجنرال «نازك خانم» باختيار الشخصيات الدار ميساكية العريقة من نساء التجار، وزوجات الوزراء والضباط، وأرسلت إليهن بطاقات الدعوة. اتصلت «منور» بـ «أسينة» لتبارك لها، لكن الأخيرة طلبت من خادمتها أن تعتذر للمتصلة بأن السيدة الأولى مشغولة الآن بضيوفها! وأن بإمكانها الاتصال في وقت آخر. لم تيأس «منوّر»، اتصلت أكثر من مرَّة، وكانت الخادمة تردُّ معتذرة بحجج متشابهة. فهمت حينها أن «أسينة» تتهرَّب من لقائها، ولعلَّها لا تريد رؤية ماضيها أمامها مرَّة أخرى. تذكرت أوَّل يوم التقتا بـ «مغيث» في محل بكداش.. «منوّر» لم تستطع بلع الإهانة، جمعت جاراتها، وثرثرت قليلًا عن الماضي، وعن جارتها التي كانت لا تعرف كيف تسرِّح شعرها، ثم أصبحت فجأة السيدة الأولى، ولم تعد ترى أحدًا أمامها. ربما من رحمة القدر أن أمسكت «منوّر» لسانها عن الخوض في ذكرى «مغيث»! فلم يمضِ على تلك الصباحية أيام، حتى أقيل زوجها من وظيفته، وجلس في البيت.

فكَّرت «منوّر» جيدًا، «مغيث» أصبح في سجن المزة، و«أسينة» السيدة الأولى، وهي عليها أن تبتلع لسانها، وتنسى هذه الذكريات كلها إن كانت تريد العيش بسلام هي وزوجها وأولادها.. لقد أدركت كلَّ شيء، فطلبت من زوجها أن يغادروا العاصمة، ليبتعدوا عن ضجيج المدينة التي لم يعد لهم فيها شيء!

***

صار «مغيث» من الذكريات التي لم تعد تخطر على بال «أسينة»، فقد نسيتها تمامًا. وانغمست كلية في حياتها الجديدة.الحلم الذي انتظرت طويلًا أن يتحقَّق، صار الآن بين يديها.. بل أكثر مما حلمت به. حلمها لم يصل يومًا إلى زيارة بلدان أجنبية بصفة رسمية، ومقابلة زوجات الرؤساء، والتجوُّل في تلك المدن بمرافقة رسمية! لم تعد تمدُّ يدها لفتح باب السيارة، أو باب الغرفة، أو لتسحب الكرسي في مطعم أو على مائدة أحد الكبار.. خمرة الحلم أدارت رأسها بشدَّة، وعلى الرغم من جهلها بلغة مَن يستقبلونها، وعدم معرفتها بالبروتوكولات، إلا أنها تعلَّمت جيدًا كيف تتخلَّص من كلِّ ما من شأنه إرباكها أو إحراجها. كانت حريصة على تقليد مَن حولها بدقة، تسترق النظرات، وتتعلَّم حتى كيف ترسم الابتسامة على ملامحها في كل موقف. لم تكن تجربة المرايا فاشلة.. فقد احتاجت إليها كثيرًا خاصة الآن بعد أن أصبحت السيدة الأولى للبلاد! أعادت «صخر» إلى واجهة اهتماماتها، بأن وضعت صورته الشخصية في إطار ثمين، بملابسه العسكرية، والنجوم تزيِّن كتفيه، وعلَّقتها في صدر قاعة الاستقبال.. كما وضعت صورًا أخرى أصغر حجمًا في باقي الغرف.. كانت تنظر إليها بإعجاب - كما نظرت يومًا إلى صورة العقيد - وتبتسم وهي تهمس: «لكن شتَّان، أين هذه من تلك؟!».

بعد عودتها من زيارة خاطفة للاتحاد السوفييتي برفقة زوجها أواخر الخريف، لاحظت «أسينة» أن الرضيع الذي تركته للخادمة لم يكن طبيعيًّا. فهو لا يبكي، ولا ينظر إلى مصدر الصوت و..

حين رآه الطبيب المختص، قال لها: «بكلِّ أسف سيدتي، الطفل يعاني من تخلُّف، نموه الجسدي سيكون طبيعيًّا، لكنَّ عقله لن يكون كذلك». غضبت «أسينة» إلى درجة كادت تصفع فيها الطبيب، وأمرت بطرده من القصر.. كانت براكين من الحقد تتراكم داخلها، وتنتظر شرارة للانفجار.

واجهت «صخر»، وهي تصرخ: «الحقيرة، السافلة، هي السبب، هي التي دفعتني.. هي...». كانت تتهم عمَّته صراحة بالأذى الذي لحق طفلها. لم يتكلَّم «صخر»، حدَّق فيها ببرود، وهي تصرخ، وترمي الأشياء من حولها.

«لمار» سمعت الضجيج، وفهمت سببه، فبقيت في غرفتها، لم تشأ أن تكون طرفًا خاسرًا في الصراع. «أسينة» لم تتوقف عن كيل الشتائم لها ولعائلتها وللساعة التي رأتها فيها و.. عندها نطق «صخر» بهدوء: «والساعة التي رأتكِ فيها تخرجين من السينما.. انتبهي لنفسك جيدًا، لا تلقي اللوم على أحد في مرض طفلك، أنت المسؤولة عن مرضه إن لم يكن بسبب إهمالك، على الرغم من تحذيرات الأطباء، فبسبب وراثة ما، عليكِ البحث عنها».

قال كلماته تلك، وخرج!

أنقذ «أسينة» من الاضطرابات التي تعيشها اتصال ابن أخيها طالبًا منها الحضور إلى القرية لمشاهدة أعمال شقِّ الطريق. حضَّرت نفسها للذهاب بموكب رسمي، وأصدرت أوامرها لعمل استقبال شعبي لها

هناك. تلك الليلة لم تنم، كانت تتقلَّب في فراشـها راسـمة المشاهد التي سـتراها هناك.. الاحتفـالات، القصر وهو يتهاوى، «شـفق» وهي تبكي، وربما تأتي لزيارتها، وتتوسَّـل إليها لإيقاف عملية الهدم و.. كان مشـهد الخرابـة التـي خلَّفها هدم السـينما والمبانـي المجاورة لهـا يتصدَّر تلك المشـاهد. لا يمكنهـا أن تنسـى كيف أصبحـت ذكرياتها تحـت الركام.. ومـع أنَّها تفهـم جيدًا، وتقـدِّر نزعة «صخـر» الانتقامية التـي جعلته يأمر بهدم السـينما.. إلا أنها لـم تستطع منع نفسها من الحقد عليه لأجل ذلك! نهضت من فراشـها، اتصلـت بزوجة الجنرال، ثرثرتـا طويلًا، حكت لها عن قلقها بسـبب الزيارة، وعن رغبتها في أن ترافقها، فهي سـتضيق ذرعًا بالنـاس هناك، وسـتكون مسـرورة لـو رافقتها.. ثـم تحدثتا عـن الأفلام البوليسـية، وجرائم القتل، ووصلت «أسينة» إلى سؤالها عن أفضل أنواع السـم التي لا يمكن كشـفها في الجرائم، فحكت زوجة الجنرال عن أحد تلك السموم واسمه العلمي، وأنه لا يمكن اكتشافه بسهولة، ويحتاج مَن يشربه إلى وقت كي يموت!

***

دخـل «صخر» غرفتها كزوبعة، صفق الباب خلفه، وجلس في العتمة كمـا كان يفعـل حين كانا في القرية! فتحت «لمـار» عينيها ببطء، لم تنظر نحوه، كان قلبها يخفق بسرعة، وقد استشعرت خطرًا. نهضت من فراشها، لم تنبس بكلمة، سـوَّت شعرها، وأشعلت أعواد البخور. كانت خطواتها المتثاقلة تنبئ عن شـيخوخة داهمتها، وهي تتشبث بأطياف الزمن الغابر!

لفَّت كتفيها بشالها القطيفة الذي لم تتخلَّ عنه على الرغم من كلِّ الثراء المحيط بها. انتظرت قليلًا كي يتكلَّم. همس وكأنه يتحدَّث مع نفسه: «لقد كان ذلك فوق طاقتي». حدَّقت في الستارة المنسدلة التي يتراقص عليها ظلُّ لهب الشمعة، فيرسم أشكالًا غريبة، توحي ببداية حريق. كانت ترى الظلَّال تتحوَّل إلى فراشات تتطاير حول اللهب! قالت وغصَّة تشرخ نبرة صوتها: «أنت بداية الأشياء، وأنت نهايتها، فكيف يؤثر بك الرعاع؟». قال بحسرة: «لكنَّهم ضربوني بأحذيتهم!». قالت بثقة: «هم أنفسهم سيركعون، ويقبِّلون حذاءك». سألها: «كيف؟». قالت: «خذ عني وصاياي.. لا تنسَ منها شيئًا.. إياك أن تنسى». أراد أن يسألها عن تفاصيل ما رأته عند سينما أوغاريت، لكنَّه تراجع في آخر لحظة.. شعر بالنمل يمشي داخل دمه، يخدِّر كفَّه، والمزيد من البقع البنية تنتشر في ذراعه!

في العاشرة بدأ الموكب بالتحرُّك من أمام القصر الرئاسي.. في الخامسة كانت «أسينة» تنفرد بأمِّها في غرفتها القديمة، وتحدِّثها عن إعاقة طفلها، وكلام «صخر». تنهَّدت «جنَّات»، والدمعة عالقة في أهدابها.. هزَّت رأسها بأسفٍ، وقالت: «صخر محق. والدك كان عنده أخ توفي في الثلاثين من عمره، ولم يره أحد، كانوا يحبسونه في القبو، ويقيِّدونه كي لا يخرج من البيت فيؤذيه الأولاد». صُعقت «أسينة»، كيف يعرف «صخر» تلك الأمور وهي لا تعرفها! «جنَّات» حاولت تقليل شأن الخبر، وتخفيف وطأته على ابنتها، بأن ذلك يحدث في كل العائلات، ولا أحد يحصي مواليده الذين يتوفون بسبب تلك الأمراض، بل الأمر

أقـل من عـادي. ليس هـذا مـا أقلق «أسـينة»، بـل كيفية معرفـة «صخر» لأمـور تخصها! إذن هي تحت ناظريه.. هـل يراقبها؟ أبعدت الفكرة عن رأسـها، كانـت تودُّ الاحتفال بالمشـروع، وتنسـى كلَّ ما عـداه. خرجت بصحبـة زوجـة الجنرال، قابلـت الناس، واسـتمعت بصبر إلـى طلباتهم وشـكاواهم.. وتقبَّلـت الهدايا منهـم. تناولـت الطعام على مائـدة كبيرة تحت شـجرة الخروب في الهواء الطلق.. وأكملـت احتفالها في المنزل مع أقربائها.

لـم تكن «شـفق» هناك حين بدأت الآليات الضخمـة بهزٍّ عرش التل، وخلخلـة التربة تحت القصـر، كانت تلك الغصة الوحيدة التي علقت في حلـق «أسـينة»، فقد تمنَّـت طويلًا أن ترى الانكسـار والحسـرة في عيني غريمتها! لكنَّ «شـفق» التـي وعت جيدًا التغييرات المشـؤومة الحاصلة فـي الدولة وتل الجرب، اختـارت الرحيل بصحبة والدتهـا الأجنبية إلى أرض أجدادهـا. لـم يكـن السـيد «منصور» حاضـرًا هناك، لـم يعرف أنَّ قصـره تهاوى تحت أسـنان تنين حديـدي، وأصبح ركامًـا.. وأنَّ ابنيه قد هربا تحت تهديد السـلاح إلى جهة مجهولة. السـيد «منصور» كان راقدًا بسـلام في قبر مجاور لقبر شـقيقه «علـي» حين دخلت «أسـينة» المزار، وأمـرت بصـبِّ النفـط عليه، ثم أشـعلت شـمعة لتنيـر المـكان بلهب لم يتوقـف لسـاعات.. قبل أن تكمـل الآلات الضخمة عملها بنسـف التل، ونقل التربة إلى شاحنات كبيرة!

لـم تأخذ عمليـة إزالة التل وقتًا طويـلًا.. لكنَّ إزالة شـجرة الخروب كانت كارثة بالنسبة للجرَّافة وسائقها. حين ضرب السائق بأسنان جرَّافته عمـق التربة تحت الشـجرة، توقفت الجرَّافة عن العمـل، انطفأ المحرِّك، وبقيـت الأسـنان والحوض المعدني حتى السـاعد الطويـل عالقة داخل التربة! اضطر العمال إلى الحفر بالفؤوس حولها، حتى تحرَّرت من أسـر التـراب، وعادت مذعورة إلـى الوراء! أعاد السـائق المحاولة، لكنَّه هذه المرَّة خرج بخسـارة أكبر، فقد انكسر الساعد الحديدي، وخاف السائق، ونـزل من قمرته مذعـورًا.. كان يرتجف، ويتمتم بكلمـات غير مفهومة، حاول العمال تهدئته، سـقوه ماءً، وحاولوا أن يفهموا ما حدث.. أخبرهم أنَّ امرأة ساحرة الجمال، كانت تقف أمام الشجرة، وتدفع جرَّافته بيديها.. كانت شقراء بعينين حمراوين! رفض السائق أن يقود جرَّافته ثانية، وحين استبدلوا به آخر، تكرَّر الحادث! المهندس المسؤول عن المشروع اقترح بقاء الشجرة، وتسييجها بسور حجري، وتحويل المكان إلى دوار!

قرَّرت «أسينة» البقاء في القرية مدَّة أسبوع، وسمحت لزوجة الجنرال بالعودة. كانت قلقة بشأن «لمار»، إذ لم يصلها خبر من العاصمة يطمئنها. كانت كلَّ يوم تخرج إلى مكان الحفريات، تراقب العمل.. تتجوَّل بعض الوقـت، وتعـود حاملة قلقها معهـا.. ما الذي حدث؟ إلـى الآن لم يصل خبـر عن «لمار»! لكنَّها اسـتيقظت في اليوم السـابع لوجودهـا في القرية علـى اتصال هاتفي من القصـر، نادتها أمُّها لترد.. كان سـكرتير «صخر» علـى الطرف الآخر يقول بنبرة حزن: «البقية بحياتك سـيدتي، طلب مني سيادة الرئيس أن أخبرك لتبقي في القرية فهو قادم إليها مع جنازة عمَّته».

وقعت السماعة من يد «أسينة». وبقيت هكذا دقائق، حتَّى هزَّتها «جنَّات» متسائلة عمَّا يحدث. نطقت بذهول: «لمار.. ماتت». لم تُخفِ «جنَّات» شبه ابتسامة، وقالت: «لا شماتة في الموت، لكن ما الغريب؟ لتمت، يكفيها إزعاجًا لكِ». قالت «أسينة»: «أنتِ لا تفهمين.. أنا لم أستوعب بعد كيف حدث ذلك». قالت «جنَّات»: «ليس ضروريًّا أن تفهمي، ماتت كما يموت بقية الناس، على كلِّ حالٍ ستعرفين حين يصلون».

خرجت الجنازة من دار ميساك فجرًا، كانت السيارات المرافقة لسيارة الإسعاف تمشي ببطءٍ يتناسب مع هيبة الموقف، وقد أُسدلت الستائر، واتَّشح كلُّ شيءٍ بالسواد. سيارة القائد السوداء التي تسير في وسط الرتل الوحيدة التي رفعت ستارتها.. كان «صخر» في تلك اللحظات يشعر أنه سيدفن جزءًا منه! يده المتكئة على النافذة المفتوحة تخدَّرت تدريجيًّا، وأحسَّ بالنمل يمشي تحت كمِّه متسلِّلًا إلى صدره. لم يشأ أن يُنزل ذراعه عن النافذة، ظلَّ يحدِّق بالنهر والأبنية التي نبتت على جانبيه كقرون شيطانية، والحفارات التي تثقب جوف الأرض بقوة.. والعمال الذين لا يرفعون رؤوسهم أبدًا.. وابتسم ابتسامة رضا لم تستمر سوى لحظات!

هذه المرَّة لم تصعد «لمار» التل وهي تجرُّ حمارها لاهثة.. لم تقف مرارًا لتمسح حبَّات العرق وتتأمل مشهد القرية الغارقة في عزلتها.. هذه المرَّة كانت عينا «لمار» المغمضتان إلى الأبد، تتأملان مشهد الغياب الأخير لوجوه مَن حولها وهي تنزل في حفرتها، ويُهال عليها التراب!

بعـد الانتهاء من طقوس الدفن والعزاء، لم يبقَ «صخر» لليوم التالي، اعتـذر مـن مستقبليه بأنَّ لديـه أمـورًا هامة فـي العاصمة، وغـادر القرية عصرًا.

كانت «أسـينة» تتحـرَّق لمعرفة كيفية موت «لمـار».. لكنَّها احتفظت بفضولهـا بعيـدًا عن عيني «صخر»، وسـألت سـكرتير القصـر: «ما الذي حـدث؟ كانـت تتمتع بصحة جيدة!». قال السـكرتير هامسًـا: «سـيدتي، الرئيـس منعنـا من التحدث فـي الموضوع، وطلب منـي ألا أتحدَّث أمام أحـد». حدجته بنظرة قاسـية، وقالت: «أمام أحد يـا غبي، وليس أمامي». تلعثم السـكرتير: «أجل سـيدتي.. ماتت مسـمومة، الطبيب الذي كشف عليهـا قـال ذلك، لكـنَّ الرئيس طلب منه تسـجيل الوفاة بشـكل طبيعي، لا يريـد سـماع أقاويـل، وطلـب مني تغييـر طاقـم الخدم كلـه، وصرف الطباخيـن. الطبيب قال إنها لم تتناول طعامًا في ذلك اليوم، فقط شـربت متة! العبوة التي وجدنا فيها السم كانت جديدة لم تمس من قبل». أومأت «أسينة» إليه ليسكت متصنعة الحزن، وذهبت إلى غرفتها.

***

دار ميساك – سجن المزة العسكري، 1974

في زحمة سيطرته على الجيش، وخروجه من الحرب، أهمل الوصايا العشر التي أملتها عمَّته عليه، وكتبها بخط يده. فقد أغلق باب الغرفة منذ وفاتها ومنع الاقتراب منها. اليوم وبعد توقيع اتفاقية فصل القوات وانتهاء حرب الاستنزاف. تفرَّغ لإحكام قبضته على الدولة. دخل غرفة «لمار»، أغلق الباب خلفه بهدوء.. اقترب من طاولتها، أشعل الشمعدان.. رأى الظلال تتراقص على الجدران.. كانت «لمار» حاضرة في اللهب، تتسلَّق الستارة، تستقرُّ فوق التاج الخشبي، تمدُّ يديها في حركة احتضان.. يفاجأ بأنه يرغب في الركض إليها، والاختباء في حضنها كما كان يفعل وهو طفل. سمع صوتها واضحًا: «لا تفعل». توقف مكانه، لم يسمع نبضات قلبه، لم يكن هناك ضجيج، الصمت المخيِّم في المكان، وهو، وورقة انتزعها من الحائط، ووضعها أمامه على الطاولة. حتى الكلمات امتدَّت ظلالها على شكل أذرع.. قرأ وصاياها للمرَّة الأخيرة: «قوتك في الجيش، ما دمتَ تسيطر عليه، فأنت تسيطر على الدولة. اشترِ مَن ليس لديه طموح، وبلا شخصية. ابحث عن الانتهازي والفاسد والسافل، وضعه في موضع المسؤولية.. ليكن وزراؤك من اللصوص والمهربين

والقوّادين. ضع دستورك بنفسك. احصر صلاحيات الشعب في التصفيق والدبكة والاحتفالات. دعِ العامة يقتتلون من أجل رغيف الخبز. لا تثق بأحدٍ مهما كان ولاؤه لكَ كبيرًا. إياك أن يسود القانون، ويصبح القضاء نزيهًا. الفساد حاجة أساسية لتكوين نخبة من رجال الأعمال، دعهم يغرقون، وسجِّل كلَّ ما يفعلونه بحرص ليكون سيفًا في يدك مسلطًا على رقابهم وقت الحاجة. ليكن لدى عائلتك شراكات مخفية مع رجال الأعمال، وافرض عليهم إتاوات. الباب مفتوح أمامك الآن للغزو».

انتبه إلى أنَّ الوصايا لم تكن عشرًا فقط. هناك يدٌ امتدت خفية لتضيف عليها أشياء لم يكتبها في ذلك الحين. لكنَّ الحبر نفسه، والخط خط يده! يده التي مشى فيها النمل مجددًا، وتحوَّلت البقع البنية التي انتشرت في ذراعه إلى جلد نافر سميك، أشبه بحراشف قاسية! خلع بزته العسكرية، وضعها بعناية على سرير عمته، وارتدى بزة جديدة من الجوخ الإنجليزي وربطة عنق فاخرة. حين نظر إلى نفسه في المرآة كانت الظلال قد تلاشت تمامًا.. كان وحيدًا من دون ظلِّه!

***

يقع سجن المزة على هضبة جرداء تحاذي الجبل الشاهق الذي بُني عليه فيما بعد قصر الشعب المطل على دار ميساك وعلى السجن! تحيط بالهضبة ثلاثة حواجز دائرية من الأسلاك الشائكة، يقع الأوَّل أسفل الهضبة، والثاني يتوسطها، والثالث في أعلاها يحيط بالساحة الخارجية للسجن. يجتاز الهضبة صعودًا طريقٌ أسفلتي متعرِّج، يقطعه حاجزان

للتدقيق في الهويات وإذن الزيارة.. لم يكن الملازم أوَّل «عبد المجيد» يجهل وجهته على الرغم من العصابة التي أُحكمت حول عينيه. هواء قاسيون البارد، وتعرُّجات الطريق، وكلام السائق مع جنود الحواجز، كلُّ ذلك جعله يُدرك مصيره. اجتاز الدرج الضخم، ووصل بصحبة السجَّان إلى الباب الخارجي للسجن. عبرا الرواق متجاوزين غرف الجنود إلى المستوصف، الذي لم يكن يميزه عن الزنازين الأخرى سوى إطلالته على المدينة من خلال شرفة صغيرة مسيَّجة بقضبان من الحديد. فحص الطبيب الملازم «عبد المجيد»، وقرَّر أنه لا يشكو من شيء!

اجتازا الساحة الداخلية إلى الكتلة الثانية من بناء السجن. مرَّا بغرفة معاون السجن، والمستودعات، وفتح السجَّان الباب الحديدي المزدوج المؤدي إلى القسم الداخلي. يحوي الطابق الأرضي ستة مهاجع، وعشرة زنازين فردية ومزدوجة، تسمى «سلول أبو ريحة» وتعتبر المكان الأشد قسوة على أرواح السجناء. أدخل السجَّان «عبد المجيد» إلى الزنزانة رقم ثلاثة، وأغلق الباب. أجال «عبد المجيد» نظره في الزنزانة، كانت مساحتها مترين في ثلاثة أمتار، تحوي مرحاضًا عفنًا مكشوفًا، ودِكَّة أسمنتية تُستخدم كسرير، ولا يوجد فيها نافذة! لا ضوء ولا هواء! لم يكن «عبد المجيد» وقتها يعرف أنَّ هذه الزنازين خاصة بمَن حُكموا بالإعدام، حتى جاء موعد التنفُّس، وخرج إلى الفسحة الداخلية حيث المطبخ، وحمَّام السجن. هناك التقى أمثاله، وتبادل معهم همسًا أحاديث سريعة، فهم منها إلى أين وصل!

كي يتغلَّب على فكرة الموت التي سيطرت عليه أيامًا، صار يستميل «البلديات»[1] الذي يقدِّم له الطعام طالبًا منه أن يُحضر له في سطل لبن فارغ بعض التراب من الساحة الخارجية.. استغرب الجندي طلبه، لكنَّه أحضر له التراب! أمام باب الزنزانة صفَّ «عبد المجيد» علب التونة الفارغة، ملأها بالتراب، ووضع فيها حبَّات عدس وحمِّص أخذها خُلسة من المطبخ. ضحك الجندي، واعتبر ذلك جنونًا، قال «عبد المجيد»: «أريد أن أرى الحياة». صمت الجندي وعلى ملامحه أسى لم يخفَ على «عبد المجيد»، فابتسم مشجعًا الجندي الشاب على البوح.. لكنَّ ذلك لم يحدث. انتبه الجندي فجأة إلى أنه تجاوز المسموح به، فاستدار داخلًا المطبخ.

بعد أيام قدَّم لـ «عبد المجيد» قبضة قمح يابس، أدخلت البهجة إلى نفسه، صار همُّه الوحيد أن يراقب النبات وهو يشقُّ التربة بلطف، ويمدُّ رأسه الأخضر خارج العتمة!

بعد مضي شهرين على وجود «عبد المجيد» في المنفردة، جاء أمر نقله إلى المهجع رقم ستة في الطابق الثاني. لم يفهم «عبد المجيد» ما يجري، لم يُقدَّم إلى محاكمة، ونقل من زنازين الإعدام إلى مهجع الرئاسة - كما يسميه السجناء - ما الذي يحدث؟ تساءل بصوتٍ مسموعٍ بعد أن أخذ مكانه على سريره في المهجع الرئاسي، وهو المهجع الوحيد

(1) البلديات: جنود محكومون بالسجن لفرارهم من الخدمة العسكرية، يقومون بخدمة السجناء وإطعامهم.

الذي لم يتجاوز عدد نزلائه خمسة وعشرين شخصًا. باقي المهاجع كانت تتسع لهذا العدد، لكنَّها تحوي أكثر من ستين شخصًا! لم تأتِ تسمية هذا المهجع من فراغ، فقد أدرك «عبد المجيد» وهو يتأمل وجوه رفاقه في المهجع أنه فعلًا في المقر الرئاسي.. فوجئ بالرئيس شخصيًّا ونائبه، وكبار الضباط و.. أعاد السؤال هذه المرَّة هامسًا: «ماذا جرى، لماذا اعتقلوني؟». سمع «مغيث» من السرير العاشر يردُّ عليه بصوتٍ محايدٍ: «أين كنتَ يا عبد المجيد؟». لفَّ «عبد المجيد» جسده بالبطانية جيدًا، كان يرتجف من البرد، نظر صوب مصدر الصوت..لم يعرف مغزى السؤال، قال هامسًا: «نعم سيدي الرئيس». ضحك «مغيث» غامزًا رئيس الدولة المعتقل «نور الدين»، لم يفهم «عبد المجيد» معنى كل ذلك، فهو بالأصل لا يعرف سببًا لاعتقاله، ولا يعرف ماذا جرى في غيابه، وكان يسأل ببراءة وجدية!

قال الرئيس«نور الدين» بحسرة: «لا يحتاج الاعتقال إلى سبب، يكفيك أن تكون نظيفًا وصادقًا كي تُعاقب بالسجن». ردَّ «مغيث»: «هذا صحيح، لكنَّ عبد المجيد ارتكب أكثر من خطيئة يستحق الاعتقال لأجلها. فهو شاهد في قضية المحارب 88، وقد رفض أمر الانسحاب من القنيطرة عام 67، أنا الذي أصدرت الأمر حينها بترقيته.. كلُّ هذا وتريده أن ينعم بالحريَّة! القوادون وحدهم ينعمون بالحريَّة وبالمناصب الحساسة في الدولة. بالتأكيد لن يحاكموه.. سينسونه هنا إلى الأبد».

تنهَّد «عبد المجيد» قائلًا: «لكنَّهم أخرجوني من زنزانة الإعدام». ابتسم «مغيث»: «نعم، صخر لن يُعدم أحدنا، لأنه سيفقد حينها متعته في رؤيتنا نتعذب!». غطَّى «عبد المجيد» رأسه ليشعر ببعض الدفء، تنفَّس داخل الغطاء محاولًا تدفئة وجهه، وغفا على أنقاض حلم بالحريَّة..

***

دار ميساك، 1979

كان «صخر» يرى في ابنه «مجيب» استمرار وجوده، فقد بدأ بإعداده ليصبح خلفًا له. لم يشعر بأنَّ الوقت ما زال مبكرًا، فقد كان «مجيب» ابن العاشرة حين توفيت «لمار» مدركًا لحقيقة وجوده، ويملك طموحًا أدهش والده. لم يكن بحاجة لأن يغذي عنده أيًّا من النزعات التي ميَّزته شخصيًّا، فقد أخذ عن عمَّته كلَّ التعاليم التي حرصت على تلقينها له عندما كان صغيرًا في بيت السيدة «أسما»!

أوَّل شيء حرص «صخر» على تعليمه لـ«مجيب» هو ركوب الخيل، فمنذ الثالثة عشرة أصبح فارسًا، وقبل بلوغه الخامسة عشرة حرص «صخر» على انتسابه إلى الحزب وإعداده عقائديًّا.. كان يرى فيه صورته واستمراريته، وقد اختار له دراسة الهندسة المدنية مع ثقته الكاملة أنه لن يستفيد من تلك الدراسة، ولن تكون سوى واجهة اجتماعية لتلميع صورته المستقبلية عندما يستلم السلطة.. رسم «صخر» ملامح وجوده الأبدي بدقة متناهية، واختار ابنه البكر خلفًا له، فقد كان على يقين أنه سيكون نسخة منه، ليس بسبب المورثات فقط، بل لأنهما تلقيا الروح ذاتها في التربية.

لم يكن «مجيب» وحده مَن استأثر بقلب «صخر» واهتمامه من بين أولاده، بل كانت «مي» تأخذ الحصة الأكبر من حبِّه ورعايته، فقد رأى فيها ملامح عمَّته «لمار» وحضورها الطاغي المؤثر ودهاءها.. فعلى الرغم من كونها لم تبلغ العشرين بعد، إلا أنها كانت تُسدي النصائح له حتى في الأمور السياسية! وقد تمنَّى أكثر من مرَّة لو كانت ذكرًا لاستطاع أن يطمئن أكثر لمستقبل حكمه!

«مي» أيضًا كانت لديها تلك النزعة للحكم، فكانت منذ صغرها تميل إلى السيطرة على زميلاتها في المدرسة، وترأسهن في كلِّ نشاط يقمن به. لم تكن المدرِّسات يجرؤن على الحدِّ من نزعتها تلك، بل قمن بمساعدتها على تعزيزها بإعطائها كلِّ الامتيازات الممكنة، بدءًا من الجلوس في مقعد مستقل تختار فيه زميلتها التي ستتكرَّم عليها بالجلوس إلى جانبها، إلى القيام بمعاقبة المشاغبات في الصفِّ نيابة عن المعلِّمة، إلى فرض الأغاني التي تحبُّ في درس النشيد، وفرض نوع الرسوم المقرَّرة في حصة الرسم، وقيادة الحفلات المدرسية، والرحلات. لم تكن تفعل شيئًا عمليًّا سوى أن تقف في الواجهة، رئيسة على زميلاتها، اللواتي يقمن بكلِّ الأعمال، وتسجَّل باسمها! كان يكفي أن تعبِّر عن رغبتها في شيء حتى تراه أمام عينيها. وكثيرًا ما كانت تفرض عقوبة على «نهال» ابنة الجنرال وصديقتها الفعلية بإقصائها، وجعلها تجلس في المقعد الأخير، لا لشيء سوى أن مزاجها لا يكون رائقًا في ذلك الوقت! وكانت «نهال» تمتعض، وتغضب، وكثيرًا ما تخرج من المدرسة قبلها

والدموع علـى خديها. ابنة الجنرال كانت على درجة من الليونة والطاعة لوالدهـا سـمحت لهـا بتفهُّـم الأمـر، حين شـرح لهـا والدهـا، أن عليها تحمُّـل كل مـا يأتي من رئيسـة البلاد القادمـة! قالها جـادًّا بلهجة مزاح.. لكـنَّ «نهال» فهمت حدودها منذ ذلك الوقـت، وصارت تبتلع الإهانات بصمت، ودرَّبت نفسـها على عدم الاصطدام بـ «مـي» أو التقرُّب منها ما لم تسمح لها بذلك. انتهى كابوس «نهال» بنهاية المرحلة الثانوية واختيار «مي» دراسـة الصيدلة، فاختارت هي الآداب، كي تبتعد قدر الإمكان عن العالم الخاص بـ «مي».

***

دار ميساك، 1982

انتهت الفترة العصيبة التي عاشها «صخر» بداية الثمانينيات، وورَّثته الاضطراب، وهزَّته من الداخل.. كان على يقين أنَّ روح عمَّته كانت تحرسه طيلة السنوات الثلاث الماضية، لم تفارقه نصائحها، تارة تأتيه على شكل منام وأخرى تنطق بها «مي»، فيشعر أنَّ «لمار» لم تغادر القصر أبدًا، وأنها ستفتح الباب فجأة، فتهبُّ معها رائحة البخور، وستُسدل الستائر، وتقول له ماذا سيفعل. حاولت «أسينة» التدخل مرارًا في مجريات الأمور لكنَّ «مي» لم تترك لها الفرصة.. كانت ترى أن تدعيم أركان السلطة لا يكون إلا بالقمع! «أسينة» من ناحيتها اقتنعت بما تراه ابنتها، فلم يكن بعيدًا عما تؤمن به! «مي» كانت تميل إلى النصيحة التي قدَّمها السوفييت لأبيها بقتل خمسين مواطنًا في كلِّ مكان يُقتل فيه شخص من مؤيديه، لعلَّ قاتله يكون واحدًا من هؤلاء! في البداية طلع على الشعب بخطاب في الثامن من آذار، حاول أن يخفي فيه اضطرابه، وأن يكون هادئًا وحاسمًا، قال فيه:

«إنني أؤمن بالله وبرسالة الإسلام، لقد كنت، ولا أزال، وسأبقى مسلمًا تمامًا، مثلما ستبقى سوريا قلعة شمَّاء ترفع راية الدين الإسلامي

عاليًـا، ولكنَّ أعداء الدين الإسـلامي المتاجرين بالدين سـوف يكنسـون بعيدًا».

فرحتـه كانت مضاعفة بتخرُّج «مـي» من كلية الصيدلـة، بالتزامن مع قضائـه علـى خصومه من المسـلمين فـي حمـاة وحلب! وتدميـر حماة القديمة، وكنس ركام حضارتها. طمسَ كلَّ مكان مشت فيه والدته، وقتل كلَّ إنسان رآها هناك! عملية طمس الماضي بتدمير الأمكنة كانت ناجحة عمليًّا، فلم يكن أحدٌ يجرؤ على ذكر شيء عمَّا حدث..

الصمـت الذي أعقـب العاصفة.. كان صمت المـوت النهائي، الذي أدخل الطمأنينة إلى نفسه. لكنَّ ذلك لم يدُم طويلًا!

هاجمته آلام مفاجئة جعلته يخضع لعناية طبية مركزة، خلص الأطباء أثناءهـا إلى وجود مرض عضال! عندما تلقَّـى الخبر، لم يخطر بباله أحد سوى الرئيس «نور الدين».. تذكَّر كيف منع عنه الأدوية، وكيف مات بعد إطلاق سـراحه بأربعة أشـهر على الرغم من العناية الطبية التي تلقَّاها في فرنسا! هل ينجح أصدقاؤه الأطباء الروس فيما فشل فيه أطباء فرنسا؟ لم يكن ليستسلم، أراد لحياته أن تستمر، وكان يمتلك اليقين بأن إرادته فوق كل شيء.

ليسـت فكـرة غريبة عنـه تلك التي أوحـت بها ابنته فـي حديث عابر، فقـد خطرت له فـي أوَّل مرَّة زار الاتحاد السـوفييتي، عندمـا تدرَّب على قيـادة الطائـرة النفاثـة.. يومهـا كان يـرى رأسـه مـكان رأس «لينين» في الكرمليـن، وأينمـا تجـوَّل. كان يخيَّـل إليـه أنَّ تماثيـل العظمـاء الروس

الرابضة في الساحات تنطق بوجودهم الحي، وأنَّ رؤوسها المتشابهة تحمل ملامحه! أمر بصنع أوَّل تمثال له في مدخل الشارع الرئيس مكان تل الجرب.. ثم قامت ورش كاملة وفنانون تفرغوا خصيصًا للتنافس في صنع تماثيله، ووضعها في مداخل المدن، وعلى القلاع، وفي الساحات، وعلى الجبال.. حتى أصبح الناس يخشون أن ينظروا إلى الأماكن التي يحتلها التمثال رافعًا يده بالتحية، أو عاقدًا حاجبيه؛ كي لا تؤول نظرتهم تأويلًا سيئًا، فيذهبون وراء الشمس!

إعداد «مجيب» للرئاسة، والكتب التي طلب تأليفها عن حياته، والتماثيل التي انتشرت في كل أنحاء البلاد.. كل ذلك لم يكن كافيًا ليطمئن القائد لبقائه.. على الرغم من أنَّ فكرة الأبدية قد داعبت أحلامه كثيرًا، إلا أنه كان واثقًا بوجود العدم، فقد سبقه إليه الرب «سليمان المرشد» والرب «مجيب»، وكل الأرباب السابقين، حتى «جلجامش» لم يجد عشبة الخلود.. لكنَّه أصر على ارتباط اسمه بصفة الأبدية، فصار القائد الخالد!

***

دار ميساك، 1984

لم يكن يظن أن آلامه ستودي به إلى الغيبوبة، ولم يكن يتخيَّل يومًا أن شقيقه الأصغر والأقرب إلى قلبه، والذي سلَّمه الكثير من المناصب، وشكَّل جيشه الخاص الذي يقوم بحمايته شخصيًّا، سينقلب عليه طمعًا في استلام الحكم! أفاق من غيبوبته ليجد أمور البلاد قد بدأت تتسرَّب من يديه. بعد أن تأكد أنَّ رفع الجاهزية القتالية في «سرايا الدفاع» حدثت منذ أسبوع، أي أنَّ العملية جديَّة، وليست عملية اختبارية لتفقُّد الجاهزية القتالية للتشكيل!

في الساعة الثانية صباحًا، اتصل بالجنرال، وأمره بارتداء لباسه العسكري، والذهاب فورًا إلى مكتبه في القيادة العامة، واستنفار التشكيلات الضاربة القريبة من دار ميساك. نفَّذ الجنرال الأمر بسرعة.. استنفر ألوية الصواريخ، ومضادات الدبابات، والفرقة الأولى والثالثة والتاسعة.

كان العميد «هرَّاس» بالمقابل، قد استنفر كلَّ قطعات الجيش التابعة له، وجيشه الخاص الذي دمَّر حماة، وقتل الآلاف من الشعب السوري. كانت الأوامر واضحة، وخطة العميد تقضي بالسيطرة على مقر الأركان، والقصر الجمهوري ومبنى الإذاعة وإعلانه رئيسًا للبلاد، ثم قصف

دار ميساك عشوائيًا، وتركها لجنوده ثلاثة أيام لاستباحتها ونهبها! وقد سيطر على مداخل دار ميساك الثلاثة، طريق بيروت - دار ميساك، طريق حمص - دار ميساك، وطريق درعا - دار ميساك.

على الرغم من غيبوبة المرض، لم يفقد القائد ذاكرته المتوقدة دائمًا، فلم يترك - في اتصالاته المتكررة بالجنرال - سرية، أو كتيبة، أو لواءً، أو فرقة في القوات المسلحة، إلا وذكرها، وطلب استنفارها، وكان يؤكد عليه عبر الهاتف ألا ينسى كذا.. وهكذا تمَّ استنفار بقية ألوية مدفعية احتياط القيادة العامة، وسرايا المهام الخاصة في شعبة المخابرات، وسرايا الشرطة العسكرية، ومفارز مخابرات القوى الجوية! ولم يهدأ حتى السابعة صباحًا حين رجاه الجنرال أن يستريح، فقد تمَّ كلُّ شيء كما يريد، وقال له مازحًا: «بقي رب العالمين لم أستنفره بعد». ضحك القائد عندها، وقال: «لستَ بحاجة إلى ذلك، فهو معنا!».

استمرت الحرب الباردة حوالي ثلاثة أشهر، مناورات من كلا الطرفين، واستعداد لقتال شرس، من دون تحرُّك فعلي. العميد من جهته، على الرغم من استعجاله للحصول على السلطة، إلا أنه كان يريد ضربة سريعة قاصمة من دون أخطاء. والقائد كان يأمل أن يتراجع أخوه عن خطته، وينهي الأمر بطريقة ودية! في تلك الأيام كان يكره حضور عمَّته في وجه ابنته «مي». انعزل في غرفته، ولم يعد يحضر اجتماعات الأسرة.. لقد هزَّته عبارة ابنته: «إن تمردت ذراعك عليك، اقطعها». لقد كانت تشجِّعه على قتل عمِّها، وإنهاء الأزمة لصالح شقيقها «مجيب»! وكان هو يأمل بتراجع شقيقه بعد تخلي المراشدة عنه. فقد زاره أولاد

الرب «سليمان المرشد» الثلاثة، وأعلنوا ولاءهم له، واستعدادهم الكامل للقتال إلى جانبه، بعد اكتشافهم أنَّ شقيقه يحاول القضاء عليه. لم يوافق على اقتراحهم بتأمين الحماية لقصره، لكنَّه طلب منهم أن يُفهموا أبناء الطائفة الأمر على حقيقته.

صباح الجمعة الثالث عشر من نيسان، اتصل اللواء «حيدرة» بالجنرال من مقر معسكره بالقابون؛ ليخبره أنَّ قوات العميد بدأت التحرُّك من بين أشجار الزيتون صوب دار ميساك. ثم اتصل العميد «عدنان» ليخبره بأنه يرى الدبابات تتحرَّك من مقره بالمعضمية بالعين المجردة! اتصل الجنرال بالقائد، وأخبره بالأمر. لكنَّ القائد لم يصدر أوامره بتحرك الجيش، بل طلب من الجنرال التريث!

لم يعرف أهو المرض الذي جعل مشاعره هشة مرَّة ثانية؟ أهو الموت القادم لا محالة؟ أم هو رضوخ لرغبة «مجيب» في حل الأزمة سلميًّا مع عمِّه! لم يكن اتخاذ القرار صعبًا، فقد قادته عاطفته التي تفجَّرت فجأة مخترقة كلَّ تراكمات الغبار عبر سنوات من الحياد والبرد، إلى رفع السمَّاعة، وطلبِ أخيه على الهاتف. قال له بصوت مشروخ، حمل كلَّ مخزون العتب الشفيف والحزن الذي لم يعرفه من قبل: «أتريد قتلي، وأخذ مكاني؟». ارتبك شقيقه، فقد كانت المفاجأة صاعقة، لم يحتمل نبرة الصوت، ولم يتوقع أصلًا أن يسمعه. قال من دون وعي: «أقسم بالرب إنَّ ذلك غير صحيح، كلُّهم يكذبون عليك».

شاء أن يصدِّق. اتصل بالجنرال، وقال له: «أوقف العمليات العسكرية، العميد لن يهاجم القصر». استاء الجنرال، وبلع الإهانة،

وقال: «أقسم لك إن قواته تتحرَّك باتجاه دار ميساك، وليس لي مصلحة في الكذب». قال القائد: «حسنًا، سأتصل ثانية، وأرى».

اتصل القائد بشقيقه مرَّة أخرى، وحدَّد له موعدًا للقائه، وطلب منه أن ينتظره في نهاية طريق «أوتوستراد المزة».. ومن هذه النقطة توجَّها إلى الطريق المحلّق الذي يؤدي إلى المطار ودوار كفر سوسة. عند الدوَّار ترجَّل القائد من سيارته بصحبة ابنه «مجيب»، وقال لشقيقه: «انظر بعينيك إلى الدبابات التي زعمت أنَّها لم تتحرَّك». والتفت القائد إلى الملازم أوَّل «معين»، وطلب منه أن يعيد الدبابات إلى مكانها. تجاهل قائد السرية الأمر، مما جعل العميد ينظر بخبث إلى أخيه، محاولًا إفهامه أنه أضعف من أن ينفِّذ ملازم أوَّل أوامره! هنا خرج القائد عن هدوئه، وصرخ بالملازم أوَّل: «قلت لك أرجع الدبابات إلى أماكنها فورًا». عندها صعد العميد فوق الدبابة، وصفع الملازم على وجهه، وقال له: «ألم تسمع أمر القائد؟ نفّذ فورًا».

نفَّذ الملازم الأمر.. وعاد القائد بصحبة «مجيب» إلى القصر.. ضغط على يد ابنه بقوة.. وأغمض عينيه، وراح في إغفاءة طويلة! كانت ظلال شجرة الخروب تتراءى لعينيه المغمضتين، تقدَّم نحوها ببطء.. مدَّ ذراعيه ليحضن جذع الشجرة، دفعته الريح بعيدًا.. ورأى بوضوح قشور البقع البنية فوق ذراعه تتطاير في الفضاء حوله. حدَّق جيدًا، كانت العتمة تسود المكان، وهدوء مريب يقرع رأسه بصخبه الشديد. ولا أحد قربه! «مجيب» أيضًا تبخَّر من المكان!

***

المخابرات العسكرية في حرستا -دمشق، شباط 2013

الكرسي السوري

لـم يكن «يونـس» يشـعر بقدميه والسـجّان يجره في الممـر الطويل، ويســحبه على الدرج كخرقة.. الجسد الذي يحمل روحه لم يعد يخصُّه! الروح وحدها ترتطم بالجدران بحثًا عن منفذ تخرج منه إلى البرزخ. هل تحتاج الروح إلى منفذ؟!

تتغيَّر غرف التعذيب، والأدوات، وهو يبقى كما هو! ربما تغيَّر شـكل جسده، ملامح وجهه، لكنَّه يشعر بنفسه هي.. كما كانت منذ اللحظة التي وعى عليها، وأحسَّها، وفرح باكتشافه الكبير ذاك!

أجلسوه على الكرسي، من ذاكرته اليقظة دائمًا، يعرف أنَّ هذا الكرسي اخترعه الألمان، كرسي معدني له أجزاء قابلة للحركة! لكن هذا الكرسي بنكهـة سـورية، فقد أضـاف إليه الجـلّادون السـوريون شـفرات معدنية علـى الأرجل الأمامية. شـدوا وثاق قدميـه داخل المسـننات، ونفر الدم مباشـرة، من رسغه وكاحله.. شـدُّوا وثاق يديه، وتحرَّك المسند الخلفي إلى الوراء.. شـعر بعموده الفقري يتوسـع، فقراته تكاد تنفصل، والضغط

الهائل على رقبته يكاد يخنقه.. تضيق أنفاسه، ويشعر أنه يكاد يفقد وعيه، حاول أن يرى في العتمة القاتلة صورة أمِّه، أشجار الحديقة الملاصقة لبيتهم، لكنَّه فوجئ بصورة شاب يحمل مسدسًا، يطلق النار في الهواء، ويدفعه داخل إسطبل مليء بالغيلان.. أصرَّ على رؤية وجه أمِّه داخل غطاء الصلاة الأبيض، ضحك المجنون مكشرًا عن أنيابه، وقال: «أنت فاشل في لعبة الطميمة، لن تجد مكانًا يخفيك عني.. سأجدك وإن كنتَ في سابع سماء». قهقه طويلًا، كان الصدى المعدني لضحكاته العجيبة يدق رأسه بعنف.. حاول التشبث بأغصان شجرة ليمون كانت في حديقة بيتهم في زمنٍ ما.. حاول أن يمسك بذيل ثوب أمِّه وهي تصلي.. بأيِّ شيء يمكنه أن يؤكد أنه ما زال حيًا! لكنَّ غيبوبة الألم، لم تفسح له مجالًا لرؤية شيء..

حين أعادوه إلى المهجع، رموه أرضًا، وقالوا لرفاقه: «اسحبوه، لم يعد بمقدوره المشي». اعتنى الأستاذ بجراحه، وسهر بجانبه تلك الليلة ينتظر أن يصحو ليكمل له الرواية. صار على يقين أنَّ عليه أن يسبق الزمن والموت معًا! «يونس» كان يصارع الموت، ويكاد يصرعه، رغبته في الانتهاء من مهمته قبل أن يغادر جسده المكان كانت أقوى من كلِّ الآلام.

***

لندن، 1992

حين بدت دار ميساك مشوشة الملامح، واختلطت ألوانها حتى بدت رمادية مثقلة بالغيم.. أدار رأسه عن النافذة، تأمل لدقائق اسمه في جواز السفر، ملامح الصورة الملتقطة بيد مصور فاشل، تاريخ الميلاد، اسم الأب والأم.. مكان الولادة! رماه في الحقيبة، أسند رأسه على المسند، أغمض عينيه، وحاول أن يغفو.

لم يكن من السهل عليه أن ينام أثناء السفر، كعادته.. تبقى أعصابه مشدودة، ومخيلته مستنفرة، تستحضر كلَّ أشكال الموت الممكنة، التي رآها في أفلام كثيرة، غرق الباخرة، اصطدام القطار بآخر أو انحرافه عن سكة الحديد. انقلاب الحافلة، انفجار الطائرة! كانت يده ترتعش وهو يتحسَّس الحزام، ويتأكد من إغلاقه. لاح لناظريه ذلك المشهد الذي لم يفارقه طيلة حياته، هو يحاول أن ينتزع من بين يدي «مجيب» كيس الحلوى، و«مجيب» يبكي، ويصرخ بشدَّة.. يدٌ هائلة حطَّت على وجهه في اللحظة التي تمكَّن فيها من خطف الكيس، وحاول الهرب به. لم يرَ صاحب الكف، فقد لمعت أضواء غريبة أمام ناظريه، وتطوَّح جسده

بعنف، وخرست أصوات الكون، وسقط أرضًا، وتناثرت الحلوى في المكان.. حين استطاع أن يرى مجددًا، كانت الحديقة خالية، لا أثر للحلوى ولا لـ «مجيب» ولا لصاحب اليد الضخمة التي صفعته بقسوة! كان وحيدًا وسط أوراق شجر مصفرَّة، تتطاير حوله منتشية بخفتها.

نادى المضيفة، طلب مشروبًا ساخنًا. وضعه أمامه لدقائق.. تأمل أبخرة الشاي ولونه الأحمر الصافي، حين بدأ يبرد، نادى المضيفة لتأخذه! لم يكن يحبُّ تناول المشروبات في السفر، فهو يخشى دخول الحمَّامات العامة، عنده رهاب منها، على الرغم من عدم تذكره لحادثة واحدة في طفولته تبرِّر ذلك الخوف!

حادثة واحدة في طفولته لم ينسها أبدًا مع أنها تبدو بعيدة جدًّا، ومشوشة.. حين دخل غرفة عمَّة أبيه خلسة، وراح يستكشف المكان بفضول.. صعد على كرسي، فتَّش أدراج الخزانة التي تضع فيها تلك الأشياء الغريبة التي لم يعرف ماهيتها إلى الآن.. يده الصغيرة كانت تعبث بأكياس فيها مساحيق ملوَّنة، وقعت على الأرض، وانتثرت، راسمة قوس قزح! طمس أصابعه فيها، ومسحها على الخزانة والشراشف والأرض والمرآة.. كانت الألوان تتألق تحت نور الشمس المتسلِّل من النافذة، وذرات الغبار الملونة في فضاء الغرفة، تتراقص حوله مع النسمات الخفيفة.. فجأة سمَّره صوتٌ مرعب، صرخ به: «ماذا تفعل يا كلب..»، كانت «لمار» تسدُّ الباب بقامتها الطويلة العجفاء، وقد انحسر منديلها عن رأسها، وبانت ضفائرها البيضاء! كانت يدها الخشنة التي جرَّته، وألقته

خارج الغرفة كخرقة، تشبه يد ساحرة شريرة، صار يراها في الأفلام بعد موت «لمار»، فيظن أنها عادت إلى الحياة ثانية!

ذلك المشهد الغامض، الذي تصرُّ ذاكرته على الاحتفاظ به، رافقه مشهد آخر، يدٌ أنثوية ناعمة، تسحبه برفق، تمسح وجهه من الألوان، تغسل يديه، تبدِّل ملابسه، وتأخذه إلى غرفته. تغلق الباب عليه، ثم تعود بعد قليل، وقد أحضرت لعبة كبيرة.. لعبة جميلة شعرها أشقر وعيناها زرقاوان. ناولته إياها، وحكت له حكاية حتى نام. عندما استيقظ، وجد اللعبة بجانبه، تبتسم له بحنان! حين رآه شقيقه «مجيب» يحتضن اللعبة، سخر منه، وقال له: «يليق بك أن تكون بنتًا». لم ينزعج، فقد سمع هذه الكلمة قبل الآن من صديقات أمِّه حين كانت تربي له شعره ليتهدَّل فوق أذنيه وعلى جبينه.. قالت إحداهن: «ما أجمله، يبدو كالبنات!»، البنات لسن شيئًا سيئًا، لماذا يستنكر كلُّ مَن حوله صحبته لهن؟

أوَّل فتاة تركت في نفسه ذكرى لا تُنسى هي «نهال» ابنة الجنرال، كانت في اعتقاده الأنثى الكاملة، رآها يومًا، وكان في العاشرة من عمره، وهي في غرفة شقيقته، كانت ترتدي ثيابًا غريبة، تشبه ثياب الجواري في الأفلام، وترقص على أنغام موسيقى صاخبة حافية القدمين! كان يقف أمام الباب مذهولًا.. حين لمحته «نهال»، ابتسمت، لم تتضايق لوجوده، فقد كانت صديقات أخته ينظرن إليه على أنه طفل لا يفهم! وأعجبته اللعبة، وأحبَّ منذ ذلك اليوم أن يبقى الطفل الذي لا يفهم. البنات يُغرقنه بالهدايا الصغيرة، الألعاب، والمأكولات الحلوة، ويصحبنه في جولات التسوق، ويرافقهن إلى المطاعم والمقاهي، لم يكن يعلم أنهن

يفعلن ذلك ليكون غطاءً لهن، في الوقت الذي ينظرن إليه على أنه صغير، وساذج، ولا يعرف الغاية من وجوده بينهن!

لكنهن لم يعدن يفعلن ذلك حين صار في السادسة عشرة، صرن يغلقن الباب جيدًا على أنفسهن، ويتحدَّثن بصوت خافت في حضوره، ويتغامزن حول أمور لا يفهمها حقًّا. وحين يطلب مرافقتهن، يعتذرن! لم يكن لديه صديق في تلك المرحلة يشكو له أو يتبادل معه أسراره كما تفعل البنات. في المدرسة كان المدرسون يبذلون قصارى جهدهم ليفهم الدروس، ويحفظها. لكنه لا يستطيع. كان ذلك فوق قدراته الذهنية، لكن الأمر بالنسبة له لم يكن مهمًّا، فهو يعلم أنه سينجح سواء فهم أو لم يفهم.. فقد كان المدرِّسون يتبارون في تشجيعه بالعلامات والامتيازات، ويضحكون لسخريته منهم، ويصمتون على أيِّ تجاوز يقوم به، بل يعتبرون ذلك وسامًا يفخرون به، ويتباهون أمام بعضهم!

لا يدري السبب الحقيقي الذي جعل أباه يقصيه عن دائرة اهتماماته، مع أنه يهتم بشقيقته الكبرى! ما يذكره جيدًا، أنَّ أباه كان يُجلس أخاه في حضنه، أمَّا هو فيبقى واقفًا بجانبه! وكان يمسك الدراجة لـ «مجيب» كي لا يقع، ثم رسن الحصان في أوَّل ركوب له، ثم صار يختلي به وحيدًا في المكتب! أمَّا هو فلم يكن أحدٌ يهتم لوجوده أصلًا. تتوقف ذاكرته عند وجوه الخادمات والمدرسين الذين يأتون إلى البيت لتعليمه، وشقيقه الصغير المعاق!

استحواذ «مجيب» على كلِّ شيء كان بمثابة حبل يلتفُّ حول عنقه كلَّ ليلة.. يضغط ببطءٍ محاولًا خنقه. لم يستطع التخلُّص من إحساسه بأنه منبوذ، وضعيف، ولا يصلح لشيء على الرغم من مثابرته على تحصيله العلمي ليصبح ندًّا لشقيقه. لكنَّ ذلك لم يحدث أبدًا، ففي الوقت الذي اختار فيه دراسة الطب ليكون أفضل من «مجيب» الذي درس الهندسة، كان «مجيب» يتفوق في المجال الرياضي، والعسكري، والسياسي. أراد أن يكون تخرجه في كلية الطب عام 88 حدثًا فريدًا تحتفل به العائلة، لكنَّ شقيقه تخرَّج في الوقت نفسه «ضابط ركن مدرعات»، فاستأثر بفرحة أبيه واهتمامه مجددًا!

لماذا «مجيب»؟ كان دائمًا يتساءل بحرقة، ما الذي يميِّز «مجيب» عنه حتى يحظى بكلِّ ذلك الاهتمام من والده، وحتى يقرِّر أن يجعله رئيسًا للبلاد بعده! أهي القوة في الجسد؟ لكنَّ والده كان مؤمنًا أنَّ القوة تكمن في العقل.. السيطرة على الآخرين لا تتطلب قوة جسدية، وإلا لتغلب عمه على والده، واغتصب الحكم منه. إذن لماذا اختار «مجيب»؟

نظر من نافذة الطائرة، كانت لندن قد بدأت بالظهور، مدينة شاحبة لا تبهج العين! التفَّ بمعطفه جيدًا استعدادًا للنزول.. المطار يبدو كمتاهة.. أكبر من مدينة ساحرة في غموضها.. الوجوه الغريبة أربكته، اللغة بإيقاعها المختلف تؤكد له أنه صار الآن في عزلة تامة.. نظر حوله مفتشًا بعينيه عن شخص آخر على هذه الطائرة يحمل اسمه.. لم يستطع أن يجده.. حزَّ في نفسه أن يتعرَّض لهذا التحييد الكامل عن قضية تخصه

وحـده. فجأة سـمع الموظف يرحِّب بشـخص يتقدَّمه على أنـه هو! نظر إليه جيدًا، ونظر في جواز سـفره، أراد أن يتأكد من الاسم والكنية وتاريخ الـولادة ومكانهـا واسـم الأب والأم.. أراد أن يتأكـد مـن وجوده باسـم شـخص آخر، سـيحمل ذاكرته وملامحه، وماضيه، طيلة فتـرة إقامته في لندن!

تـرى كيف يمكنه أن يحمل ملامح شـخص لا يعرفه، ولـم يلتقيا من قبل؟ كيف اسـتطاع الجنرال أن يجد شـبيهًا له ليقوم بمهمة الدراسـة في لنـدن بدلًا عنـه؟ عليه أن يحفظ هذا الاسـم جيدًا ولا ينسـاه طيلة عمره: أحمد السـيد رمضان، الشـاب المتفـوق في الطب الذي سـيحصل على الشهادة العلمية بالنيابة عنه!

***

دار ميساك - سجن المزة العسكري، 1993

بدأت الزنزانة رقم ستة تفقد نزلاءها واحدًا بعد الآخر.. فقد صدر حكم الإعدام بحق ضابطين متهمين بمحاولة انقلاب على القائد! أُعدما ميدانيًّا، ونُقل جثمانهما كالعادة إلى مشرحة كلية الطب في جامعة دار ميساك.

الأكثر إيلامًا بالنسبة لـ «عبد المجيد» كان فراقه للرئيس في مطلع آب بعد أن تفشَّى السرطان في جسده، ولم تسمح له السلطات بتلقي العلاج.. وقبل أن يشارف على النهاية، نُقل إلى مستشفى تشرين العسكري. المفاجئ أنهم أطلقوا سراحه هناك، وسافر إلى باريس للعلاج! لم يكد الرئيس يغادر المهجع، حتى بدأت الآلام تهاجم «مغيث»، وتصيبه بتشنجات أسفل بطنه، قال الطبيب إنها ربما تكون «بحصة» في الجهاز البولي!

لم يكن «مغيث» طيلة الخمسة عشر عامًا الأخيرة من سجنه يخرج للتنفس، وذلك احتجاجًا على الإهانة التي وجَّهها له أحد السجانين حين كان يستمع إلى راديو ترانزستور في فسحة التنفس.. صرخ به: «أخفض صوت الراديو يا حمار». وفي مساء يوم 17 آب، كان يشكو من بعض

الآلام في مثانته، فجاء طبيب السجن برفقة أطباء من خارج السجن! وأخذوه من الغرفة. قطع الساحة الداخلية مشيًا على قدميه، برفقة مدير السجن والأطباء.. لكنَّ المفاجئ أنَّ الأطباء قرَّروا نقله إلى مستشفى المزة العسكري، وقام مدير السجن بنقله في سيارته المرسيدس. هناك فحصه الطبيب، وقال إنَّه بحاجة إلى نقله إلى مستشفى تشرين العسكري! وجاءت سيارة من شعبة المخابرات، ونقلته إلى هناك. بعد منتصف الليل فارق «مغيث» الحياة! فقد امتدت يدٌ خبيرة، وفصلت الأوكسجين عن جهاز التنفس الذي وُضع له من دون مبرر! ونُقل «عبد المجيد» في نهاية تشرين الثاني إلى «كركون الشيخ حسن»!

***

لندن، 1993

في بداية عزلته، ابتعد عن كلِّ ما له علاقة بالبلد الذي جاء منه، والذي لـم ينظر إليـه يومًا على أنه وطنه.. تدريجيًّا صـار مقتنعًا أنّ الوطن مفهوم ملتبـس، ولا يعني بأيِّ حالٍ البلد الذي جاء منـه أو ولد فيه.. لكنَّ أخبارًا صغيـرة وعابـرة أحيانًـا، كانت تغافلـه في الصحـف الإنجليزيـة محمَّلة بروائح المدن التي نشـأ فيها! أهمها خبر عن وفاة شـخصية مهمة. كانت الصـورة المرفقـة مع الخبر بالأسـود والأبيض صادمة إلـى درجة جعلته يرمـي الصحيفـة من يده، كأنهـا جمرة، وهو يرتجف! إنـه هو.. أو يمكن أن يكون ذلك الشـاب الذي يحمل اسمه وجواز سـفره، ويدرس بالنيابة عنه في الجامعة!

فـي تلـك الليلة خرجـت له الجثة من الجريدة، تمشَّـت حول فراشـه ببطء.. حدَّقت في عينيه بعينيها الزجاجيتين.. لوهلة شعر أن الغرفة مليئة بالمرايـا، وأنـه يرى نفسـه فـي كل الزوايا! مـا خاف من التفكيـر فيه وهو صاحٍ.. جاءه في المنام بأعنف صورة يمكنه أن يتخيلها..

نهـض من نومه مفزوعًـا وهو يصرخ.. لم تتقدم الجثـة منه لتقتله، بل كانـت تفرد ذراعيهـا تريـد احتضانه.. أقسـم للممرضة علـى ذلك وهي تحاول تهدئته وحقنه بمادة منومة..

بعد أيام نسي الحادثة.. وعاد يجتر مخاوفه السابقة من جثث تتجمهر أمام المشـرحة، وتلاحقه أينما ذهب، وهـي تصرخ بصوتٍ كالرعد: «لن تذهب بعيدًا، سنطالك ولو كنتَ في آخر الدنيا»..

خـلال عام مـن عزلته فـي مصحة في الريـف الإنجليـزي، كان يزور المستشـفى فـي لنـدن كل فتـرة، ويلتقـي طبيبًا سـوريًّا يعمل هنـاك. أقام علاقات خاصة وناجحة، وسمح له بارتياد الأماكن العامة بعد فترة نقاهة جعلته يتحسَّن بشكل ملحوظ. لم تعد تلك الذكريات الغامضة وكوابيس مراحـل الدراسـة الصعبة تمسـك بخناقه ليـلًا، صار يقضـي الصباحات الباردة في الحدائق، وبين أصحاب لا يعرفون سـوى اسـمه المزيف. لم يجـرؤ مـرَّة على خرق الاتفاق والبوح باسـمه الحقيقي لأحد. كانت عينا والده تبرزان من مخيلته، تهددانه بنظرة رهيبة. تلك النظرة التي رافقته منذ كان طفلًا. لم يشعر مرَّة أنَّ أباه يتعامل معه كطفل سوي يحتاج إلى اللعب والانفـلات من قيد العائلة ونظامها الدقيق. لم يسـتطع التعبير عن نفسـه ورغباتـه بطلاقـة يومًا. فكان غالبًـا ما يُظهر العنف تجـاه الآخرين ليلفت الأنظار إليه، ويثبت وجوده.

شعر أنه انفصل عن ذلك العالم الكئيب، وأنّ الحياة أدارت له وجهها الجميـل أخيـرًا. كان يرفض التفكير بهم، أو تذكر ماضيه كلّه، تمنَّى لو أنَّ الزمن بدأ عند لحظة نزوله في مطار لندن، ناسفًا كلَّ ما كان قبله. لكن كيف ينسـى؟ أخته تصرُّ على تذكيره بأنَّ هناك عالمًـا آخر ينتمي إليه بإصرارها على اتصالها الهاتفي الأسبوعي به. كانت على الطرف الآخر من الهاتف

تنقل كلّ ما يجري هناك في الجانب المعتم من الكرة الأرضية! ليته يبقى معتمًا دائمًا، ولا يرى الشمس. هكذا كان يتمتم حين تقول له: «الوقت عندنا منتصف الليل الآن». لماذا تصرُّ على ذكر «مجيب»، ووالده ووالدته وباقي إخوته؟ رجاها في آخر حديث لهما أن تحكي عن نفسها فقط، ومَن يرغب أن يعرف أخباره ليتصل به بنفسه. تخيَّل ابتسامتها الخبيثة وهي تردُّ: «حسنًا، اسمع أخباري.. ليست جيدة، وأريد منك دعمًا.. مجيب يحاول أن..». قاطعها: «ماذا قلتُ لكِ؟ سأغلق السماعة.. اتركيني بسلام، لا تتحدَّثي عنه أمامي». قالت ترجوه: «لكن الأمر يستحق اهتمامك، ألا تريد سعادتي؟»، قال باستسلام: «نعم». قالت: «إذن عليك أن تسمعني؛ لأن الأمر الذي يخصني يتعلّق بأخيك أيضًا». غص بعبارتها، وكاد يغلق السماعة، لكنّه تحامل على نفسه، واستمع إليها حتّى النّهاية.

***

دار ميساك، 1993

لم تستطع «مي» أن تقنع «مجيب» بالوقوف معها في مسألة زواجها من الرجل الذي أحبته، فقد كان من رأي أبيه «أنه لا يناسبها، ولا يرقى إلى مستواها». لكنَّها كانت ترى العكس تمامًا. ولأنّها تعودت أن تفرض رأيها على عائلتها، كونها الابنة الوحيدة والمدلَّلة، لم تتراجع عن اختيارها، وتصورت أنّ والدها سيخضع لرغبتها، وأنّ «مجيب» لن يستطيع مخالفة رأيه. وكي تضع والدها أمام الأمر الواقع، هربت من القصر، ولحقت عشيقها إلى شقة في المزة اشتراها خصيصًا للقاءاتهما المسروقة.

لم تكن «مي» تهتم في الواقع للفارق الاجتماعي الذي تحدَّث عنه «مجيب»، ولا للمال، فقد كان لديها ما يكفيها من الاثنين بالإضافة إلى قناعتها الراسخة بأنَّ «صخر» ليس حاكمًا عندما يتعلَّق الأمر بها، فهو في المقام الأوَّل والدها، وهي لن تكون من رعيته يومًا؛ لأنّها أصلًا ترى نفسها وريثة عمته، وتراه دائمًا أمامها أضعف من أن يأخذ قرارًا بشأنها. بالإضافة إلى معرفتها الأكيدة بأنَّ أصل والدها ليس أفضل من أصل عشيقها.

حاول والدها أن يقنعها بفرق العمر بينهما، فذكَّرته بالفارق بين عمره وعمر أمِّها وجدها وجدتها. قال «صخر»: «ولكنَّه متزوج ولديه

أولادا!». قالت: «لا يهمني ما دام سيتركهم ويكون لي وحدي، ثمّ جدي أيضًا تزوج اثنتين». النقاش توقف عند هذا الحد، بعد أن حسم «صخر» الأمر بأنه لن يوافق على هذا الزواج أبدًا. لكنّه لم يصعِّد لهجته إلى حدٍّ التهديد، اكتفى بلهجة لوم أقرب إلى العتب. وظنَّ أنَّ الأمر قد انتهى. لكنَّ «مي» التي صمتت في نهاية النقاش، كانت تملك من الحلول ما يجعل «صخر» يرضخ رغمًا عنه. فلديها عملها، ولديها مالها الخاص، وشخصيتها المستقلة، وقد وصلت سنًّا تسمح لها باتخاذ قرارها بمعزل عن عائلتها.

ما توقعته «مي» كان صحيحًا، لا يهم إن كان تصرف «صخر» منعًا للفضيحة، أم اقتناعًا.. ما يهمها أنه وافق أخيرًا، اتصل بها هاتفيًّا، بارك زواجها، واقترح ألا تعلنه الآن، وأن تذهب مع عريسها إلى باريس، ريثما يستطيع إقناع «مجيب»..

«باريس»! قالتها بلهجة احتجاج، فقد شعرت أنَّ الأمر ليس نابعًا من رغبة أبيها بأن تكون سعيدة، بل هو منفى قسري اختاره لها على شكل هدية زواج! كلُّ مغريات السفر صارت بشعة في عينيها لأنها فُرضت عليها. ولولا إقناع عشيقها «شوكت» لها بأنَّ هذا الحل هو الأسلم والأنسب في الوقت الحالي، وأنّه لن يطول كثيرًا! لما وافقت على السفر.

باريس.. حيث سبقتها «نهال».. صديقة الطفولة والصبا التي هربت منها في المرَّة الأولى حين سجَّلت في كلية الآداب، وفي المرة الثانية حين تزوجت ثريًّا عجوزًا كان ابنه يحبُّها، ويريد أن يتزوجها، ولسبب

لـم تعرفـه «مي» اختارت «نهال» الأب، وذهبت إلـى باريس، حيث دفنته هنـاك، وورثت أمواله الطائلة وشـركاته! كانت «نهال» بذلك قد وضعت قدمها في دنيا سيدات الأعمال، وصارت صاحبة مشاريع ضخمة، وسيدة صالون مشـهور في باريس. لم تعرف «مي» قبل ذلك أنَّ ما فعلته «نهال» لم يكن سوى ردَّة فعل على حياة القمع التي عاشتها بسبب صديقتها. فقد حُرِّم عليها كل شـيء كـي لا تبدو أجمل من «مـي»، ولا أغنى من «مي»، ولا أشـطر من «مي»! في الطفولة، كانت «مي» تستحوذ على كلِّ ما تحبُّه «نهـال». فإن أعجبتها إحدى ألعابها، قامت السـيدة «نازك» بتقديمها إلى «مـي»، وأجبرت ابنتها على السـكوت. وإن أعجبها أحـد أثوابها، كانت السـيدة «نازك» تقوم بشـراء ثوب مماثل له لـ «مي».. وشمل ذلك الطعام والمكياج وتسـريحة الشـعر، و.. كانت قاصمة الظهر لـ «نهال» في سـن المراهقـة، حيـن كان أحد الشـباب فـي الحي يرسـل لها رسـائل خاصة مـع أخته، ويتغزَّل بها. أحبته «نهال»، وأسـرَّت لـ «مي» بذلك. ابتسـمت «مـي» مشـجعة «نهال» على المضي في تلك العلاقـة حتى النهاية. كانت تراقبهمـا مـن بعيد، وتحصي عليهما أنفاسـهما، حتى تأكـدت أن «نهال» غارقـة في العشـق حتـى أذنيها، فأخبـرت والدهـا بالأمر. الجنـرال أخذ الخطوة الحاسمة التي أوحت بها «مي» من دون تردد. الشاب ذهب وراء الشمس. وعائلته انتقلت من المنطقة كلِّها، ولـم تعد «نهال» ترى شقيقته، ولـم تعرف عن أخباره شـيئًا. لكـنَّ «مي» أوحت لها أنَّ فـي الأمر خيانة، وأنّه تركها لأنه على علاقة بأخرى!

كلّ شيء كانت تريده «مي» يصبح لها. أعجبها بحث الدكتوراه الذي تقدَّمت به إحدى زميلاتها، فكان نصيب الطالبة رفض مشروعها لأنّه لا يصلح.. ثمّ فوجئت بحصول «مي» على درجة الدكتوراه عن البحث نفسه، من الدكتور المشرف على أطروحتها! ولم يكن اختيارها لعشيقها «شوكت» من بين الرجال كلّهم سوى للأسباب نفسها. توهمت في اللحظة الأولى التي رأته فيها أنّها عشقته، فقد هبط الدم في رأسها فجأة، تشوش سمعها للحظات، وضرب قلبها بعنف. لم تعرف ما الذي حدث لها بالضبط، لكنّها اعتقدت أنّه الحبّ الذي وصفته صديقاتها لها من قبل. انتبه هو إلى نظراتها، وإلى تباسطها في الحديث معه، وطلبها إليه أن يبقى قريبًا منها.

لم يكن الموضوع بحاجة إلى تفكير، خاف «شوكت»، كان حذرًا في تصرفاته معها، مقلًّا في الكلام، مقتصدًا حتّى في حركاته حين يقف في حضرتها! واستهواها أن يعجب بها ذلك الحارس القوي المفروز لحمايتها، خاصة بعد أن لمحت نظرات صديقاتها إليه.. وتعرَّفت إلى زوجته! إذن لن يكون الحصول عليه سهلًا! كان عليها أولًا تحريضه ليقترب أكثر، وتشجيعه ليبوح بمشاعره، واصطياده كي يبقى لصيقًا بها مفتونًا بحضورها. لم يكن الحارس الشخصي «شوكت» ساذجًا، بل عُرف بدهائه وحنكته، وقد فهم قواعد اللعبة، وعرف أنَّ عليه أن يترك الطريدة تشعر بعدم اهتمامه بها، كي تسرع إلى الشرَك الذي أخفاه بدقة. وعندما شعر أنَّ قبضته أمسكت بجناحيها جيدًا، أوحى لها بكلِّ خطوة أقدمت عليها، تاركًا لها اليقين الكامل بأنّه اختيارها وحدها!

لـم تكـن حياته السـابقة تشـكِّل أيَّ عقبة فـي طريق طموحـه، عندما فتحـت «مـي» كلَّ الأبـواب أمامـه. مع ذلك أسـرَّ لها بأنه يجـد مصاعب جمة في طريقه، فهو ليس غنيًّا بالقدر الكافي لإسـعادها، وزوجته تضغط عليـه بالأولاد، وعائلتـه تخيفه منها ومن «مجيـب»! وكان عليها في هذه الحالة أن تبذل في سـبيله كلَّ ما تملك كي يصبح في مستوى لائق تقابل بـه صديقاتها فـي باريـس.. وكان عليها أن تجـد حلولًا لعلاقتـه بأولاده وزوجته وعائلته. وهكذا وجدت نفسها غارقة في دائرة مؤامرات صغيرة وتافهـة، وابتعـدت تمامًا عـن المدار السـابق لحياتها. كان لا بـدَّ لها من الاتصال بشقيقها «زياد» طالبة دعمه، ونسَّقت معه كي يلتقي زوجها، بعد محادثـات طويلة بينهما على الهاتف! لكنَّ القدر كان يرسـم لقاءً مختلفًا بين زوجها وشقيقها.. في مكان لم يحدداه بنفسيهما!

***

دار ميساك، 1994

الهاتـف الـذي تلقَّـاه كان فـي غاية الأهميـة. لم ينتظـر لحظات حتى يجد حجة مقبولة يقنع بها أمّه لاستعجاله. لم يهتم بهندامه، ولم ينظر في المرآة.. فقد استعدَّ منذ أسبوع لمثل هذه اللحظة! يستيقظ باكرًا، يأخذ حمَّامًـا باردًا، يشـذب لحيته، يتعطر، ويرتدي ملابسـه الأنيقة. ويقف في الشـرفة سـاعات وهو يراقب هاتفـه بقلق. العرَّافة التـي التقيا بها في مزار السـيدة الأسـبوع الماضـي قالت لـه: «سـتقابل قدرك في صباح السـبت القـادم». ومن يومهـا وهو على يقين أنها لن تتصل به قبل السـبت ليكون لقاؤهما القدر الموعـود. فقد ضحكت لقول العرَّافة، ووضعت في يدها مبلغًا كبيرًا من المال مقابل أن تحتفظ بالودع الذي رسم مستقبلها. العرَّافة أبـدت تـرددًا، وقلقًا، لكنَّها انصاعـت في النهاية، وهي تزفـر بضيق. كان فـي مزاج رائق، لم يزعجـه تعبير وجهها، وزفرتهـا الطويلة. ولم يمد يده ليصفعها لتتأدب في حضرته. حافظ على هدوئه، وابتسامته، وتسامحه!

لم يُعرف عن «مجيب» التسامح يومًا حتى قبل أن يمسك زمام الأمور فـي الدولة وملف العائلة بعد أبيـه. فقد أبدى عنفًا وحزمًا كافيين لإغلاق ملفـات التهريـب، واعتقل صغار الشـبيحة من الطرقـات، وأفرغ المدينة

مـن مظاهر التسـلط المتبدية في الحواجز الأمنيـة، والاعتداء على الناس لأسـباب تتعلّق بمزاجية ابن عمه «صقر الجبل» الذي سيطر على المدينة السـاحلية وريفهـا بالكامل، وأصبحـت مملكة خاصـة بالتهريب والقتل والاغتصـاب وكلِّ أنواع العنف، وصارت سـلطته تزحف نحو الداخل.. فـكان لا بـدَّ من وضـع حـدٍّ لتطاولـه، بقـصِّ جناحيـه وإلزامه حـدوده، قبـل استـفحال سـلطته. أولاد عمومتـه بالمجمـل تضايقوا مـن قراراته، لكنَّهـم كانوا يعلمـون جيدًا أنه لا طاقـة لهم على المواجهة، فأسـلحتهم التـي يُرهبـون بها الناس، لا يمكنهـا أن تقاوم ترسـانة الدولة الصاروخية والمدفعية والطيران؛ لذا التزموا الحدود المفروضة عليهم بانتظار طوفان كانوا يرون أنه سيأتي!

تمكَّن «مجيب» من بسـط سـلطته على الدولة خلال السنوات العشر الماضيـة من تاريخ مرض والده وانقلاب عمِّه الفاشـل عليه. وصار على أهبة الاسـتعداد لتسـلُّم السلطة. كان كلُّ شـيءٍ قد أخذ الشكل المناسب لتوليه الحكم.. لكنَّ جسـد القائد ما زال يقاوم المرض، وروحه متشـبثة بالحياة والكرسـي. صار ظلُّه قصيرًا.. لم يعد يمتدُّ بجانب الكرسي حين تندفع أشـعة الشـمس من النافذة الغربية بعد العصر.. صار أنحف من أن يمـلأ المـكان، وصوته أخفض من أن يُسـمع في أرجاء القاعـة الكبيرة.. لكنَّه ما زال يحتفظ بصدى نظرته الثاقبة في قلوب مَن حوله. فالرهبة التي يلقيها حضوره، لم تتغيَّر، والحذر يرافق نظرات الآخرين المختلسـة إلى وجهـه في الصورة الكبيرة المعلَّقة في صـدر القاعة.. لم يكن أحدٌ يجرؤ على النظر إليه مباشرة!

كان «مجيـب» يراقب كلَّ ذلك عن كثب، وينتظر اللحظة التي تتجمَّد فيهـا تلـك النظرة، وتترك مكانها قسـوة الزجاج وهشاشـته. وعلى الرغم من مخططاته الموضوعة سـلفًا للطريقة التي سيدير بها الأمور بعد موت والده، وتسـليم «صخر» المطلق بأحقيته فـي الحكم.. إلا أن قلقًا غامضًا كان يسـيطر عليـه أحيانًـا، ويتخيَّل أنَّ الأبدية التي سـعى والـده إليها، قد تتحوَّل إلى حقيقة ثابتة! فكان يرى في كوابيسـه أنه يسـير في مزارع صبَّار كثيفة، ولا يبصر لها نهاية، وأنَّ أشواك الصبَّار تخز جسده، والدماء تسيل منه، وحين تلامس التربة، تتحوَّل إلى رماد.. كان يصرُّ على السير وإيجاد مخـرج لـه من دون جـدوى! وحيـن يسـتيقظ مفزوعًا، يمسـك حنجرته بأصابعه المتشنجة، محاولًا إخراج ما تبقَّى من أشواك الكابوس فيها! لم يعـد يرى وجود والده ضروريًّا لتثبيـت حكمه، فقد قام بدوره على أكمل وجه.. فماذا ينتظر حتَّى ينفصل عن ظلِّه القصير ذاك؟ أفكاره تلك انفلتت مرَّة منه أمام أبيه على شكل هذيان، تحت وطأة الحمَّى!

ولأنّه كان الآن في حالة هياج، لم يلمح تلك النظرة الزجاجية الصلبة في عيني «صخر»، وهو يتابع حركات جسده في الصالة بكلِّ برود!

ركـب سـيارته، وانطلـق بسـرعة.. خلَّـف وراءه زوبعـة مـن الغبـار، ونظـرات أمِّه القلقة. التي اسـتوقفته لتحدثه بأمرٍ هام. لكنَّه اعتذر، وغادر من دون أن يلتفت وراءه أو يتسـاءل عن الأمـر الهام الذي تريد والدته أن تحدِّثه عنه! في هذه اللحظة صار كلُّ شـأن ما عدا ما يسـعى إليه لا أهمية له. نظر في سـاعته، كانت تشـير إلى العاشـرة صباحًا. ستصل الطائرة في

العاشرة والنصف! زاد السرعة، وهو يلفُّ الدوار باتجاه طريق المطار. وجه العرَّافة احتلَّ الزجاج الأمامي للسيارة! ابتسمت ابتسامة غامضة، وهمست: «لا تسرع أمامك دقائق لتلقاه»! ارتعشت يده فوق المقود، شيء ما، لم يعرف ما هو، كتم أنفاسه، أغلق التكييف، وحاول فتح النافذة، لم يستجب الزجاج! شمَّ رائحة غريبة، فتح التكييف ثانية، لم تتبدل الرائحة، حاول تخفيف السرعة، لم تستجب الفرامل! ضاقت أنفاسه أكثر.. أمامه ثلث ساعة. لكن.. كيف سيوقف السيارة؟ كان عليه أن يأخذ قرارًا انتحاريًّا بالصعود فوق الرصيف، ودخول المنطقة الزراعية على يمينه، ربما تصطدم السيارة بشجرة أو بأي شيء يوقفها! لم يفكِّر في قراره سوى لحظات، امتطى الرصيف، وحاول النزول إلى الأرض الزراعية، في تلك اللحظة حصل الانفجار!

كانت جثة «مجيب» مسجاة في القاعة الكبرى، و«أسينة» منهارة فوقها، تصرخ بكلِّ قواها: «مجيب راح.. السلطة راحت!»، في تلك اللحظة كان «صخر» جالسًا على كرسيه، ينظر إلى الجثة ببرود.. أحلامه في الأبدية الحية أصبحت أمامه كتلة لحم! ولم يبقَ له سوى كلمات مرصوفة في كتب، وحجارة تأخذ شكله في مداخل المدن! كانت الريح داخله تعصف بكلِّ ما حوله. تطيح بالستائر، تنفث الغبار في القاعة الكبيرة، تنثر في الأعين رملًا، تجرح المقل المتورمة من البكاء.. فيسيل الدم غامرًا كلَّ شيء! يده لم تعد تلمس الحقيقة، تلاشى الحد الفاصل بين داخله والمحيط الموجود فيه. لم يكن هؤلاء الذين يبكون ويمزِّقون

الثياب، ويصرخون، يعنون له شيئًا. في داخله كانت أجراسٌ نحاسية تدق بعنف، فيسمع صداها في أذنيه.. لم يدرك للوهلة الأولى أنها ضربات قلبه، ولم يعرف أنَّ ضغطه قد هبط حتى أغمي عليه. كلّ ما أدركه حين فتح عينيه، أنّ الهدوء المخيِّم على المكان يعني أحد أمرين، إمَّا أنّه كان يرى كابوسًا، أو أنَّ غيبوبته دامت أيامًا! لكنَّه أحسَّ بأنفاسٍ حارَّة تتلاحق في المكان.. كان «مجيب» يركض داخل بقعة ضوء، تركها النور المتسلِّل من فتحة الباب، مع هذا لَمْ يستطع التقدُّم خطوة واحدة.. أنفاسه فقط تملأ فضاء الغرفة.. مدَّ يده محاولًا لمسه، تبخَّر تمامًا، لكنّه ترك ظلًّا أسود على بلاط الغرفة الأبيض اللامع.. هذه المرَّة لم يبقَ وحيدًا، كان يتقدَّم ببطءٍ نحو ظلِّ ابنه، ليقيس به ما تبقَّى من ظلِّه القصير!

شعر بالبرد يطحن عظامه، ضغط جرسًا صغيرًا بجانب السرير. دخل الجنرال بسرعة، تمتم وهو يتحاشى النظر إليه: «البقية بحياتك.. ماذا تأمر بشأنه. كلُّنا ننتظر الأوامر». قال: «نادِ الممرضة، أنا بردان...». جاءت الممرضة على عجل ومعها عدد من الأطباء، فحصوه، وأعطوه بعض الحقن والأدوية.. ثمّ ارتدى ملابسه، وخرج إلى القاعة. الجثة ما زالت مكانها.. «أسينة» ما زالت تبكي، وتنشج، وتردد عباراتها اليتيمة: «ماذا سيحدث لنا بعده؟». سمع «صخر» صوتًا آتيًا من بعيد، من جب عميق، مع يقينه أنّه صوت الجنرال، وأنّه يراه بعينيه، لكنَّ الصوت كان بعيدًا جدًّا: «لن يخرج الحكم من هذا البيت، سنعدُّ زياد لاستلام السلطة». تردَّد صدى الاسم في سمعه قويًّا، ثقب جلده، أعاد العبارة كما سمعها:

«زياد ابن أبيه!». لأوَّل مرَّة منذ مقتل شقيقه «هيثم»، يشعر بآثار الرطوبة في عينيه من دون دمع! لم يكن ذلك بسبب حزنه على «مجيب».. بل لأنّ ابن أبيه سيكون الوريث رغمًا عنه! نفض رأسه بحركة مفاجئة، وأدخل يده في جيب معطفه ليخفي عن عينيه تلك البقع الحرشفية المقيتة..

نظرت «أسينة» إلى الجنرال، وكأنّها وجدت قارب النجاة. الحل المذهل الذي لم يخطر على بالها. «زياد»! نعم.. لكنّه لا يصلح، لا يعرف شيئًا من أمور الحكم، ولا السياسة، وليس عسكريًّا، و.. أوقفها الجنرال عن متابعة أفكارها: «أمامنا وقت لإعداده، وسيتجاوز كلَّ العقبات». كان «صخر» يسمع.. القائد الأبدي.. الحاكم المطلق، يسمع، ويرى.. يرى ضحكة «مغيث».. يرى ابتسامة «نور الدين».. يرى حتى قامة «عبد المجيد» النحيلة.. يراهم جميعًا، وهم يحدِّقون بشماتة، ويرون وريثه.. يرون أبديته.. يرون.. «لا، لن يكون ذلك». نبس بصوتٍ خفيضٍ مهزوم. نظرت «أسينة» في عينيه بقسوة، وقالت بحزم: «بل سيكون، إنّه الحل الأنسب»، وأمرت بإعلان نبأ موت «مجيب»، وإعداد الجنازة للمغادرة إلى تل الجرب. همس «صخر»: «لكنَّ إخوته ليسوا هنا». قالت بنبرة ثقة: «أرسلت في طلبهم، سيكونون هنا قبل الثانية عشرة ليلًا».

وقف القائد في مقدمة المشيعين أمام القبر، كان في عالم آخر، لا يشعر بما يجري حوله.. لا كلمات الرثاء التي قيلت، ولا القصائد، ولا المعزين.. كلّ ذلك كان منفصلًا تمامًا عمَّا يجري داخله. أخيرًا انتزعه هتاف المؤيدين لحكم«زياد» من ذهوله، فقد قابله هتاف آخر

ينادي بحكم شقيقه الأصغر «علقمة»! شيء أقوى من الحزن هزَّ القائد.. ما الذي يحدث؟ منذ عشر سنوات كان أمام هزَّة عنيفة مشابهة حين اضطر لاستنفار الجيش بأكمله، ووضع خطة حربية للقضاء على انقلاب أخيه! هل سيقف أولاده الآن الموقف نفسه؟ نظر حوله.. حدَّق طويلًا بالوجوه، ورفع يده ليسكت الجميع. حلَّ صمت ثقيل في المكان، همس للجنرال بكلمات قليلة. قام الجنرال على الفور بإصدار أمر بإبعاد مؤيدي الابن الأصغر عن ساحة العزاء، وإخبار الضباط بأنَّ «زياد» هو من سيرث عرش أبيه. اللواء «حيدرة» أوَّل شخص سمع ما همس به القائد، وما نقله الجنرال.. فاعترض قائلًا: «لن نولِّي علينا ولدًا لا يفقه شيئًا في السياسة». مال الجنرال صوبه قائلًا: «أجِّل الكلام في الموضوع الآن».

بعد انتهاء مراسم الجنازة وعودة الجميع إلى العاصمة، صدر الأمر بإعفاء اللواء «حيدرة» من منصبه!

***

هل كان اللقاء الذي رُتِّب لـ «زياد» و«شوكت» على يد «أسينة» كي يجتمعا على مائدة الغداء في اليوم التالي مع القائد، خارج تخطيطهما حقًّا! كلاهما اختلس النظرات إلى وجه الآخر، وابتسم بطريقة استفزت الشقيق الأصغر «علقمة».. كلاهما التهم الطعام بشهية لا تتناسب مع جوِّ الحزن المخيِّم على القصر!

حين بدأ القائد بالكلام موجهًا الحديث لوريثه، طالبًا منه أن يكون تحت إمرة الجنرال ليدرِّبه على شؤون الحكم، ويعدَّه ليحكم البلاد من

بعده. أثنى «شوكت» على اختيار القائد، وأبدى استعداده للوقوف بجانب «زياد» وخدمته بما يستطيع. حينها ضرب «علقمة» الطاولة بيده، وقال بصوت مرتفع: «لا تتكلَّم فيما لا يعنيك، الزم حدودك». نهضت «مي» صارخة بأخيها الصغير، واقتربت منه تريد تأديبه لتطاوله على زوجها.. قبل أن تمد يدها إليه، جمَّدتها نظرة القائد مكانها.. ومن دون أن ينبس بكلمة، عادت إلى مكانها، وغادر «علقمة» الغرفة غاضبًا. استأذن «زياد» و«شوكت»، وخرجا إلى الحديقة يتمشيان.

من خلف النافذة كان القائد يراقبهما.. التفت إلى ابنته، وقال ببطء: «ليلزم زوجك أخاكِ، لكن لا شأن له بعلقمة، كلٌّ منهما سيستلم موقعًا مختلفًا في الحكم.. إياكِ أن تكوني سببًا في اصطدامهما ببعضهما يومًا». أشار إلى كرسيه، وهو ينهض ببطء: «احرصي على هذا جيدًا».. مشى على مهل صوب غرفته.. ترنَّح في مشيته قليلًا.. تهاوت القامة النحيلة كغصنٍ يابسٍ، ووقع أرضًا!

***

دار ميساك، 2000

لأوَّل مرَّة يبقيان معًا في غرفة واحدة. جلس على طرف السـرير، نظر إلى الجسـد الشـمعي النحيل.. الجسـد الخالد.. الذي طالما ظنَّ أنه لن يفنى، ولن يقع! لأوَّل مرَّة يسـتطيع أن يطيل النظر في عينيه، يحدِّق فيهما طويلًا.. يهتك سـتر الصمت بسـؤال طالمـا ابتلعه خوفًا وحـذرًا: «لماذا أنا من دونهم؟». لم يجد جوابًا عن سـؤاله، سـوى حشـرجة خفيفة. علا صدر القائد، وانخفض، تلاه لهاث، فسـعال، فصمت! مدَّ يده محاولًا أن يمسك بالوسـادة، ليستعين بها في النهوض.. لم يطاوعه جسده. بقي هو صامتًا.. خلال ست سنوات من العمل الدءوب كي يصبح لائقًا بالعرش، كان يبحث عن جواب لهذا السـؤال.. سـت سـنوات والدولة كلّها تعمل كخلية نحل، الجيش بقيادة الجنرال، الاستخبارات، المدربون الروس.. كان عليه أن يجلس ساعات طويلة في اليوم ليتعلَّم كيف يتصرَّف كرئيس، كيف يتكلَّم كرئيس، كيف يمشـي، كيف يـأكل.. كيف يتجاوز امتحانات اللياقة البدنية كي يبدو مناسبًا كقائد للجيش!

كلَّما اجتاز امتحانًا، كان يتذكَّر «مجيب»، ويضحك! كان الأمر سهلًا وكأنّـه لعبـة، لمـاذا كان «مجيب» يجد الأمـر صعبًا وجديًّـا؟ ولماذا أخذ

إعداده سنوات طويلة كي يستلم العرش! ابتسم بارتياح.. ذهب «مجيب» إلى الجحيم الآن، فليجد راحته الأبدية هناك!

شرد قليلًا، وشعر بنعاس أدار رأسه، لكنَّه قاوم بقوة. نهض إلى النافذة، نظر إلى الخارج، كانت الساحة خالية إلا من آثار عجلات السيارات، وبعض أوراق الشجر، وحفيف ريح حارَّة تضرب الأغصان برفق، وترتد إلى الفضاء الرحب في حركة دائرية. تأمل السماء مليًّا، كانت رمادية ضبابية.. استغرب أن يكون الجوُّ الحار لهذا اليوم الخانق، قد حجب الشمس بهذا الشكل. بدت أطراف السماء في الأفق، تحمل بصمة حمراء خفيفة. لم يكن يومًا يهتم بقراءة الطقس ومعرفة أحواله، لكنَّه وجد نفسه تنقبض قليلًا.. شيءٌ ما قبض على عضلات ظهره، فتشنَّجت، وصار يخشى الالتفات إلى الخلف. شعر بنظرات القائد تنصبُّ على ظهره. لم يكن مخطئًا، فقد سمع صوته الضعيف يتساءل: «إلى أين ذهبوا؟». أراد أن يقول له إنَّهم ذهبوا لشأنهم.. جرَّب صوته، فلم يستطع أن ينطق بشيء.. ساد الصمت بينهما ثانية. التفت ببطء، وجلس على أقرب كرسي. نظر صوب السرير. سمعه يسأل: «لماذا بقيت معي، ولم تذهب أنت أيضًا؟». تمتم: «لأنّي أريد أن أعرف.. أريد أن أفهم منك.. لماذا تكرهني؟ ولماذا أتيت بي لأكون وريثًا لعرشك، ولم تسلِّمه احلقمة؟». سمعه يقول بصوتٍ خافتٍ ضعيفٍ: «ربما أردت أن.. عن.. بـ.. ». لم يستطع إكمال جملته.. فاجأه السعال، وعاد الصمت ليملأ المسافة بينهما. قطعه صوت القائد لكنَّه هذه المرَّة آتٍ من بعيد: «إنها تتقدَّم نحوي، تمدُّ أغصانها أذرعًا،

تلتفُّ حول عنقي.. شجرة الخروب جاءت.. ظلُّها يغطيني، منعت عني الشمس.. منعت الهواء.. إنّها تقترب..»، كان يهذي.. عيناه مغمضتان.. والعرق يتصبَّب من جبينه.

فجأة لم يعد راغبًا في البقاء قربه، لم يعد مهمًّا بالنسبة إليه أن يجد جوابًا لأسئلته.. اكتفى بضحكة خرقاء، وهو ينظر إلى كلِّ ما حوله في الغرفة، فيراه هزيلًا وشاحبًا كجسد القائد! تقدَّم نحو الباب، فتحه، وتوقَّف للحظات. نظر إلى الخلف نظرة أخيرة، كانت عينا الرجل المحتضر تحملان نظرة استغاثة رهيبة،ومياه النهر تجذبه نحو القاع! يده تحاول الوصول إلى شيء ما، تحاول الإمساك بالهواء، ارتفعت في حركة عشوائية، ترنَّحت يمينًا وشمالًا.. وارتطمت بالفراش مستسلمة. عيناه جحظتا بقوة، لمعتا كسطح زجاجي، وانطفأتا. راقب «زياد» كلَّ ذلك ببرود، ثمّ أغلق الباب خلفه بهدوء، وخرج!

دخل غرفته، فتح الخزانة، أخرج اللعبة التي أهدتها «مي» له وهو طفل، والتي حرص طيلة فترة دراسته للطب على الاحتفاظ بها في سريره معتقدًا أنّها تبعد أشباح الجثث التي تخرج ليلًا من المشرحة، وتهاجمه محاولة الانتقام منه.. كان على يقين أنّها تملك مقدرة تعويذة، تردُّ عنه شرور الأموات الذين عبثت أصابعه بجثثهم، قطَّعهم على مهل، تأمل عريهم، وعجزهم واستسلامهم! لكنّه كان يخشى في لحظات انحداره في هاوية النوم، أن يستطيعوا استرجاع أرواحهم، وأن يعودوا لمحاسبته، والانتقام منه!

نظر إلى دميته بامتنان، ثمّ حطَّمها، ورماها في سلة المهملات. أخرج مسدسه، وضعه على الطاولة قرب السرير. تمدَّد بكامل ملابسه، وأغمض عينيه. ولأوَّل مرَّة منذ سنوات طويلة، ينام بعمق، ومن دون كوابيس!

استيقظ بعد وقت طويل على ضجيج وحركة غير عادية في القصر. لم يهتم لشيء.. نهض من سريره، دخل الحمَّام، سرَّح شعره، وغسل وجهه، وطلب خادمته لتحضر له طعام الغداء ومشروبًا باردًا إلى غرفته. الخادمة المذهولة بقيت لدقائق ترتجف على عتبة الباب من دون أن تجرؤ على الكلام، صرخ بها: «اذهبي».. أسرعت في إحضار المطلوب بصمت. عندما انتهى من طعامه، وشرب كأس العرق المثلج بتلذُّذ، نظر من النافذة، فرأى الساحة الخارجية تغص بالسيارات، وحركة الحراسة أمام القصر على أشدها. من الواضح أنّ الجنرال قد اتّخذ الترتيبات اللازمة للجنازة! فتح التلفزيون، شاهد شارات الحزن والأعلام المنكسة، ووجوه المذيعين الكئيبة. أغلقه بنزق. لماذا عليه أن يبدأ رحلة حكمه بالحزن، وارتداء السواد، وتنكيس الأعلام؟ اللعنة عليه لقد سلب منه الفرح حيًّا وميتًا!

انتهت مراسم الجنازة العظيمة للقائد الأبدي.. لم يكن البسطاء في تل الجرب يصدِّقون أنّهم يودِّعون رمزهم الذي ظنُّوا أنّه سيبقى إلى الأبد! كما لم يصدِّق الجنرالات وقادة الجيش أنّ مَن سيحكمهم كان منذ ست سنوات فقط غير معروف لديهم إلى درجة أنّ معظمهم لا يعرفون شكله، ولم يروا له صورة من قبل. ثمّ فجأة يظهر كوريث، ويستلم كلّ شيء حتّى قيادتهم!

اللـواء «حيدرة» كان أكثـر الضباط المتضررين من اسـتلامه العرش، وأكثرهـم جـرأة في التصريـح برأيه. فقـد همس فـي أثناء العـزاء للعقيد «حسـن»: «أرأيـت صورتـه الأخيـرة أثناء زيارتـه لمواقع الجيـش؟ يبدو كالأهبـل وهو يضـع المنظار علـى عينيه، مـاذا كان يراقـب على الطرف الآخر؟». لم يسـتطع العقيد «حسـن» منع ضحكته من الانفلات، فسـمع صداهـا معظـم الحاضرين فـي المجلس. همـس للِّواء «حيـدرة»: «كان يراقـب العـدو، ويحدِّد إحداثيـات الضربة التي سـتقصم ظهـره». اللواء «حيدرة» رفع صوته، وقال: «معك حق سـيد حسن، فالقائد أوصاني مرَّة بذلـك، وقال إنّـه لا يريد أن يبكـي النّاس يوم رحيله؛ لأنَّ ذلك سـيحزنه في قبره، بل يجب أن يضحكوا ليشـعر أنّه ما زال قادرًا على إسـعادهم». ابتسـم الجنـرال على الرغم من فهمـه لأبعاد ما رمى إليـه اللواء. واضطر لمجاملتـه بضحكـة خافتة قصيرة، كـي لا يقول أهل تل الجـرب إنّه يهزأ بمعتقداتهم!

لـم تقـف مهمة الجنـرال عنـد تثبيت الحكـم المطلق للقائـد الجديد بتسـليمه أقـدار الناس وأرزاقهـم، بل أيضًـا تدخَّل في الحياة الشـخصية لـه. فقد حضر إلى مكتبه بعد شـهر من تسـلُّمه الحكم، وطلـب أن ينفرد بـه لأهمية الأمـر وخصوصيته. حيـن أُغلق البـاب دونهما، قال هامسًـا: «سـيدي القائـد.. والـدك أوصى أن يكـون العرش لـك ولذريتك. وهذا يعنـي أنّـه يجب الإسـراع في هـذا الأمـر». نظر إليـه باسـتغراب، فتلعثم الجنـرال وهو يكمل فكرته: «عليك أن تتزوج..». قال ضاحكًا: «أتزوج! لا، أنـت لا تعـرف أمّـي، لا تريـد منافسـة في قصرهـا على لقب السـيدة

الأولـى». قال الجنرال مبتسـمًا: «بل هـي التي تطلب منـك ذلك». قهقه حتّـى انقلب على قفاه، ثمّ عدّل جلسـته، وقـال مازحًا وهازئًا: «أرى أنّك أضفت إلى أعمالك عملًا جديدًا.. يليق بك على كلّ حال أن تعمل دلّالة وخاطبة». ضحك الجنرال مرغمًا، وهو يبتلع الإهانة. كان عليه أن ينجح في مهمتـه.. ولم يخرج من المكتب حتّى أقنع القائد، وأخذ وعدًا منه أن يحسم الأمر خلال أسبوع!

لـم يكن القائد بحاجة للاختيـار والتفكير في الأمر. العروس جاهزة، وهو لن يحتاج لأكثر من اتصال هاتفي بأبيها، ولن يقوم به بنفسه!

تعـرَّف على «إيما» في لنـدن عندما كان يزور أباها في عيادته الخاصة ذات مساء. كانا غارقين في حديث حول أوضاع البلاد في الفترة الأخيرة، وحـول الـدور الذي يلعبـه «مجيب» في ضبـط الأمور والحد من سـلطة العائلـة التي تجـاوزت كلَّ الحدود في التّعامل مع النّـاس وأمور الدولة. كاد الحديـث يخنقه لكراهيته ذكر محاسـن «مجيب» أمامـه، في اللحظة التـي فُتح فيهـا الباب من دون أن يُقرع، أو يطلـب الزائر الإذن بالدخول! وظهـرت «إيمـا» ووجهها محمرٌّ، وهـي تلهث. وقالت مـن دون التفات صوبه: «ألن تأتي؟ لقد تأخرنا!». حينها نظر الدكتور في ساعته، ونظر إليه. فهم الاعتـذار المبطن، فنهض قائلًا: «أنا أيضًا تأخرت، عليَّ الانصراف، أراك فـي وقتٍ لاحق». صافح الدكتـور، وتوقفت نظراته قليلًا على وجه «إيما»، التي سـارعت بالاعتذار لأنّها لم تنتبه لوجوده. انحنى لها محييًا، وخـرج. كان حضور «إيما» في ذلـك الوقت منقذًا له من إكمال الحديث

عـن «مجيب»، ومربـكًا في الوقت نفسـه، ومزعجًا أيضًا! فقد شـعر أنّها تجاهلت وجوده عمدًا، وأربكه جمالها، لكنّه خشـي الاقتراب منها. كان يدرك أنّ عائلته لن توافق على زواجه من «إيما». وعلى الرغم من الفارق الكبير بين وضعها ووضع زوج شـقيقته من حيـث العائلة الثرية والمركز الاجتماعي لأبيها، وعراقة أسرتهم. إلّا أنّ الانتماء الطائفي سيقف حجر عثرة بينهما، ولن توافق «أسينة» مطلقًا أن تكون كنتها!

علاقتـه بـ «إيما» مـرَّت بمراحل مد وجزر، يقتربان حينًا، فيشـعر أنّها الزوجـة المناسـبة، والرفيقـة الجميلـة، والمحبوبة المرتجاة. ثـمّ تفاجئه مشـاعره بكراهية لوجودهـا بقربه، فيغيب طويلًا فـي المصحة، ولا يأتي إلى لندن لرؤيتها!

استدعاؤه المفاجئ لبلده، وموت «مجيب»، وتسارع الأحداث وغرقه في الاسـتعداد لوراثة العرش أنسـاه كلّ ما كان بينه وبين «إيما»، حتّى إنّه لم يذكرها مرَّة بحضور أمِّه، ولم يحكِ عنها لـ «مي»، مع أنّها سـألته أكثر مـن مـرَّة: «ألا تفكِّر بالـزواج؟ لا تقل لي إنَّك خـلال إقامتك في لندن لم تتعرَّف على فتاة تناسبك!». وكأنّها كانت تعرف شيئًا، وتخفيه! لم يُصدِّق يومًـا أنّ «مي» تملـك حِسَّ عرَّافة، فقـط لأنّها أجهل النـاس بزوجها! لو امتلكت ذلك الحدس فعلًا، لعرفت زوجها قبل أن تعلم أسرار الآخرين! لذا لم يجد سـؤالها جوابًا منه سـوى ابتسامة لا معنى لها. الآن هو بحاجة إلى«مـي»؛ كـي تفرض وجود «إيما» في العائلة مـن دون أن يكون هو في الواجهة.

«مــي» قامت بدورها على أكمل وجــه، فقد كانت لديها المقدرة على إقناع أمِّها بوجهة نظرها. لم تشــأ أن تذكر عمَّتها، وما قالته لأبيها في زمن مــا، لمعرفتها بالكراهية العمياء بيــن الاثنتين. لكنّها لم تجد بدًّا من تذكير أمِّهــا بالفكــرة علــى أنّها رأيهــا الخاص ورأي أبيهــا: «لا تنســي أنّ غالبية الشــعب من السُّــنة، وكما تقرَّب إليهم أبي باحتضــان علمائهم، وجعلهم من حاشــيته الخاصة، فليعمل أخي على كسبهم بالزواج منهم.. فيضرب عصفوريــن بحجــر واحــد! يضمن ســندًا ماديًّــا بمصاهــرة أثريــاء البلد، ويضمن مساندة الطائفة ومحبتها!»

أخيــرًا تمَّ تتويجه.. جلس على كرســي العرش، نظر إلى الشــعب من أعلــى قمة فــي المدينة.. كانت قصــورٌ من عظام الراحليــن، تتهاوى أمام ناظريه دافنةً تحتها كلَّ مخاوفه وآلامه..

قهقــه طويلًا.. وراح يســمع موســيقا قادمة عبر القــرون.. كانت أنغام قيثارة نيــرون تداعب أذنيه، تهدهده برفق، وتضــع قدميه على عتبة حمَّام الدم!

***

دمشق - المخابرات الجوية في حرستا، شباط 2013

حيـن أنهـى «يونس» روايته، أراح رأسـه على الحائـط، ونام طويلًا.. كان الأسـتاذ يراقبه بخوف، فقد اسـتفحل مرض القوباء[1]، وانتشـر فوق جلده بشـكل رهيب. كان لا بدَّ من المغامرة، فاتخذ قراره بسرعة، ما زال يحتفظ بظروف السـيتامول التي هربتها له الممرضة، صنع منها مشـرطًا، وحضَّر المعقم الذي احتفظ به «يوسـف»، أيقظ «يونس» برفق، وقال له: «هل تثق بي؟». أومأ «يونس» أن نعم. قام الأستاذ بقصِّ الجلد، وتنشيف القيح بخرقة، وتعقيم مكانه، ومدَّد «يونس» على الغطاء، وغطَّاه «يوسف» بمعطفه. بعد يومين بدأ بالتحسـن على الرغم من العفونة والبرد، وقذارة المكان.

فـي صباح السـابع من شـباط 2013 طُلـب «يوسـف» للتحقيق. كان «يوسـف» ينتظـر هـذا اليـوم، فهو يعـرف مسـبقًا مصيره، لـم يتنبـأ به أو

---

(1) هـو تلـوث في الجلد ناجـم عن جرثومة مـن عائلة الجراثيـم العقدية وعن جراثيـم أخـرى، أيضًا. ويصيـب مختلف أعضـاء الجسـم الخارجية. يعد هـذا المرض معديا جـدا، وتنتقل العـدوى به عن طريـق التلامس، أو عند استعمال الأغراض الشخصية.

يحدسه، بل عبارة «أبو الموت» التي ما زالت تتردد في روحه، كانت واضحة، والجميع في المعتقل يعرفون أنّ المقدم «أبو الموت» يمتلك ذاكرة عجيبة، يحفظ فيها عدد ضحاياه الذين أرسلهم إلى الموت، والذين ينتظرون دورهم! أخذوه إلى القبو. أزالوا العصابة عن عينيه، فوجئ بخلو المكان من الجلّادين، لم يكن المقدم موجودًا، لكنَّ الجحيم كان بانتظاره. عرّاه السجّان بيديه، وتركه مقيدًا، ملابسه الممزقة عند قدميه أنبأته أنّه لم يعد بحاجة إليها.. ولا إلى غيرها!

تسلّى السجّان بجلده بكلِّ الأدوات المعلّقة والمرمية في الأرض ابتداءً بخرطوم المياه القاسي وانتهاءً بكبل الحديد. ثمّ جرَّه إلى «بانيو» مليء بالماء، ومدَّده هناك، وتركه، وغادر الغرفة. كان على «يوسف» أن يقاوم الدوار، كان عليه أن يُبقي جسده في وضعية الجلوس، كي يبقى رأسه بعيدًا عن الماء، ويستطيع التنفس.. الساعات تمرُّ ببطءٍ، والنعاس يعصف برأسه، فيصارع ليُبقي عينيه مفتوحتين! الخدر يسري في جسده، وروحه تصارع لتستنفر خلايا جسده النائمة. الجلّادون يدخلون الغرفة، ويخرجون، وكأنّهم لا يرونه! مع انقضاء الليل، وحلول نهار اليوم التالي حفَّزته الحركة في الخارج، وأصوات المعتقلين الذين يُعذَّبون في الزنازين الأخرى على الاحتفاظ بصحوه.. انقضى النهار.. الليلة الثانية كانت أشدَّ وطأة على روحه، لم يعد يستطيع أن يوازن جسده داخل الماء، فصار ينزلق، ويرتطم رأسه بالحافة.. فيستعين ببقايا إصراره على الحياة كي يعيد وضعية جسده إلى ما كانت عليه.

في الصباح الثالث.. كان قد استسلم لإغفاءة استمرت ثواني وربما دقيقة، حين أيقظه ارتطام الباب بالجدار بعنف، ودخول عدد من الجلادين برفقة المقدم «أبو الموت». ارتعش جسده، وشهق بقوة. كان يبتهل إلى الله أن يسحب روحه من جسده في تلك اللحظة قبل أن تمسه يد المقدم. ثلاثة أيام من دون طعام ولا ماء.. أخرجوه من البانيو، وضعوه راكعًا أمام المقدِّم.. الذي مدَّ حذاءه، وأمره بتقبيله. ضغط السجَّان رأسه بيده القوية فوق الحذاء. أمره بأن يطلب منه العفو.. لم يجد صوته.. فتح فمه محاولًا الكلام.. لم يستطع. ضحك المقدِّم «أبو الموت».. قهقه طويلًا: «روح عفوت عنك». وفي اللحظة ذاتها التي نطق فيها بكلماته تلك، مدَّ يده القوية إلى عنق «يوسف»، ضغط حنجرته برفق، ثمّ بقوة، حتى قطع عنه التنفس.. وهمد جسده! ضحك المقدِّم، وقال: «تركتك تموت ميتة الأبطال، فالحسين مات عطشان! روح تمتع بها النعمة بيلبق لك تموت هيك موتة». جرَّ السجَّان جثة «يوسف» إلى المهجع، فتح الباب، ورماها قائلًا: «ودِّعوه».

كان جلده مجعدًا من البلل، وشعره ما زال يقطر ماءً.. وعيناه جاحظتين. جفَّف المعتقلون جسده، وألبسوه من ثيابهم وهم يبكون بصمت، أغلقوا عينيه، وصلّوا بصمت.. لم يصدر أيّ تعليق. أحدهم كان يقرأ سورًا من القرآن بصوت خفيض.. والدموع بلَّلت لحية الأستاذ البيضاء.

«يونس» لمس قلبه بأصابعه، وتحشرج صوته وهو يهمس بأذن الأستاذ: «ما زلت عند وعدك؟». هزَّ الأستاذ رأسه باستسلام. لم تكن

هنــاك فائدة مــن الكلام.. هو أيضًــا كان على يقيــن أنّ دور «يونس» ليس ببعيد!

***

فــي صباح العاشــر مــن شــباط، دخــل ســجّانان، أحدهما جــرَّ جثة «يوسف»، والآخر قرأ أسماء المطلوبين للتحقيق. كان الأستاذ و«يونس» مطلوبيــن للتحقيــق! نظــر كلٌّ منهمــا في وجــه الآخر برعب لم يســتطيعا الســيطرة عليه، التصقــا في الممر ببعضهما، وهما يجــرَّان أقدامهما جرًّا. في الطابق العلوي، فصلهما الســجَّان، أوقف الأســتاذ بعيدًا عن «يونس» في الممر الطويل ووجهه إلى الحائط، وسحب «يونس» إلى القبو!

بعد ســت ساعات، أخذه الســجَّان إلى غرفة المحقِّق. فوجئ الأستاذ أنَّ التحقيق معه لم يكن في القبو، وفهم أنَّ الموقف هكذا يعني أنَّ الفرج قريب، لكنَّه متوقف على مدى تجاوبه. ابتسم المحقِّق، وقال: «أي أستاذ، سمعت أنك طبيب، وتقوم بعلاج المعتقلين معك؟». ردَّ الأستاذ بهدوء: «لســت طبيبًــا، لكنّي أعــرف معلومات عــن العلاج بالأعشــاب، والطب النفســي بحكــم دراســتي للفلســفة وعلــم النفــس». اعتــدل المحقِّق في جلســته، وقال: «حســنًا.. يعني أنت تفهم بعلم النفس، أخبرني ما مفهوم هــؤلاء للحريَّــة؟ ولماذا يطالبــون بها؟». قال الأســتاذ محــاولًا التملص من الإجابة: «يختلف الأمر بحســب الدوافع». قال المحقِّق وهو يشــعل ســيجارة: «كيف يفسِّــر علماء النفس ذلك؟»، قال الأســتاذ، وهو يتنشَّــق الدخــان بعمــق، ويأخذ فرصة ليقول شــيئًا غامضًا: «يجب على الإنســان

- الـذي ينتمي إلى عالمين - أن يتحرَّر من الجسـم (المادة) ليعيش وفق متطلبـات الروح ذات الطبيعـة الخالدة، كما توحي بذلـك نظرية التذكُّر، وتحـاول البرهنـة عليه حجج فيـدون. من أجل هذا يجب على الإنسـان أن يعيـش علـى أفضل وجـه ممكـن. فمعرفة الخيـر هي التـي تمنعه من ارتكاب الشـر. ولأنّـه ليس أحد شـريرًا بإرادته، فإنّ الفضيلـة، التي تقود إلى السـعادة الحقيقية، تتحقَّق، بشـكلٍ أساسـي، عن طريق العدالة، التي هـي التناغـم النفسـي الناجـم عن خضـوع الحساسـية للقلـب الخاضع لحكمـة العقل. وبالتالي، فـإنّ هدف الدولة يصبح، علـى الصعيد العام، حكـم المدينة المبنية بحيث يتَّجه جميع مواطنيها نحو الفضيلة». ابتسـم المحقِّق بخبث: «أسـتاذ أنت تلف وتدور، لكنّـي فهمت من كلامك، أنَّ على الإنسـان كي يعيـش وفق متطلبـات روحه، أن يتحرَّر مـن متطلبات جسـده، وهـؤلاء يطالبون بكلِّ ما يخـدم أجسـادهم، ألا توافقني الرأي؟ ثمّ تقول إنّه لا أحد شـرير بطبعه.. إذن لماذا يتهموننا بالشـر؟ أليسـوا مَن اضطرنا لمعاملتهم بهذا الشـكل؟ وأنت قلت بوضوح: إنّ القلب خاضع لحكمـة العقل، وهـدف الدولة أن يتَّجه جميـع المواطنين إلى الفضيلة.. أيّ أنّنا لا نختلف يا أسـتاذ، بل بالعكس نحن نلتقي على هدف واحد!».
صمـت الأسـتاذ يريد اسـتجماع جرأتـه لدحض مـا قاله المحقـق، لكنّه تراجع في آخر لحظة، وسـمع المحقِّق يقول له: «أي أستاذ بما أنّك تفهم في التحليل النفسـي، كيف تحلِّل شـخصية ضابط المخابرات؟». امتلك جرأة اسـتثنائية جعلته يقـول: «لا أعرف مدى نجاحـك في عملك، لكن المفروض فـي ضابط المخابرات الناجح أن يكـون صبورًا ومخلصًا في

عملـه، وحافظًا للأسـرار، ومطيعًـا، ويتمتـع بالليونة، والحـزم، والذكاء والدهاء». ضحك المحقِّق: «هل رأيت هذا فيَّ؟». قال الأستاذ: «لا شكَّ أنّ رؤسـاءك رأوه لذا اختاروك لهذه المهمة». قال المحقِّق وظلُّ ابتسـامة علـى شـفتيه: «دعنا نفتـح قلوبنا لبعضنـا، وقل لي، ما الـذي جعلك أنت شـخصيًّا تخرج مطالبًا بالحريَّة وإسقاط النظام، وأنت على هذا القدر من الفهم والتفكير السليم؟ لا تقل شيئًا.. أنا أعرف أنّك تورَّطت بالأمر، وقد أخـذت العقوبـة الكافية على خطأ حصل مـن دون إرادتك.. لهذا قرَّرتُ تحويلك إلى المحكمة».

صعق الأستاذ حين سمع كلام المحقق، لم يصدِّق أذنيه، لم يستوعب أنّه سينقل إلى القضاء، وسيخرج من هذه الحفرة القذرة نهائيًّا.. لكنَّ فرحه ودهشـته لم يدوما سـوى لحظات، فكَّر في «يونس»، فكَّر في «يوسف»، فكَّر في كلِّ المعتقلين.

كانـت خطواتـه تتلهـف للوصول إلـى المهجـع، العبـور الأخير إلى العتمـة، وبعده سـيرى النور! حيـن دخل المهجع صـدَّه الوجوم المخيِّم على زملائه، والدموع المنهمرة في العيون الذاهلة، ومنعه من الكلام. لم يجرؤ على السـؤال: «ماذا حدث؟». رائحة الكارثة عشَّشـت في المكان، وأخرسـت الحناجر. نشـج أحـد المعتقليـن فجأة بصوتٍ عـالٍ، وأغمي عليه. انشغل البقية في مسح وجهه، وتدليك جسده، وإيقاظه. ووقف هو يراقب المشهد وصدره منقبض حدَّ التماس الهواء! صار يسحب الشهيق بقوة، حتى لامسـت يد أحد المعتقلين كتفه، وهـو يقول: «البقية بحياتك

أستاذ.. كلّنا على هذا الطريق». لم يسأل، قلبه عرف أنّه «يونس». لام نفسه لأنّه لم يره، لم يودِّعه، لم... قال الشاب المعتقل: «الحمد لله أنّك لم تكن موجودًا حين أحضروه، لقد ثقبوا قلبه بالمثقب، ورأسه أيضًا.. لقد..». لم يستطع الشاب متابعة كلامه. فما رآه ذلك اليوم لا يمكن أن يُقال. المقدِّم «أبو الموت»، لم يقصف عمر «يونس» كما يفعل مع بقية المعتقلين، أراد أن يجعله عبرة لكلِّ مَن تسوِّل له نفسه التفكير! أكثر ما كان يثير حقد المقدِّم المثقفون من المعتقلين. هؤلاء يرغب في إبادتهم جميعًا.. كي يجتث أصل الفتنة كما يقول!

لم يقل الأستاذ كلمة واحدة، لمس عنقه بيد مرتجفة، وغادر المهجع في الصباح التالي، من دون أن يودِّع أحدًا!

***

أرض الظِّلال، شباط 2013

بدأت الأطلال تظهر للعين المجردة قبل وصول الحافلة إلى مشارف البلدة! على الرغم من معرفته السابقة بما حدث، إلّا أنّ مخيلته كانت ترفض أن تتصوَّر الأشياء المحكية، وتحتفظ بها في الذاكرة على أنّها حقائق! كان دائمًا يحاول أن يحافظ على الصورة البهية للبلدة الوادعة. الحواجز التي أوقفت الحافلة.. الشوارع الخالية من السيارات، الدكاكين المغلقة، الريح الباردة التي تجلد الشجر والحجارة، هذه الأشياء كانت مدينته الجديدة التي عاد إليها بعد سنة وثلاثة أشهر من الاعتقال! حين وصل إلى الحارة الغربية حيث منزله، لم يحتج لمتابعة السير للوصول إلى مدخل البناية، فقد استحالت إلى كومة تراب، كان يتخيَّل قبل دقائق كيف سيصعد الدرج، كيف سيزيل الغبار عن المائدة في الشرفة، ويضع كأس الشاي الساخن، وكيف ستصعد نظراته لا إراديًّا إلى شرفة جارته «صباح»، وتلتقي نظراتهما، فتقول له: «صباح الخير»، وأنّه لم يغب كلَّ ذلك الزمن!

لم يعرف إن كان عليه أن يحزن، أو يفرح لأنّه لم يكن داخل المنزل حين نزل البرميل المتفجر، فأحال حجارته إلى ركام!

أوقف سيارة مرَّت مصادفة بالجوار. عرفه السائق، هتف مبتهجًا: «الحمد لله على السلامة يا أستاذ، متى عدت؟». تخفَّف قليلًا من ضيقه، نبرة الصوت أعادت إليه إحساسه بوجود بشر حوله. قال: «الله يسلِّمك يا رب.. إلى الجبل، كم تريد؟». ردَّ السائق بصوتٍ محايد: «ستة دولارات أستاذ». شهق وهو يعيد الرقم: «لماذا؟ الله يرحم أيام ما كانت التوصيلة بخمسة وسبعين ليرة». قال السائق بضيق: «بسلامة فهمك أستاذ، الليرة في صعود وهبوط، وسعر الدولار مئتين وخمسين ليرة، وأنا آخذ على التوصيلة ألفي ليرة، يا دوب تكفي.. بس والله مشان خاطرك سأنزلها للنصف». فكَّر قليلًا وهو يحدِّق في وجه السائق باستغراب، وقال هازئًا: «أتريد المبلغ بالسوري أم بالدولار؟». ردَّ السائق بجدية: «بالدولار أستاذ، بس إذا ما في معك، ما في مشكلة، هات سوري».

حين وصل قريبًا من البستان طلب من السائق أن يقف، وقال: «يعطيك العافية، والله معك حق، لو كنت مكانك لن أرضى الأجر إلا بالعملة الصعبة. كثَّر الله خيرك». أدرك كم هو صعب أن يجتاز سائق سيارة كلَّ تلك الحواجز المنصوبة على الطريق! وكم من الوقت سيقضي في نقاش وأخذ ورد حتّى يمر.. وكم من الرشاوي سيدفع!

فوجئ بباب البستان الحديدي مواربًا! دفعه ببطء، ودخل.. ضجيج ضحكات وصله من عمق البستان، تحديدًا من البيت! اقترب بحذر، كان قلبه يخفق بشدَّة.. وضع حقيبته قرب بركة الماء، توقف تحت العريشة محاولًا التقاط الأحاديث لمعرفة مَن في الداخل. تدافع شابان مسلَّحان

فـي تلـك اللحظة، وكلٌّ منهمـا يريد الخروج من الباب قبـل الآخر. وقفا مستغربين حين رأياه.. أراد أن يقول شيئًا، أيَّ شيءٍ.. لم تسعفه الكلمات. قـال أحد الشـابين قاطعًا الصمـت، متغلّبًا على ارتباكـه: «عدم المؤاخذة أسـتاذ.. نعتـذر منـك لأنّنـا اسـتخدمنا البيـت مـن دون إذن حضرتك». انتبـه إلـى أنَّ وجه الشـاب ليس غريبًـا، لا بدَّ أنّه أحد طلابـه، قال بهدوء: «لا بأس، هل أجد مكانًا بينكم للمبيت؟». ابتعد الشابان عن المدخل، أخذ أحدهمـا الحقيبة، ودخلا خلفـه. ربَّما ما تبعثر من الأثاث، حضَّر أحدهما الشـاي، وقام الثاني بمهمة التعارف بين الأستاذ والشباب الذين انكمشوا في جلسـتهم، وكأنّهم على مقاعد الدراسـة! أحدهـم قـال بعد صمت لم يسمع أثناءه سـوى أصوات رشف الشاي، ورشقات رصاص في البعيد: «ألا تذكرنـي أسـتاذ؟». حاول نبـش ذاكرته بحثًـا عن وجه السـائل، فلم يفلح في معرفته. ابتسـم الشـاب وهو يطفئ سيجارته بعقب حذائه: «أنا شـعبان، معلم الباطون، التقينا منذ حوالي سـنة ونصف في تجمع أحرار المحافظـة». أكمـل «عمـر»: «هو قائـد مجموعتنـا..». قال باسـتغراب: «قائـد مجموعتكـم! وكلُّكـم تحملون شـهادات جامعيـة!». احمرَّ وجه «شـعبان»، واختنـق صوتـه وهو يقـول: «القائد العسـكري ليـس بحاجة لشـهادات يا أسـتاذ، ولا يهم أن يعرف أفلاطون وأرسطو». تذكَّر الأستاذ الموقف جيدًا، وقال: «لم يقد أفلاطون عسكرًا، ولم يقتل مدنيًّا، دعا لبناء مدينة فاضلة.. ثمّ يا شـعبان، العسـكر أيضًا يحتاجون لمن يرشـدهم إلى الصـواب إن هـم أخطأوا تقدير الأمـور..»، أراد أن يضيـف الكثير، لكنَّه فضَّل الاحتفاظ برأيه كي لا يرفع حدَّة التوتر الذي ساد الحوار، بالإضافة

إلـى ضيقه من الدخان الذي خنق الهـواء النقي في الغرفة، ومن الفوضى التـي غيَّرت ملامـح المكان، ومـن وجودهم أصلًا في بيتـه. قال بهدوء: «أوَّل الأخطاء أن يستولي العسكر على بيوت المدنيين، ويقيمون فيها من دون إذن..». هنا لم يحتمل «شـعبان»، وقاطعـه قائلًا: «إذا كان المدنيون صادقين في ثورتهم، لن يعترضوا على تأمين الحماية، وتقديم المساعدة لمَن يحمون أرضهم وعرضهم، والبسطاء هؤلاء الذين تعترض حضرتك علـى قيادتهـم، هم مَن قامت الثـورات على أكتافهم، وإن نسـيتَ أذكِّرك بحديثك عن الثورة الفرنسية في اجتماعاتنا السابقة».

كان الجميع ينصتون للحوار بقلق، فهم يعرفون أسـتاذهم جيدًا، كما خبروا «شـعبان» فـي معارك جبـل الزاوية ووادي الضيف وسـراقب. لم يكن في مصلحة أحد تطور الخلاف بين الاثنين. تدخّل المقاتلون لحسم النقاش، وتحويل الحديث إلى فترة اعتقال الأستاذ، وماذا ينوي أن يفعل. لم يكن لدى الأسـتاذ فكرة مسـبقة عن الحياة التي سيعيشـها في الجبل، كان يسـعى فقط ليصبح بمفرده، ليعتزل العالم بعيدًا عن القتال والقصف والنزاعـات، ويتفـرَّغ لكتابـة روايـة «يونس»! لـم يتخيَّـل أنَّ الجبل طاله القصـف أيضًـا، وامتلأ بالحواجـز من الطرفين، لم يتخيَّـل أنَّ بيته لم يعد له.. وأنَّ الشـباب قد تحصَّنوا في البيوت المتناثرة في القمة على الطريق الواصـل إلى قرى جبـل الزاوية. يخرجون إلى معاركهـم، ويعودون إلى هنا ثانية محافظين على نقاط تمركزهم. في البداية حاول أن يطلب منهم بلطف أن يتركوا له غرفة مسـتقلة لأنّـه يحتاج إلى العزلة! لكنَّ ذلك رغم تحقُّقه لم يمنحه الجوَّ المطلوب للتفكير والكتابة.

لم ينسَ عادته القديمة في الصعود يوميًّا بعد العصر إلى أعلى نقطة في الجبل، والجلوس فوق الصخور ليتأمل الشمس في لحظة غيابها عن المدينة، ويرى البيوت التي حفظها بيتًا بيتًا تغرق في الظلام! حين كان طفلًا كانت أمُّه تمنعه من الصعود إلى «الشير» بحجة وجود أفاعٍ وثعابين ومجيء البومة وابن آوى والخفافيش، فكان دائمًا يتخيَّل شكل البلدة من تلك النقطة! حين كبر قليلًا مارس متعة اكتشاف المكان خلسة بعيدًا عن عيني أمِّه. فيما بعد صار الأمر اعتيادًا، فكان يعرف متى يشعل أهل الحارة القديمة أوَّل ضوء، ومتى ينطفئ نور المئذنة، ومتى تصعد النسوة إلى السطح، وفي أيِّ وقت تتحرَّك أشباحهن نازلة إلى أرض الديار. وحفظ مع الزمن أشكال الغيوم وألوانها تلك التي تتبدَّل مع الطقس، ثمّ صار ينشغل بذاته وأحاسيسه بدل انشغاله بمظاهر الطبيعة حوله. وحين قرَّر قبل اعتقاله أن يبدأ مرحلة العزلة ليؤلف كتابه الخاص.. كانت المدينة قد بدأت تفقد النور لانقطاع الكهرباء الدّائم، وعاد إلى ممارسة لعبة الطفولة بعدِّ البيوت المنارة، تلك التي تملك مولدة كهربائية، وتلك التي ينوس في نافذتها قنديل «الكاز». ويسمع صوت أذان العشاء من دون مكبر ينطلق من مساجد البلدة، فيصل سمعه واضحًا ودافئًا وحميميًّا كما كان في مرحلة الطفولة.

حلَّت العتمة، ولم ينتبه في البداية إلى الخطوات الخفيفة على الصخر وراءه، ثمّ بدأ يعي الحركة الناعمة، خفق قلبه بشدَّة.. للحظات كانت الخطوات تصل سمعه ملساء، كأنّها أفعى تسعى فوق حجارة

مصقولـة! لا يـدري لمـاذا خطرت لـه في تلـك اللحظة «لمـار».. أحسَّ بحضورهـا الطاغي، وسـمع صـوت فحيحها بأذنيـه.. لا يمكن أن تكون مجـرد تهيؤات.. أجفل حيـن صارت الخطوات أقرب، لكـنَّ دقات قلبه عادت للانتظام حين سمع نحنحةً، وصوت «حمزة» يقول: «لماذا تجلس وحدك هنا أستاذ؟». لم يلتفت، قال بنبرة خافتة: «أبحث عن مكان هادئ أسـتطيع التفكيـر فيه مـن دون أن يقاطعنـي أحد». جلس «حمـزة» قربه، وقال: «أستاذ أنا أعرف أنك متضايق من وجودنا، لكن ليس بيدنا حل في المـدى المنظور، كما ترى أرضك هنا أفضـل منطقة في الجبل للمراقبة، سامحنا، والله نحن لا نقصد إزعاجك، وأنت كريم، وقد علَّمتنا، وربيتنا، ولـكَ علينا حقُّ الطاعة. بصراحـة أكبر، معظم شـباب الكتيبة متضايقون من شـعبان، وغير موافقين على أغلب ما يفعله، على الرغم من حماسـه وإخلاصـه. نحـن لا نشكِّك بـه، لكنَّه بصراحـة لا يفهم جيدًا في الشـأن العسـكري، ومـع ذلك لا يريد أن يسـتمع لمشـورتنا في المعـارك». قال الأستاذ من دون اهتمام: «لماذا لا تنشقُّون عنه مادام لا يستمع إليكم؟ أنا استغربت كيف يكون بينكم الملازم الأوَّل في الجيش، وتسلِّمون القيادة لراسـب في الابتدائية!». تنهَّد «حمزة»: «أسـتاذ، نحـن مضطرون، إن لـم ننضم إليه، سـننضم لمن هو مثله، وربما أقل فهمًا، السـلاح هو السـبب، هو يؤمِّن لنا السـلاح والذخيرة، ومسـؤول عن تأميـن طعامنا، إن تركناه، علينـا خلع اللباس العسـكري، والجلـوس في بيوتنا بانتظـار اعتقالنا، أو قتلنا. لا خيار لنا». قال الأسـتاذ بدهشـة: «ومن أين يأتي شعبان بالسلاح والذخيرة؟». قال «حمزة»: «هناك جهات تموِّل كلَّ فرقة أو لواء أو كتيبة،

ونحن لا نعرف جهة تمولنا.. بصراحة أستاذ.. أنا جئت لأتحدَّث معك في هذا الأمر بالذات.. إن استطعت تأمين السلاح لنا، نترك شعبان، ونشكِّل كتيبة تخصنا». فتح فمه دهشة: «أنا؟! من أين يا حسرة؟». قال «حمزة» بحذر: «عن طريق الدكتور ناجي، هو مسؤول كبير عن الإغاثة في إستنبول». كان على «حمزة» في ذلك الوقت أن يوضِّح الأمور التي استغلقت على الأستاذ متجاهلًا ارتعاش يديه، واضطرابه، أراد دقَّ الحديد وهو ساخن كما يقولون في المثل!

بعد أن فهم الأستاذ أنَّ وجوده في الجبل مرهون بقرار التسلح والقيادة، صار يبدي ضيقه من وجود الشباب، لم يعد يستطيع التصرف في بيته كما يريد، فشل في الكتابة مرارًا، حاول أن يفتح حوارًا يؤدي في النتيجة إلى طردهم من بستانه. لكنَّ طردهم سيحمِّله مسؤولية كبيرة تجاه نفسه وضميره قبل أيِّ شخص آخر. وجد نفسه تدريجيًّا يقع في فخ الاحتكاك معهم، بالحوار حينًا، والتعاطف حينًا، والشجار أحيانًا! وفي مدَّة قصيرة ظهرت أزمة حادَّة بينه وبين «شعبان»، أدَّت إلى انشقاق في صفِّ الشباب، البعض وقف إلى جانبه، والبعض الآخر وقف إلى جانب «شعبان». صوت العقل يتصارع مع صوت العاطفة والاندفاع، ولم يحرز أيٌّ منهما تقدُّمًا في السعي إلى توافق يجعلهما معًا قائدين للمجموعة التي انحشرت في الغرف الثلاث الصغيرة، كما كان المعتقلون في الزنازين، وأحيانًا يضطر بعضهم للنوم تحت الشجر!

افتقده الشباب ذات مساءٍ، حلَّ الليل، واشتدَّ البرد، وسُمعت أصوات رعدٍ قادم ميزه الشباب بقولهم: «قصف ربَّاني». تشاوروا في

الذهـاب للبحث عنه، قال «شـعبان»: «ليس صغيـرًا، يعرف كيف يعود».
احتـدَّ «حمزة»: «ربما حدث له شـيء». قال «مروان»: «طولوا بالكم، في الصبـاح نصعد للبحث عنـه». قال «حمزة»: «لكنَّها ليسـت عادته، ثمّ ألا تسـمع صوت الرعد والمطر، البيت بيته يا أخي، ونتركه ينام في الخارج! هـذا إذا سـلَّمنا أنّـه بخير، ولا يريـد العودة إلـى هنا». صمـت «مروان»، لكنَّه لم يسـتطع البقاء جالسًـا حين رأى «حمزة» يحمل سلاحه، ويخرج فـي العتمـة.. لحق به مـن دون كلام، صعدا إلى الصخـور العالية بحذرٍ، انزلقا مرارًا، وهما يحاولان الوصول إلى القمة. حين أشـرفا على العتمة الممتـدة في جميـع الاتجاهات، وصفعتهما الريح بقـوة، لم يجدا أحدًا! عادا خائبين. في وسـط الطريـق، توقف «حمزة» قـرب البيت المهجور، حدَّثته نفسـه بالدخـول إليه، همس لـ«مروان»: «أيعقـل أن يكون هنا؟». تـردَّد «مروان» فـي الدخول وراء «حمزة»، الذي خـرج خلال دقيقة وهو يهزُّ رأسه بأسفٍ: «هو في الداخل، نائم على الأرض!»

صباحًا استنفر الشـباب في المقـر، وعلا ضجيجهم ونقاشـهم، كان «حمـزة» يقتـرح أن يغـادروا بيت الأسـتاذ، ويجـدوا مكانًا آخـر لهم. لم يوافـق أحد على الاقتـراح، فصعد إلى القمة وحيـدًا يحمل بعض الطعام وإبريق شاي ساخنًا.

تململ الأسـتاذ وهو ينهض من نومـه، وأبدى انزعاجًا لرؤية «حمزة» بالباب. قال بجفاء: «لماذا جئت؟». قال «حمزة» بمرح: «أريد أن أتقاسم معـك طعـام الإفطار، والله لا تنزل لقمة فـي حلقي من دونك»، وأضاف

بلهجة عتب: «لماذا تركتنا؟». لم يكن ينتظر الردَّ، فهو يعرف السبب الذي جعل الأستاذ يترك البيت. تناولا الطعام، وطلب الأستاذ منه أن يحضر له غطاءً وفراشًا، وبعض الكتب. ألحَّ «حمزة» عليه، واحتجَّ بالبرد، وعدم نظافة المكان. قال الأستاذ بهدوء: «لقد اتخذت قراري، ليس المكان سيئًا، كنَّا في وضع أسوأ من هذا بكثير في المعتقل، على الأقل هنا أنا حر، أخرج في الوقت الذي أريد، أتمتع بمنظر الطبيعة، وأشم هواءً نقيًّا، ومسألة التدفئة محلولة ببعض الحطب، الجوُّ سيصبح دافئًا بعد فترة».

لم يمضِ شهر حتّى أنهى الأستاذ قراءة السير الذاتية لـ«تشرشل» و«هتلر» و«جيفارا»، وختم السلسة بقراءة حول حياة «ستالين». تغيَّر مجرى تفكيره خلال تلك العزلة الاختيارية، وسط مظاهر جنون الطبيعة، وتفتُّح أزهار الكرز، وتسلُّل الدفء الربيعي، ونشاطه في تحسين هيئة المكان بإصلاح بعض الأخشاب، واستخدامها للنَّافذة وأخرى للباب، ورصف الأرض بحصى ناعمة، ووضع بعض الأصص عند الباب غرس فيها أعواد الورد والريحان. وأحضر طاولة صغيرة، رصف عليها الكتب، والأوراق التي سيحتاجها في المرحلة القادمة للبدء بمشروع كتابه الجديد! فقد قرَّر أن ينهي كتابه الشخصي بعنوان «تأملات في الحياة والثورة» قبل كتابة رواية «يونس»، كما فكَّر بدمج تلك التأملات مع نواة كتابه القديم «التفكير الجمعي وسياسة حكم القطيع».

لكنَّه لم يستطع أن يكتب حرفًا واحدًا.. كلَّما وضع كأس البابونج المغلي أمامه، وشمَّ الرائحة المسكرة لأزهار الأرض والعشب.. كان

يرى «لمار» قادمة من أسفل الوادي، تجرُّ حمارها، وجبينها معفَّر بحبات العـرق ووراءها جيش مـن بنات آوى. تحـدِّق فيه بتحدٍّ وريبـة.. نظرتها ترعش قلبه، ويشـعر بجفاف في حلقه.. يكاد يقسـم إنّها ليست طيفًا، بل امـرأة من لحم ودم، تصعد من عمق الـوادي، مصحوبة بظلِّها المائل إلى يمينها، تدوسه أقدام حمارها الذي لا ظلَّ له!

خـلال تلك الفتـرة تطوَّرت العلاقة بين «حمزة» والأسـتاذ إلى علاقة مريـد بشـيخه، فقـد كانا يمضيـان السـاعات الطويلـة في نقاشـات يفكِّر الأسـتاذ بوضعها في كتابه على شكل حواريات، وصاغ بعضها في أفكار وعناوين للنصوص التي تراوحت بين الخواطر الفلسفية، والتأملات.

أنصـت «حمـزة» بـكلِّ جوارحه لما يطرحه الأسـتاذ مـن أفكار حول الثورة، فقد كان متعطشًـا للحوار بعيدًا عن أصوات القذائف والرصاص. كان يـرى أنَّ الثورة سـتدمِّر نفسـها؛ لأنَّ الأدوار التي يقـوم بها كلُّ طرف ليسـت هي الأدوار الطبيعية المناطة بهم أصلًا، فالذهن العسـكري الذي يقود معركة، ويسـتطيع معرفـة الطريقة المثلى لإدارتهـا، ليس بالضرورة يعـرف كيف يقـود دولـة! وأضـاف أنَّ «عبـد الناصر» وصل إلـى قلوب النـاس، لكنَّه لم يسـتطع أن يقـود المرحلة بحنكة قائـد مدني.. بقي عقل العسـكري مسـيطرًا على تصرفاته، فكانت حساباته كلّها قائمة على إدارة معركة وأطراف صراع!

وها هو «شـعبان» يصرُّ على حضور المؤتمرات في تركيا كممثل عن ثـوار الجبل. «شـعبان» لا يريـد أن تفلت الخيوط من يـده إن هو ترك أمر

المؤتمرات لغيره. الشباب ألحوا أن يمثلهم أحد المثقفين الذين يفهمون بالسياسة، وذلك ما أثار غضب «شعبان»، ورفع حدَّة الخلاف بينه وبين بعض الشباب في الكتيبة. وأوَّلهم «حمزة» الذي كان يعارضه دائمًا، وينتقد سياسته.

قال «حمزة» للأستاذ: «مَن سيكتب عن هؤلاء الذين لم نعرف عنهم شيئًا، وبقوا مجرد أرقام في مجازر طالت الوطن كلّه.. لن نستطيع استردادهم يومًا، ولن نستطيع تقديم العزاء لأرواحهم بمنجزات يعرف المتصارعون كيف يقتنصونها بخبرة الرصاصة التي تنطلق من فوهة سلاح يتربص بأصحاب النوايا الطيبة». ردَّ الأستاذ بحسرة: «كلُّ واحدٍ منَّا يقدِّم ما يستطيع حسب إمكانياته المتواضعة. أنا لا أستطيع أن أقدِّم أكثر من كلمات أكتبها إهداءً في مقدمة الكتاب لأرواحهم». ردَّ «حمزة» بحماس: «بل تستطيع أكثر من ذلك، ما حاجتنا إلى نظريات على الورق؟ لماذا لا يكون هذا الكلام موجهًا للكتائب؟ دعِ الثوار يسمعون منك، هم بحاجة لعقل مفكر، كما يحتاجون السلاح، بحاجة لمَن يفضُّ خلافاتهم، بحاجة لمن يؤلِّف بين قلوبهم.. هم محتاجون لكَ يا أستاذ، لماذا لا تكون مرشدهم؟ سياسيًّا وعسكريًّا». قال الأستاذ بدهشة: «عسكريًّا؟ كيف؟». قال «حمزة»: «بتأمين السلاح والذخيرة، بنقل المؤتمرات والاجتماعات إلى الجبل، أنت تستطيع أن تُقنع ناجي بعمل الاجتماعات هنا، تستطيع إقناعه أيضًا بإيجاد جهة ممولة لنا من أجل الحصول على السلاح والذخيرة.. عندها لن يخضع الشباب لحكم شعبان وسيطرته».

كان يشـكُّ بجدوى اللقاء، فقد حمل يقينًا مسـبقًا بفشـل مهمته، لكنَّه غامـر بطلب الاجتماع مع «ناجي».. ولبَّى «ناجـي» الدعوة مصطحبًا كلَّ مَـن يعمـل معه في الإغاثة، والتسـليح، والهيئة الشـرعية. بعـد دقائق من الصمـت الـذي تـلا ضجيج اللقـاء والترحيـب بالضيوف.. لـم يعد أحد يسـمع سـوى صوت الريح في الخارج، وصوت أكواب الشـاي تصطدم بصينية النحاس، وأصوات خافتة لرشفات متمهلة! قطع «ناجي» الصمت بإعلانـه عن معرفته المسـبقة بالموضوع الذي اسـتدعاه صديقه الأسـتاذ لأجلـه.. وأبدى اسـتعداده للتعـاون، ووعد بإرسـال أوَّل حملة إغاثة في أقرب فرصة.

ارتاح الأسـتاذ لمبادرة «ناجي»، وإن لم يزايله الشكُّ في تحوُّل القول إلى فعل!

لـم يكن هنـاك بدٌّ من حـدوث الزوبعـة من لقـاء الريـح بالريح. كان الأسـتاذ يتجنب هـذا اللقاء مع «شـعبان»، ولا يريده، خاصـة بعد معركة القصير، التي انسحب منها «شعبان» مع قواته بعد إعلان حزب الله سقوط المدينـة! وأراد أن يفـرض على الثـوار في الجبل خطـة جديدة للتخلُّص من الحواجز المحيطة بالمدينة. فاعترض الأسـتاذ: «الخطة ستفشل، دع أمـر التخطيط للمـلازم أوَّل حمزة، واكتـفِ أنت بقيـادة المعركة». احتدَّ «شعبان» وقال: «كنت تقول لنا، الفكرة نتاج إنساني لا تحتاج إلى ثقافة أو شـهادات جامعية لتظهر كنبوءة. لهذا تشـارك كلّ فئات المجتمع بتطويره والارتقاء به. حتّى الاختراعات وليدة فكرة تفاجئ الذهن على حين غرة.

وأنت الآن تتنكر لمقولاتك، ماذا تسمي ذلك؟ أنا شخصيًّا لا أريد تسميته كذبًا، لكنَّه على كلٍّ حال يدل على شخص مهزوز لا يدري ما يقول».

ورمى عقب السيجارة أرضًا، وسحقه بكعب حذائه.

ردَّ الأستاذ بهدوء مفتعل: «نحن صنيعة أفكارنا المسبقة، لا نستطيع قبول الاختلاف.. ولا نجد الحجة المناسبة لدحض مزاعم الآخرين، فنكتفي بالشتائم».

انسحب شعبان من المقر، وانتقل إلى بيتٍ آخر في الجبل. أراح ذلك الأستاذ ضمنيًّا، وإن أبدى أسفه أمام الشباب لتصرُّف «شعبان» الذي يدل على ضيق الأفق والجهل، كما وصفه، في مرحلة لا تحتمل الاختلاف، بل يجب أن يتَّحد فيها الجميع لإحكام السيطرة على المنطقة، وطرد القوات التي تحتلها!

***

كان واقفًا في مواجهة الريح، فوق الصخور العالية في قمة الجبل.. البرد يستبيح عظامه، أطرافه ترتعش، وعيناه تجوبان السهل البعيد.. ودخان الحرائق يتصاعد من الأبنية المدمَّرة بعد الغارة الأخيرة! حدَّق طويلًا في الأشجار الهزيلة.. في قاماتها العجفاء المتطاولة صوب السَّماء بلا ظلال ممتدة على الأرض. كانت الظلال الهاربة تقبع داخل المقاتلين المنتشرين على امتداد الوادي.. ظلال تغلَّبت على الجزء الظاهر من الأجساد الوهمية.. تساءل: «أيمكن أن تغادر الظلال المقموعة أجساد

المقاتلين لتصنع ثورة؟»، فجأة تلاشــت من أمام ناظريه.. الغيوم السوداء ســدَّت الأفق.. المقاتلون تســرَّبوا من فتحات الريح، همس بثقة: «لأجل ذلك يخترع كلُّ طاغية قصته ليعيش فيها».

ببطءٍ انفصل ظلُّه عن جسده، تمدَّد عبر الوادي.. غطَّى مساحة الجبل.. وتبعته باقي الظلال الهاربة من القصف، صاعدة من عمق الوادي.. تاركة الجبال خلفها، متجهة صوب وادي الضيف.

***

لا مكان- كانون الأوَّل 2013

«لم يستطع أن يكتب حرفًا واحدًا.. كلّما وضع كأس البابونج المغلي أمامه، وشمَّ الرائحة المسكرة لأزهار الأرض والعشب.. كان يرى (لمار) قادمة من أسفل الوادي، تجرُّ حمارها، وجبينها معفّر بحبّات العرق، ووراءها جيش من بنات آوى. تُحدِّق فيه بتحدٍّ وريبة.. نظرتها ترعش قلبه، ويشعر بجفاف في حلقه.. يكاد يقسم إنَّها ليست طيفًا، بل امرأة من لحم ودم، تصعد من عمق الوادي، مصحوبة بظلِّها المائل إلى يمينها، تدوسه أقدام حمارها الذي لا ظلَّ له»!

***

هذه سيرة ذاتية للاستبداد، ومتابعة دقيقة لمراحل تشكُّله وتكُّونه، ورصد ذكي لخفاياه النفسية والبيئية والحياتية، قدَّمتها الكاتبة إبتسام إبراهيم تريسي ببراعة وصدق قاسيين؛ حيث عرَّت الحقيقة فبدت كمأساةٍ نحياها ولكن لا ندرك كُنهها إلا في نهاية الطريق.. لكنَّ الكاتبة أدركتها ووعتها، ثم صبَّتها في قالبٍ روائي شيِّق، يُؤرِّخ لمسيرة الاستبداد، ويرصد مسالك الفساد، من خلالِ شخصيات تبعث فيها الكاتبةُ الروحَ على الورق، بعد أن تمنحها اللحم والدم بمداد رُوحها المبدعة !

إبتسام إبراهيم تريسي، ولدت عام 1959 في مدينة أريحا في الشمال السوري. تخرجت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب عام 1986. عزلت من العمل في تدريس اللغة العربية، ورُفض تعيينها في وزارة التربية لمواقفها من النظام فتفرغت للكتابة الروائية.

حصلت على الجائزة الأولى لمسابقة سعاد الصباح عن مجموعتها القصصية (جذور ميتة)، ووصلت روايتها (عين الشمس) للقائمة الطويلة لجائزة البوكر. ولها أيضًا رواية (مدن اليمام).





9 789772 937240
للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com
مكتبة الدار العربية للكتاب